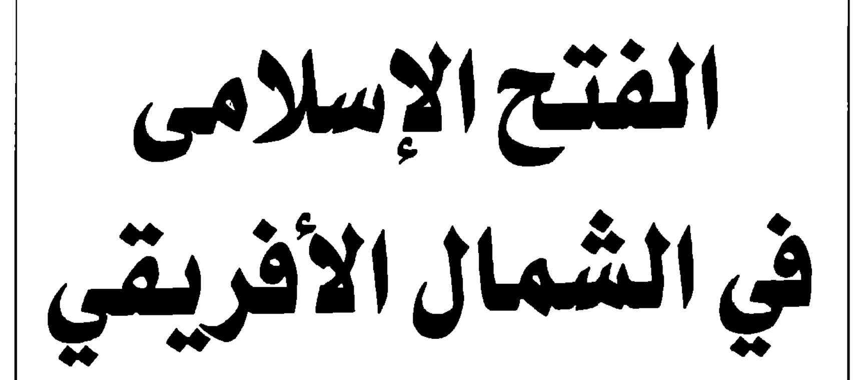


في الشمال الإفريقي

الدكتور علي محمد الصلابي







تأليف

الدكتور علي محمد الصلابي





الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٧٩٥٢

الترقيم الدولي: I.S.B.N.

977 - 441 - 015 - 7

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٥٣٢٦٦١٠ محمول: ٠١٠٢٣٢٧٣٠٢ - ٠١٠١١٧٥٤٤٧

www.iqraakotob.com
Email: info@iqraakotob.com



الإهـــداء

أهـدي هـذا الكتـاب.. إلى الصحابة الكرام الطيبين الأطهـار السـابقين الأبـرار، ومـن سـار علـى نهجهـم مـن العلمـاء الراسـخين، والمجاهـدين الصـادقين، والفقهـاء العـاملين، والقـادة الربـانيين، والجنـود المخلصـين الـذين قدَّموا أنفسهم وأموالهم ومـا يملكون من أجل دعوة الله الخالـدة، فطـافوا مشـارق الأرض ومغاربهـا مبشـرين ومنذرين.

سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ أن يكون خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

علي محمد الصلابي

تنويــــه

هذا الكتاب جزء من كتاب

«صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي»

رأينا نشره منفصلا لأهميته ولتعم الفائدة.

د. علي الصلابي



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى ولك الحمد إذا رضيت.

أما بعد..

فهذا كتاب الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي وقد تحدثت في الباب الأول عن سكان الشمال الأفريقي من حيث أصل كلمة أفريقية ومدلولها والعناصر البشرية التي وجدت في هذا المكان ودياناتهم وحدود الشمال الأفريقي قبل الفتح الإسلامي.

وفي الباب الثاني تحدثت عن ليبيا قبل الفتح الإسلامي وتناولت أهم معالم ليبيا وأصل التسمية وعن ليبيا في علم الآثار وعن حدود ليبيا وسكانها وعناصرهم.

وتناولت في الباب الثالث الفتح الإسلامي لشمال إفريقية ودواعيه، وعن دور الأمة الإسلامية ودوره الريادي، ومبشرات الفتح الإسلامي كما رددت على بعض دعاوى المستشرقين وشبهاتهم، ثم تحدثت عن بدايات الفتح المبارك، وذكرت حملة عمرو بن العاص على طرابلس وصبراته وشروس ثم عودته إلى مصر.

وقد ترجمت لفاتح ليبيا عمرو بن العاص ﷺ وتحدثت عن استراتيجيته العسكرية وأعماله في عهد الرسول ﷺ.

كما تناولت الوسائل التي استخدمها المسلمون الأوائل في تثبيت دعائم الإسلام في هذه المنطقة، فتحدثت عن حملة عبد الله بن سعد على أفريقية (تونس) وترجمت لعبد الله بن سعد وذكرت شيئًا من مبادئه الحربية وأهم صفاته القيادية، وأعماله في عهد الخليفتين عمر وعثمان رضي الله عنهما.

كما تحدثت عن معاوية بن حديج وحملته على ليبيا وإفريقية، ثم تحدثت عن عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الإفريقي منذ بداية الفتح المبارك وتأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الأفريقي، وقد ترجمت أيضًا لعقبة بن نافع وذكرت أهم مناقبه وصفاته والقيادية.

وقد تحدثت عن قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى مثل أبي المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي وحسان بن النعمان الأزدي الغساني وموسى بن نصير اللخمي وعبد الله بن الزبير الأسدي القرشي وعبد الملك بن مروان الأموي ورويفع بن ثابت الأنصاري.

وفي الباب الرابع تحدثت عن كتائب المجاهدين والدعاة والصحابة الذين دخلوا الشمال الإفريقي واستقروا في القيروان، وأثر الصحابة الرواة في نشر السنة بالقيروان وإفريقية وقد ختمت الكتاب بخلاصة ما توصلت إليه في هذه الدراسة وكذلك أهم المصادر والمراجع التي استعنت بها في هذا الكتاب.

وأخيرا:

أرجو من الله أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم، وأن يثيبني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب، وأخص بالذكر الأخ الفاضل عبد الحكيم الصادق الفيتوري الذي أشرف على تهذيب، ومراجعة، وطباعة الكتاب الأول.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصَّلابي

* * *

الباب الأول

الشمال الأفريقي قبل الفتح الإسلامي

لا يخفى أن من الضرورة بمكان ونحن نتكلم عن تاريخ ليبيا أن نتناول الشمال الأفريقي على الجملة بشيء من التعريف به اسميا، وتضاريسيا، وسكانا، وديانة، بحيث تكتمل صورته في ذهن القارئ ويتصور أجناس الناس-وما كانوا عليه من ديانة-أوضاعهم السياسية والحربية والاجتماعية تصوراً كاملاً حتى يستطيع استخلاص العبر والدروس من ذلك؛ لأن الحكم على شيء فرع عن تصوره، وبذلك يتحقق المقصود من كتابة هذا الكتاب.

الفصل الأول

سكانه

المبحث الأول

أصل كلمة أفريقية ومدلولها

جاء في كتاب (قادة فتح المغرب العربي) قوله: أطلق الفينيقيون لفظ أفرى (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم القديمة (Utlca) وعاصمتهم قرطاجنة مدينتهم الحديثة، وعنهم أخذه اليونان فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة (أفريكا) أي بلاد الأفري، واستعمل هذا الاسم للدلالة على هذه المنطقة، وأخذ معنى هذا اللفظ يتسع شيئًا فشيئًا كلما اتسع سلطان الرومان في إفريقية فأصبحت ولاية إفريقية القيصرية تضم ولاية إفريقية الأصلية والجزء الشرقي من تونس الحالية والمنطقة الداخلية التي تمتد حتى (فزان)، أما بقية إفريقية الرومانية فسمى الجزء المقابل منها للجزائر الحالية: نوميديا، ويلي ذلك موريتانيا بقسميها القيصرية والطنجية، فإفريقية، تشمل كل ما دخل في طاعة الرومان من هذه القارة من برقة إلى طنجة، وعن البيزنطيين أخذ العرب لفظ إفريقية، فأرادوا به في أول الأمر كل ما يلي مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسي، وهذا هو مفهوم إفريقية العام الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب.

أما مفهوم إفريقية الخاص فهو يعني الأجزاء الشرقية من المغرب التي تعادل ولاية إفريقية الرومانية الأصلية، أي البلاد التونسية الحالية مع بعض الأجزاء الغربية لولاية طرابلس (ومنها المدينة) والتخوم الشرقية لبلاد الجزائر إلى (بجاية) في ولاية (قسطنطينة)، وعلى ذلك فإقليم إفريقية هو أول أقاليم المغرب [١].

أصل كلمة المغرب ومدلولها:

جاء في المصدر نفسه قوله: «بلاد المغرب مصطلح يقصد به كل من الأقاليم الواقعة غرب مصر والتي تشمل القارة الأفريقية وتتضمن حالياً البلاد الليبية بولاياتها الثلاث

---

(١) قادة فتح المغرب العربي، محمود شيت خطاب (١ / ١٣، ١٤).

(برقة، وطرابلس، وفزان)، وتونس، والجزائر، بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمتها الجنوبية، ويمتد طبيعياً نحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر والمغرب عند الكتاب الأوائل يبدأ مما يلي إفريقية غرباً إلى سواحل المحيط؛ فقد ولى يزيد بن عبد الملك يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج بن يوسف الثقفي إفريقية والمغرب، وهذا معناه أن المغرب هو غير إفريقية، والمغرب الأقصى هو بلاد مراكش (المغرب) والمغرب الأوسط هو بلاد الجزائر الحالية، وخط التقسيم بين المغربين الأقصى والأوسط هو مجرى وادي ملوية أو ما بين تلمسان و(تارا)، أما المغرب الأدنى، فهو بلاد القيروان أو ما يسمى اليوم بتونس»[1].

* * *

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ١٤، ١٥).

المبحث الثاني

العنصر البشري

المطلب الأول

العنصر البربري

قال صاحب كتاب قادة فتح المغرب العربي: «البربر سكان المغرب الأصليون ونقصد هنا بالمغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي، وهم أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الأفريقي، ومن المعقول جداً أن يكون العرب قد أخذوا لفظ (البربر) عن (اللاتينية) (Barbar) مع تغيير معناه، إذ كان الأفارقة اللاتينيون يطلقونه عادة على الأهلين».

وقد حاول الكتاب العرب تفسير لفظة: (بربر) فأوردوا في ذلك عدداً من الآراء يمكن تقسيمها إلى قسمين: أولهما: تفسير كلمة (البربر) تفسيرا لغويا، لأن لغة القوم في رطانة أعجمية تختلط فيه الأصوات التي لا تفهم، فقيل لهم: (ما أكثر بربرتكم)، كما يقال: بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة. أما ثانيهما: فتفسير كلمة (البربر) على حسب عادة العرب في تقسيم الشعوب على الأسس المتعارف عليها عندهم في علم الأنساب، إذ قيل: شعب المغرب اتخذ اسم أحد آبائه البعيدين، هو بر بن قيس عيلان، ولكن ابن حزم يقول عن ذلك: (.... وهذا باطل لاشك فيه، وما علم النسابون لقيس ابنا اسمه: بر أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذب مؤرخي اليمن).

ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى كانت أنساب البربر قد دونت بالعربية وأصبحت مثل أنساب العرب، والظاهر أن هؤلاء النسابة اتخذوا شجرة الأنساب العربية التي تقسم العرب إلى قسمين كبيرين، ينحدران من قحطان وعدنان -نموذجا- فقسموا قبائل البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما: البرانس، والبتر، وقالوا: إن الجماعة الأولى أبناء برانس بن بربر، وإن الجماعة الثانية أبناء مادغيس ابن بربر الذي لقب بالأبتر [1].

وقال أيضاً عن البرانس: البرانس من قبائلهم المشهورة عشرة: إزداجة، مصمودة، أرية، عجيسة، كتامة، صنهاجة، أريغة، ويضاف إليهم حسب رأي البعض لمطة،

(١) قادة فتح المغرب: (١٤، ١٥).

وعكسورة وجزولة (كزولة).

وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فقبيلة هوارة تنحدر من أوربغ، وقبيلة مكيلة تنحدر من عوارة، وقبيلة غمارة تنحدر عن مصمودة [١].

وقال أيضاً عن البتر: البتر من قبائلهم المشهورة أربعة: أداسة ونفوسة وضريسة ونبولوا الأكبر، وهذه الأصول الكبيرة تنقسم إلى فروع صغيرة، فمن قبائل (لوا) تعد قبيلتا نفزاوة ولواتية، وينحدر من (نفزاوة) قبيلة (وطاطة) وينحدر من (وطاطة) قبيلة (تيرغاش) ومن (تيرغاش) تنحدر قبيلة (ورفجومة)... الخ [٢].

والذي يلاحظ أنه رغم انقسام البربر إلى برانس وبتر، وانقسام هؤلاء إلى قبائل مختلفة، فإن القرابة موجودة بين الجماعتين، كما أن الصلة وثيقة بين فروع كل منهما، فالنسابون يختلط عليهم الأمر إلى درجة أنهم يضعون قبيلة هوارة في البرانس، ثم يعدونها من البتر أو يجعلونها أختا لقبيلة أداسة البترية (عن طريق الأم)، وكذلك الأمر بالنسبة إلى قبيلة (زواو) التي تعد من البتر ويعتبرها ابن حزم من كتامة البرنسية.

وابن خلدون يحذو حذو من ينفي انتساب البربر إلى العرب مثل ابن حزم والحق أن للنسابين العرب والبربر العذر في جعل شجرة النسب البربرية أشبه ما تكون بشجرة النسب العربية، بل وفي إلحاق البربر بالأصل العربي، فمما لا ريب فيه أن الشبه قريب بين العربي والبربري، وهذا أمر وليد البيئة، لأن طبيعة بلاد المغرب يغلب على أهلها الطابع الصحراوي وهي أشبه بطبيعة بلاد العرب، مما يترتب عليه نتاج ذو طبيعة متجانسة في الاجتماع والعمران، لذلك ينقسم البربر إلى طائفتين متباينتين، وهنا طائفة البربر الحضر (سكان المدر أي البيوت) وطائفة البربر الرحل (سكان الوبر أي سكان الخيام)، وسكان الحضر منهم يسكنون النواحي الشمالية الخصبة والسفوح المزروعة وسكان الوبر منهم يسكنون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوباً وشرقاً.

والفوارق بين الطائفتين اجتماعية لا جنسية، إذ إن البربر المستقرين ينزلون النواحي الخصبة بجبال (زوراس) أي جنوب وسط الجزائر الحالية، وجنوب المغرب، وبعض أجزاء تونس الغربية،

---

(١) قادة فتح المغرب: (١٦، ١٧).

(٢) المرجع السابق: (١٦).

وطبيعي أن يكونوا على جانب من الحضارة لاتصالهم بالقرطاجنيين، واللاتين، وحضارات البحر الأبيض المتوسط، فاشتغلوا بالزراعة والصناعة، وظهر فيهم نفر أخذوا بأسباب الحضارة اللاتينية مثل (يوبا) أمير (نوميديا) الذي درس وتربى في روما، و(يويجرتا) عدو الرومان اللدود، و(ماكسن) الذي لعب دوراً سياسياً مهمًا في الحرب ما بين روما وقرطاجنة.

أما البربر الظواعن، فهم بدو يعيشون على الرعي ويميلون إلى الإغارة على ما يجاورهم من نواحي العمران، فكان هذا الاختلاف في الأحوال الاجتماعية سبباً في نزاع طويل وحروب مستمرة بين الفريقين، فكان الرحل لا ينفكون يغيرون على مزارع المستقرين وقراهم، فاضطر هؤلاء إلى أخذ الحذر منهم والاحتماء من أذاهم، والاستعانة عليهم باللاتين أو البيزنطيين، مما أدى إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل جلي واضح، وكان له أبعد الأثر في مستقبل البلاد السياسي، إذ حال دون اتحاد أهلها، وسهل غزوها ومكن الفاتح (الفتح لا يكون إلا بدعوة الحق) الأجنبي من أن يستعين بفريق على فريق، وحال دون نشوء دولة بربرية واحدة أو شعب متكاتف متناسق، أفاد الرومان من هذه الحال إفادة كبرى، فاستعانوا بفريق على فريق فأمكنهم ذلك من البلاد، وثبت أقدامهم فيها، أما البيزنطيون، فلم يوفقوا إلى الفائدة من تلك الحال، مما جعل سلطانهم على البلاد ضعيفاً واهيا [1].

المطلب الثاني
العنصر الأفريقي

تطلق كلمة الأفارقة في بعض الكتب ويراد بها العنصر ذو البشرة السوداء على سكان القارة الأفريقية الأصليين، بيد أن في بعض الكتب المعاصرة إذا ما أطلقت هذه الكلمة يراد بها سكان القارة الأفريقية بحدودها الجغرافية الحالية، وتشمل ذوي البشرة السوداء والبيضاء، كسكان الشمال الأفريقي (المغرب العربي).

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب في تعريفه للعنصر الأفريقي: (مع أن هذه التسمية نسبة إلى إفريقية، إلا أنه يفهم أن الأفارقة يختلفون عن البربر والروم.

وعلى ذلك يمكن أن يكون الأفارقة دخلوا في خدمتهم وانصبغوا بالحضارة الرومانية كما دخلوا في المسيحية، ورغم أن كثيرًا من هؤلاء الأفارقة دخلوا في الإسلام، فإن الكثيرين منهم

---

(١) قادة فتح المغرب: (١ / ١٨).

ظلوا يتكلمون لغة خاصة بهم ربما كانت مزيجا من اللاتينية والبربرية، أو لهجة محلية) [١].

المطلب الثالث

العنصر اليهودي

لا يخفى أن تواجد العنصر اليهودي في العصور الأولى كان ضئيلا جداً، وسبب تواجده في منطقة الشمال الأفريقي كان لعدة أسباب منها: سبب سياسي: وهو حب السيطرة وتوسع نفوذهم في أرجاء المعمورة، وسبب اقتصادي: حيث كان الشمال الأفريقي ينعم بخيرات البر والبحر، كل هذه الأسباب والدوافع مجتمعة كانت وراء مجيء العنصر اليهودي للمنطقة، حيث وصلوا على هيئة جماعات صغيرة عن طريق الفينيقيين قبل وصولهم الأخير إلى بلاد المغرب أيام الرومان.

يقرر ذلك الأستاذ محمود شيت خطاب بقوله:

«وجد العرب -المسلمون- أيام الفتح جماعات من يهود في إفريقية، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفينيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر» [٢].

المطلب الرابع

العنصر السوداني

إن كلمة السودان إذا ما أطلقت يراد بها سكان ما وراء البحر الأحمر من القارة الأفريقية، جنوب المغرب العربي، ويدخل في ذلك دخولاً أوليا السودان، وأثيوبيا، وإرتيريا، والصومال، وجيبوتي، حيث يعتبر سبب تواجد هذا العنصر في الشمال الأفريقي سبباً طبيعياً، لأن أراضي الشمال والجنوب مترابطة ترابطا إلى أبعد الحدود، لدرجة تسهل بينهما عملية التنقل والتجارة والإقامة والتزاوج، لذلك تجد في سكان الشمال الأفريقي ذوي الألوان السوداء الأفريقية.

يقول الأستاذ شيت بهذا الصدد: (إن بلاد المغرب وثيقة الصلة من الناحية الجغرافية

---

(١) قادة فتح المغرب: (١ / ١٨).

(٢) المرجع السابق (١ / ٢٠).

بلاد السودان العربية، ونلاحظ أن كُتاب اليونان القدماء يطلقون اسم الأحباش (الأثيوبيين) على أهل الأقاليم الجنوبية من المغرب، والحقيقة أن واحات الصحراء كانت همزة وصل بين المغرب والسودان، فكان من الطبيعي أن تكون بالتالي منطقة المزج بين العنصرين الأبيض والأسود) [١]

المطلب الخامس

العنصر الرومي والفرنجي

يقصد بهذا العنصر،العنصر الأوروبي،خاصة سكان فرنسا ومن حولها، أصحاب الوجوه الحمراء، والشعور الصفراء، والعيون الزرقاء، فتواجد هذا العنصر في الشمال الأفريقي كان طبيعياً حيث إنهم -الروم والفرنج- حكموا هذا الإقليم وأقيمت لهم إمبراطوريات لفترة من الزمان لا يستهان بها، لذلك حدث الاختلاط بينهم وبين سكان الشمال الأفريقي بصور عدة منها التزاوج والإقامة الدائمة، حيث بقي منهم في الشمال الأفريقي بصورة دائمة، لذلك تجد في بعض سكان الشمال الأفريقي الشبه الأوروبي من ناحية الملامح الظاهرة واضحاً جداً.

يقول الأستاذ شيت في ذلك: (رغم أن البلاد كانت خاضعة للرومان ثم للروم- البيزنطيين-لمدة طويلة منذ انهارت قرطاجنة أمام روما، إلا أن هؤلاء ظلوا يكونون جماعة منفصلة عن البربر حقيقة، وأنه حدث تزاوج واختلاط بين الجماعتين، إلا أن الامتزاج كان محدودا لم يتجاوز التحالف والدخول في الخدمة العسكرية، في بعض الأحيان، وفيما بين الحكم الروماني والحكم البيزنطي وقعت البلاد تحت حكم الوندال الجرمان الذين دخلوها عن طريق إسبانيا في القرن الخامس الميلادي، ورغم القضاء على الوندال نرى أن بعضهم تمكن من النجاة، وأنهم لجأوا إلى داخل البلاد حلفاء أو لاجئين عند بعض القبائل، ومن الطبيعي أن يكون قد حدث اختلاط بينهم وبين البربر،والأقرب إلى الحقيقة أن يكون ذلك هو تفسير وجود الشقرة والزرقة بين بعض جماعات البربر، بدلاً من القول: بأن النموذج للرجل البربري هو الرجل الأشقر، وكلمة الفرنج، يقصد بها الفرنسيس، قال ابن خلدون: وهذه الأمة المعروفة بالإفرنجة، وتسميها العامة بالفرنسيس، نسبة إلى بلد من أمهات أعمالهم تسمى فرانسة.. الخ) [٢].

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٠).

(٢) المرجع السابق (١ / ٢٠).

الفصل الثاني

ديانتـــــــه

المبحث الأول

الديانة المجوســـية

والديانة المجوسية تدور على قاعدتين اثنتين كما هي مقررة عند أصحاب هذا المعتقد: إحداهما: بيان سبب امتزاج النور بالظلمة، والثانية: بيان سبب خلاص النور من الظلمة، وجعلوا الامتزاج مبدأ، والخلاص معادا، وكانت هذه الديانة الوثنية أكثر انتشارا في بلاد الهند والعجم من الرومان والفرنجة، أما تواجدها في فترة من الزمان قبل ظهور اليهودية والمسيحية في الشمال الأفريقي نظراً لعدم وجود دين سماوي في تلك الفترة، ثم تواجد الرومان المجوس وغيرهم في المنطقة، مع تأثر أهل البلاد بمن غلب عليهم ومسك بزمام أمرهم.

يقول الأستاذ محمود شيت عن ديانة سكان الشمال الأفريقي: (كانت ديانتهم قبل المسيح المجوسية) [1].

* * *

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١٩، ٢٠).

المبحث الثاني

الديانة اليهودية

إن الديانة اليهودية هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروفين بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً، فحرفوها وأشركوا مع الله غيره في العبادة ونسبوا له الابن-تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً-وقالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقالوا: يد الله مغلولة، وكفروا بالملائكة والنبيين، وانحرفوا عن دين موسى عليه السلام انحرافا كاملاً، وكان من مواطن انتشار هذه الديانة المحرفة: بلاد الشام وأوروبا، أما الشمال الأفريقي فكان نصيبه النذر اليسير، حتى وصلته هذه الديانة المحرفة عن طريق الفينيقيين على هيئة جماعات صغيرة ضعيفة، وانتهت بمجرد دخول المسيحية عن طريق الروم الذين أقاموا مملكة وإمبراطورية ضخمة في الشمال الأفريقي استمرت فترة من الزمان لا يستهان بها.

يقول الأستاذ شيت:

«وجد العرب -المسلمون- أيام الفتح جماعات من يهود إفريقية، ويرى بعض الكتاب أن الأفكار اليهودية بدأت تعرف طريقها إلى البلاد عن طريق الفينيقيين، وذلك قبل أن تهاجر جماعات من اليهود إلى المغرب على أيام الرومان، وقد عمل هؤلاء المهاجرون على نشر اليهودية بين بعض قبائل البربر»[1].



(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٩، ٢٠).

المبحث الثالث

الديانة المسيـــحية

إن المسيحية تطلق على الدين المنزل من عند الله على نبيه عيسى عليه السلام، وكتابها الإنجيل، إلا أن أتباعها حرفوا الإنجيل وعقيدته الصحيحة حتى أصبحت عقائدهم خليطاً من الوثنية الرومانية والهندية، والفلسفة اليونانية، والتحريفات اليهودية، فهم الذين يعتقدون عقيدة التثليث بزعمهم أن الله له ثلاث حالات-الأقانيم-فالإله الأب-والإله الابن-والإله الروح القدس، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وكان للديانة المسيحية حينئذ إمبراطورية كبيرة في روما ومصر، استطاعت أن تبسط نفوذها على مساحات شاسعة من الأراضي، فكان من بين تلك الأراضي أرض شمال إفريقية، حيث وجدت النصرانية إليها سبيلاً عن طريق الكنائس ورهبانها الذين قاموا بإجراء اتصالات مكثفة مع أهالي الشمال الأفريقي، فحققوا نجاحا عجز عن تحقيقه حكام البلاد وقادة الجند، إلا أن انتشارها كان محصوراً في المدن التي أقاموا فيها فيما بعد، أما بالنسبة لانتشارها في مناطق البدو فكان محدودا للغاية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

«دخلت المسيحية المحرفة إلى المغرب عن طريق مصر، وعن طريق روما، خلال القرن الثاني الميلادي، فاعتنقها كثير من البربر، وانتشر الرهبان بين البربر، فكانت المسيحية سبباً للاتصال بين الرومان في العصر الروماني (١٤٦ إلى ٤٣٥م)، وبين الأهالي، وكانت الكنائس وسطاً صالحًا للاتصال والتفاهم، وبهذا وفق الرهبان فيما عجز الحكام عنه، وهو اجتذاب نفر من أهل البلاد» [1].

ولكن لما أحست الامبراطورية الرومانية بجدوى أعمال الكنائس واتصالات الرهبان بالأهالي قامت باتخاذ إجراءات لازمة نحو الحفاظ على وحدتها السياسية، إلا أن أيام

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٣٩، ٤٠).

الامبراطور (دسيوس) الذي طلب من جميع رعاياه البراءة من الديانة المسيحية المانوية، وحث رعاياه بإعلان تمسكهم بالديانة الوثنية المتمثلة في عبادة الأباطرة وآلهة روما الوثنية!! من هنا كانت بداية نهاية الديانة المسيحية عند البعض، ويلعن بعضهم البعض، حينذاك وجد سكان الشمال الأفريقي فرصة للتمرد على الامبراطورية الرومانية، وأعلنوا ثورة سياسية دينية ضد الرومان.

يقول الأستاذ خطاب بهذا الصدد:

«حينئذ رفع البربر علم الثورة على الرومان؛ ثورة سياسية في الواقع دينية في الظاهر، وعبثا حاولت كنيسة قرطاجنة القضاء على الوندال وعلى الدوناتية، ولم يلبث الوندال أن قَبِلُوا خلفاء للرومان على إفريقية فأنشأوا يضطهدون الدوناتيين وأعداءهم معاً، وفرضوا على الناس مذهبهم-الأريوسي-الذي يقول بطبيعة المسيح البشرية-واضطهدوا الكاثوليك وصادروا أملاك الكنيسة وأموالها، وبهذا تفرق أمر المسيحيين [1] في إفريقية، واختلف أتباعها شيعا وأحزابا، فلم يلبث أن ارتد عنها الكثيرون، وضعف أثرها في الداخل» [2].

وهكذا كانت بداية الصراع ونهايته إلا أن هناك نقطة جديرة بالذكر في هذا المقام، وهي عندما اضطربت الأمور، وارتد الناس عن النصرانية، وانتشرت المذاهب المتباينة بين سكان الشمال الأفريقي قام القائد جوستنيان بإحياء فكرة النصرانية من جديد عن طريق إعادة بناء الكنائس وترميمها، وإرسال الدعاة إلى القبائل البربرية لنشر الفكرة النصرانية المنحرفة، وتقوية الروابط الدينية بينهم.

يقول الأستاذ خطاب في ذلك:

«اهتم جوستنيان اهتماما بالغاً بإعادة المسيحية إلى إفريقية، فأعاد بناء كثير من الكنائس وأنشأ بعضها، وشجع البعثات التبشيرية، فأخذت المسيحية تنشط من جديد،

---

(١) تسمية عبدة الصليب أو النصرانية المحرفة بالمسيحيين فيه نظر، ولو جاز لجاز أن نقول محمديون، وموسويون، وهذا لا يقال به، إنما هم عباد الصليب أو أهل كتاب محرف، والله أعلم. راجع مناظرة بين الإسلام والنصرانية، الرئاسة العامة للدعوة والإرشاد والبحوث العلمية، السعودية.

(٢) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٤١).

وانتشرت بين القبائل البربرية المحيطة بصبرة وفي طرابلس وفي بعض نواحي نوميديا مثل وادي شلف حول تلمسان»[(١)].

ولكن دور الكنيسة الأفريقية في العصر البيزنطي ونشاطها النصراني انتهى بمجرد تلبس بعض قساوستها بالمعاصي والذنوب، وتدهور أخلاق القائمين على هذه الدعوة مع وجود عامل آخر لا يقل أهمية عن الذي قبله، وهو خصومة المذهب الدوناتي الحادة للكنيسة مما جعل الناس يفرون من ظلم الكنيسة وطقوسها!!.

وفي هذه الفترة الحرجة نشطت الكنيسة الغربية وأخذت على عاتقها أمر العباد والبلاد، وكان ذلك بزعامة وقيادة جريجوري الأكبر، الذي انتهز الفرصة في تفرق أمر المسيحية في أفريقية، ليتدخل في شئون إفريقية عن طريق الكنيسة الأفريقية من خلال قساوستها، ومن ثم السيطرة علي زمام أمور البلاد والعباد.

جاء في كتاب «قادة فتح المغرب العربي» بهذا الصدد: «بيد أن الكنيسة الأفريقية لم تكن خلال العصر البيزنطي على حال يبعث على الأمل في مستقبل المسيحية في البلاد، فكانت إدارتها مختلة النظام إذ تلاشى النظام الكنسي، واقترف القساوسة ذنوبا كثيرة تدل على العصيان أو التدهور الأخلاقي والفساد، وكانت الدوناتية وخصومتها المشبوبة مع الكنيسة البيزنطية عاملاً آخر من عوامل ضعف هذه الأخيرة، إذ استطاع دعاتها أن يفروا إلى داخل البلاد نجاة من الاضطهاد، وهناك كانوا يثيرون الناس على الكنيسة البيزنطية فيفر منها الكثيرون، بل أخذ البعض يعمد نفسه من جديد وفق طقوس الدوناتيين.

كانت الكنيسة الغربية قد أخذت تنهض نهضة علمية عظيمة في ذلك الزمن بفضل جهود جريجوري الأكبر، وكانت الخصومة ناشبة بينها وبين كنيسة بيزنطة،ووجد جريجوري في تفرق أمر المسيحية في إفريقية فرصة طيبة يتدخل بها في شئون كنيسة إفريقية ليكسب رعاياهم إلى صفه، فاستعان بقساوسة ذوي قدرة وشهرة فأخذ مسيحيو إفريقية يتجهون نحو روما متأثرين بما كان جريجوري يذيعه فيهم من نداءات، وبما يبذله قساوسته من جهد، وبما حرصت عليه الكنيسة الغربية من إعزاز لأمر الدين وإخلاص في نشره،

---

(١) قادة فتح المغرب (١ / ٤١).

وبذلك ازدادت العلاقات العامة بين بيزنطة وإفريقية ضعفاً على ضعف»[١].

وفي أواخر العصر البيزنطي بعد موت هرقل الكبير سنة (٦١٠م) وخلفه أخوه جريجوريوس كانت حينذاك الانقسامات الدينية قد اشتدت في إمبراطورية البيزنطيين، فأراد هرقل أن يجنب بلاده تلك الفوضى الفكرية، فطلب من رجال الدين في دولته أن يصدروا مذهباً وسطاً يرضي كل الطوائف الدينية!!، فكان صدى هذا المذهب في أوساط دولته أن أثار سخطهم جميعاً حتى أصر أساقفتهم، ورهبانهم على بقائهم على مذاهبهم القديمة، بل وصل الأمر بهم إلى إعداد العدة لمواجهة الدولة، ولكن هرقل عاجلته المنية فمات وتولى بعده قسطنطين الثالث الذي كان يعتنق المذهب الأرثوذكسي، فأذاق الرهبان الرافضين العودة إلى أحضان الكنيسة سوء العذاب.

يقول الأستاذ محمود شيت مصورا تلك الحقبة من الزمان:

«في ذلك الحين، كانت الانقسامات الدينية قد اشتدت في بيزنطة وأخذ سعيرها يمتد فيحرق ولاياتها بلظاه، وكان الروم-وقد توزعتهم المذاهب المختلفة شيعا وفرقا-تتصارع وتتحارب، وتهبط بالدولة إلى درك عميق، وأحب هرقل أن يخلص بلاده من تلك الفوضى، فأخذ يتصل بكبار رجال الدين في دولته يستطلع رأيهم حتى اتفق رأيه آخر الأمر على إصدار مذهب وسط ترضي عنه الطوائف كلها، فلم يكد المجلس الديني الذي عقده في سنة (٦٣١م) يصدر المذهب الجديد، حتى ثار الناس كلهم عليه، وأنكروه جميعاً.. فلم يجد هرقل بدا من أن يصطنع الشدة في إرغام الناس على إتباعه، فاضطهد الكثيرين من رعاياه اضطهادا شديداً، وشقي به قبط مصر خاصة لما أصابهم على يد «قيرس» الذي ندبه هرقل لتطبيق هذا المذهب في مصر»[٢].

وقال أيضاً: «ومات هرقل وتولى قسطنطين الثالث عرش الامبراطورية، وكان عدواً للمذهب الذي ابتدعه هرقل، فلم تكد شكوى أساقفة إفريقية تصل إلى علمه حتى أمر بإخراج الرهبان الذين يرفضون العودة إلى أحضان الكنيسة من الأديرة ومصادرة أملاك

---

(١) قادة فتح المغرب (١ / ٤١).
(٢) قادة فتح المغرب (١ / ٤٤، ٤٥).

الأديرة الخارجة، وبهذا انقلب الحال، ونزل الاضطهاد بأشياع الامبراطور القديم» [(١)]

وهكذا أصبحت حالة المسيحية في الشمال الأفريقي مذاهب شتى، وجماعات منشقة، وأفكار غثي، وصراعات حادة بين الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية، والرومانية الكاثوليكية، التي كانت عاملاً أساسياً في انقراض النصرانية، حيث ساعدت هذه العوامل أهالي المنطقة أن يقفوا ضدها ويتمردوا عليها، وأن يبحثوا عن بديل يلبي فطرتهم التي ركزها الله عز وجل في نفوس كل البشر، فكانت هذه مقدمة لما بعدها حيث تهيأت نفوسهم لقبول الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* * *

(١) أهم المراجع في الفصلين الماضيين التي رجعت إليها: قادة فتح بلاد المغرب محمود شيت خطاب، فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول، المسالك والممالك، لأبي إسحاق الفارسي، مقدمة ابن خلدون، جمهرة الأنساب لابن حزم، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، طاهر الزاوي.

الفصل الثالث

حـــــــدوده

يجدر بنا ونحن بصدد ذكر الشمال الأفريقي أن نهتم بتعريف حدوده الجغرافية من وإلى، بحيث تتضح معالمه الحدودية القديمة والجديدة للقارئ، ويتصور المنطقة تصوراً صحيحاً شاملا.

يقول الأستاذ الحسين بن محمد شواط في تعريفه لحد إفريقية: «بأن إفريقية بكسر الهمزة-وهو المشهور-وقيل بفتحها، النسبة إليها إفريقي، وقد اختلف الجغرافيون في تحديد هذه البلاد على أقوال، أهمها:

(١) قيل: هي الأرض الواقعة بين برقة وطنجة وعلى هذا فهي تشمل المغرب والجزائر، وتونس، والجزء الأكبر من ليبيا.

(٢) وقيل: هي ما بين برقة وتاهرت، أي الجزائر، وتونس، والجزء الأكبر من ليبيا.

(٣) وقيل: حدها من طرابلس إلى بجاية، أي أنها تشمل تونس وجزءا من الجزائر وجزءا من ليبيا.

(٤) وقيل: إنها بين طرابلس وقسنطينة، أي: ما يقارب حدود البلاد التونسية حالياً.

(٥) وقيل: هي مدينة القيروان [١].

ولا يخفى أن كل هذه التعريفات تدور حول تحديد المعالم الحدودية لإفريقية أما الشمال الأفريقي فمعالمه واضحة حيث إنه يشمل الدول الخمس المعروفة الآن بدول المغرب العربي، وهي: ليبيا،وتونس، والجزائر، والمغرب، وموريتانيا.

---

(١) انظر: مدرسة الحديث في القيروان،من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، للأستاذ / الحسين بن محمد شواط، (١ / ٣١، ٣٢).

وينص على ذلك الدكتور سعد زغلول بقوله:

«بلاد المغرب مصطلح يقصد بها الكتاب العرب كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تشمل القارة الأفريقية، والجزائر بصحرائها المترامية إلى تخوم السودان، وأخيراً المغرب-الذي كان يعرف إلى عهد قريب باسم مراكش نسبة إلى عاصمته الجنوبية-ويمتد طبيعياً لحو الجنوب إلى تخوم السنغال والنيجر» [١].

* * *

(١) تاريخ المغرب العربي من الفتح إلى بداية عصور الاستقلال، (ص٦١).

الباب الثاني

ليبيا قبل الفتح الإسلامي

لقد تحدثنا في الباب الثاني عن الشمال الأفريقي على الجملة بشيء من الإيجاز، بيد أننا سوف نتناول في هذا الباب ليبيا ومعالمها الجغرافية، وعناصرها البشرية وديانتها الرسمية قبل الفتح الإسلامي بشيء من التفصيل بعد ما أجملنا.

الفصل الأول

معالم ليبيـــا

المبحث الأول

أصل التسميـــة

لقد تقرر في علم الآثار أن نسبة لفظة «ليبو» أو «لوبا» كان يطلقها أهل مصر على القبائل التي تسكن غرب وادي النيل، أما اليونانيون فكانوا يطلقون اسم «لبي» على شعوب شمال أفريقية كله باستثناء المصريين.

ذكر الأستاذ طاهر الزاوي في تحديد أصل تسمية المنطقة بليبيا:

«وقد عدد المقريزي في خططه كور مصر، فذكر من كور الجوف الغربي: كورة الإسكندرية، وكورة مريوط، وكورة لوبيا ومراقية.. وذكر في تحديد مصر أنها تحد من الجهة الغربية ببرقة..» ونقل عن القضاعي ما نصه: «الذي يقع عليه اسم مصر من العريش إلى آخر لوبية ومراقية، وفي آخر أرض مراقية تلقي أرض طرابلس وهي برقة»[1].

ويقول جون رايت في ذلك: «لقد وجد في النقوش المصرية للألف الثاني قبل الميلاد وصف للقبائل التي عاشت في صحراء غرب وادي النيل بأنها «ليبو» أو «ريبو»، وبعد قرون من ذلك الوقت أطلق اليونانيون اسم «لبي» على شعوب شمال أفريقية كله باستثناء المصريين [2].

وبذلك يتقرر أن اسم ليبيا اسم رسمي منذ القدم، قد أطلقه اليونانيون على مدينة قورين-شحات-ثم بعد ذلك عمم عليه سكان برقة وطرابلس، وكل من كان يقطن غرب منطقة النيل إلى بداية إفريقية -تونس الحالية- .

* * *

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ / طاهر أحمد الزاوي، (ص ١٤، ١٥).
(٢) تاريخ ليبيا، لجون رايت، (ص ١٣).

المبحث الثاني

ليبيا في علم الآثـــار

إن جزءًا كبيراً من تدوين التاريخ البشري يعتمد على الآثار ومحفوظاته الأثرية والفنية، والمخطوطات القديمة فكان نصيب ليبيا من ذلك العلم النصيب الوافر، حيث وجدت الآلاف من الصور المنحوتة على الصخور في أكثر من عشرين موقعاً، وكانت تحمل في طياتها الأمور الغريبة والعجيبة عن معالم ليبيا البشرية، والفنية والاجتماعية، والمناخية، والطبيعية التي تحتاج من أهل الفن أن ينظروا فيها نظرة تأمل وتدبر حتى يستطيعوا أن يقرأوا ما بين السطور، وما تحت الصور، ويربطوا الغائب بالشاهد من تاريخ المنطقة.

لقد نص المؤرخ الإنجليزي جون رايت في كتابه أنه قد تم العثور على صخور فنية في ليبيا، وعلى هذه الصخور الفنية القديمة وجد العلماء آلاف الصور في أكثر من عشرين موقعاً، معظمها في فزان، وفي زاوية براك، ومرزق، وسبها وجبال تبستي، وفي موقع ببرقة قرب حدود مصر والسودان، وفي أربعة أماكن من جبال منطقة طرابلس أيضاً، وكان أول من لاحظ أهمية هذه الرسوم الصخرية هو البحاثة الألماني (هنريش بارت) سنة ١٨٥٠م،غير أنها لم تدرس بالتفصيل إلا في السنوات الثلاثين الماضية، وبقي الكثير من الرسوم التي تحتاج إلى عشرات السنين لفحصها ودراستها.

اعتاد فنانو ما قبل التاريخ رسم الحيوانات التي كانوا يصطادونها على سطح الصخور الناعمة، ورسموا كذلك مناظر لرجال عراة يطلقون السهام على الوحوش الضخمة، ومما يلفت النظر انقراض واختفاء هذه الحيوانات من ليبيا، بل من أفريقية الاستوائية على مسافة مئات الأميال جنوبي ليبيا.

وقد غطى فنانو الصيد القدماء سطوح الصخر الناعمة برسوم واضحة للفيلة والزراف، والتماسيح، ووحيد القرن، وفرس النهر والحيوانات الأخرى التي عاشت زمنا في تلك المنطقة التي أصبحت بعد ذلك من أكبر صحاري العالم،

وليست هذه الصحراء الليبية قديمة للغاية فمنذ عشرة آلاف سنة، كان معظم شمال إفريقية مركزا مثاليا للإنسان البدائي، بالنسبة للصيد وجمع الطعام، حيث كان ترتع قطعان كبيرة من الحيوانات البرية التي ترعى السافانا والحشائش، ولابد أن الماء كان متوفرا لأفراس النهر، وقد وجدت بقايا متحجرة في أماكن بالصحراء لم يعد فيها نبات هذه الأيام [1].

* * *

(١) تاريخ ليبيا، لجون رايت (١٣، ١٤).

المبحث الثالث

حدود ليبيـــــا

أن أبرز معـالم حـدود ليبيـا الجغرافيـة ثـلاث جهـات، برقـة مـن الناحيـة الشـرقية، وطرابلس من الناحية الغربية، وفزان من الناحية الجنوبية، أما جهـة شمـال الـبلاد طـول ساحلها فهي مطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، حيـث يصـح القـول بـأن معـالم الحدود الجغرافية لليبيا ابتدأت بحدود غرب مدينة مطـروح شـرقاً، وحـدود غـرب رأس أحدير غرباً، وحدود جنوب شرق غدامس غرباً، وحدود جنوب غرب جبـل العوينـات شرقاً.

* * *

الفصل الثاني

سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي

المبحث الأول

العنصر البربري

إن ليبيا تقع على شريط ساحلى طويل ممتد إلى أقصى الحدود شرقاً وغرباً مما جعلها محطة لبني البشر على مختلف ألوانهم وأجناسهم، إلا أن الجنس البربري يعتبر من أقدم الأجناس التي عاشت في هذا الساحل الطويل، وهذا ما قرره صاحب كتاب تاريخ ليبيا.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد حديثه عن سكان ليبيا القدماء:

«أمة البربر أقدم أمة عرفها التاريخ في الشمال الأفريقي» [١].

وكلمة بربر إذا ما أطلقت تشمل كل من يتكلم لغة أو لهجة معقدة لا تفهم إلا عند بني جنسه، ويدخل في هذا الإطلاق أمة اليونان، وأمة الرومان، وأمة السودان.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي:

«وكلمة البربر أطلقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأطلقت في عهد هومير على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وجدت، وأطلقت في عهد هيرودوت على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم، وأطلقت في عهد بلتوس على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأمة التي تسكن الساحل الأفريقي، لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة» [٢].

* * *

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للأستاذ / الطاهر أحمد الزاوي، (ص ١٩، ٢٠).
(٢) المرجع السابق، (ص ١٩، ٢٠).

المبحث الثاني

العنصـــر القرمنتي

لقد عاش هذا العنصر فيما بين (٣٠٠٠-٢٥٠٠ق. م) في الصحاري الليبية خاصة في مدينة فزان، وعلى رعي المواشي ذات القرون الطويلة، والتجارة مع دول ما وراء البحر ومصر، مما جعله يتأثر بالحالة الدينية، والاجتماعية، والاقتصادية السائدة حينذاك خاصة مصر، ويعتبر هذا العنصر أول من قام بنقل الحصان والعربة من مصر إلى ليبيا.

يقول جون رايت بهذا الصدد: «كان لمصر تأثير اقتصادي، واجتماعي معتبر على قبائل الصحراء البدائية، ووجدت تجارة نشطة بين وادي النيل والغرب والجنوب الغربي، حيث يبدو أن الناس كانوا يعتنقون الديانة المصرية القديمة ويزاولون طقوس الدفن، ثم كان انتقال الحصان إلى ليبيا عن طريق مصر، وجاءت معه العربة، بعد سنة ألف قبل الميلاد، استعملت بعض قبائل ليبيا وهم «القرمنتيون» العربة والحصان لغزو قبائل صحراوية أخرى، ولبناء إمبراطورية في فزان وحولها وفي متحف القلعة بطرابلس نموذج لهذه العربات... ولا يعرف شيء عن أصل القرمنتيين الذين كانوا يرعون المواشي ذات القرون الطويلة في فزان القديمة، ويحتمل أن يكونوا قد انتقلوا من الساحل نحو الجنوب، وربما كانوا هم الذين أحضروا الحصان والعربة من مصر، وربما أحضروا أيضاً أعمال الحديد لليبيا، ومع مرور الزمن أصبح القرمنتيون يتحكمون في طرق التجارة القادمة من ساحل البحر الأبيض المتوسط عبر الصحراء إلى أفريقية الوسطى، كما سيطروا على مداخل الصحراء مدة تزيد على ألف عام، وكان الفينيقيون واليونانيون الذين استقروا على الساحل يتاجرون عن طريقهم، ثم حاربوهم وأصبحوا فيما بعد حلفاء لهم، وقد استطاع القرمنتيون بعرباتهم، وأسلحتهم المتقدمة، وتنظيمهم الواضح، التغلب على قبائل صحراوية أخرى كانت غير منظمة ولا تركب شيئاً في قتالها، وتستخدم أسلحة بدائية جداً»[1].

ولا يخفى أن آثار العنصر القرمنتي، ومظاهر حضارته، ومملكته، مازالت موجودة

---

(١) تاريخ ليبيا، (ص ١٦، ١٧).

حتى وقتنا هذا في منطقة وادي الأجال من الجهة الجنوبية لليبيا، والتي تعتبر عاصمة القرمنتيين آنذاك، حيث مكنهم موقعهم الاستراتيجي أن يتحكموا في التجارة الواردة والصادرة إلى وسط إفريقية، ويصبحوا بذلك مركزا هاما للنقل والتجارة.

وهذا ما قرره المؤرخ جون رايت بقوله: «كانت البضائع تنقل من منطقة طرابلس إلى وسط أفريقية عن طريق ممرين تجاريين عظيمين يلتقيان على بعد ٢٥٠ ميلا إلى الجنوب من غدامس، ثم يواصلان السير كطريق واحد إلى نهر النيجر، وكان لمدن صبراتة وأودية ولبدة مزية على بقية المدن القرطاجية، لأنها تقع إلى الجنوب على مسافة ١٠٠ ميل على الأقل، ولذلك تكون أقرب مركز إلى أسواق أفريقية الداخلية، وكان المسافرون الذين يريدون اختصار طريق من النيجر إلى البحر المتوسط يسلكون طريقاً تمر بغدامس وصبراته، أما القرمنتيون فكانوا يسلكون عدة طرق بالعربات من فزان إلى النيجر، يحملون بضائع البحر المتوسط إلى أعماق أفريقية ويرجعون بالذهب والفضة والحديد والأحجار الثمينة، ويحضرون من الصحراء نفسها منتجاتها، كريش النعام والتمور وغير ذلك من السلع، وكان القرطاجنيون يدفعون لرجال القوافل أجورهم من العملة ينفقونها في المدن، أو من الأطعمة والشراب والملابس، وكان القرمنتيون يحكمون من عاصمتهم في جرمة منطقة محدودة من الصحراء، ولكنهم كتجار كانوا يسيطرون على جميع البلاد من الأطلنطي إلى نهر النيل، ومن حدود السودان إلى سواحل البحر المتوسط» [1].

* * *

(١) تاريخ ليبيا، (ص ١٦، ١٧).

المبحث الثالث

العنصر الفينيقي

لقد اختلف المؤرخون في أصل الفينيقيين، منهم من ذهب إلى أن أصلهم عربي وينحدرون من أصل سامي كان يسكن في فلسطين وسواحل الشام، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ طاهر الزاوي، ومنهم من قال: إن أصلهم كنعاني هاجروا إلى الشام، وسكنت أمة منهم اليونان، وهذا ما أكده الأستاذ محمود شيت خطاب.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي مقررا ما ذهب إليه:

«الفينيقيون أمة عربية قديمة من الأصل السامي اشتهرت منذ القدم بالتجارة والأسفار البحرية، وكانت مواطنهم فلسطين وسواحل الشام، ومن أشهر مدنهم صيدا وصور، وطرابلس الشام، وبيروت، وكانوا يترددون على الشمال الأفريقي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأنشأوا على ساحله محطات تجارية كبيرة لنقل بضائعهم منها إلى الأسواق التي تروج فيها، وكانت عنايتهم بالتجارة والصناعة بالدرجة الأولى في شئون حياتهم، ولا يبعد أن يكونوا هم الذين جاءوا بزراعة الزيتون إلى إفريقية» [١].

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب ناصرا ما ذهب إليه:

«الفينيقيون من الكنعانيين كبعض المغاربة الأقدمين، وفي سنة (٣٥٠٠) قبل الميلاد هاجرت إلى الشام أمم من الكنعانيين وسكنت أمة منهم في القطر الذي سماه اليونان فينيقيا. وتقع فينقيا في شواطئ أرض الشام في المنطقة المحصورة بين جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، يبلغ اتساعها نحو خمسين كيلو متراً، ويبلغ طولها نحو ٥٠٠ كيلو متر، وهي تمتد من جزيرة أرواد شمالاً إلى مدينة عكا جنوباً، وقد أطلق اليونانيون على هؤلاء الكنعانيين كلمة: الفينيقيين نسبة إلى الكلمة اليونانية فينكس، ومعناها عندهم: النخل واللون الأحمر، لأن هؤلاء الكنعانيين كانوا يلبسون اللون الأحمر، وكانوا يصورون النخل على نقودهم، وعاشت هذه الأمة العظيمة أكثر من (٣١٧٠سنة) وأحسنت إلى الإنسانية، ومنها تعلمت الإنسانية القراءة والكتابة» [٢].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص (٣٠).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢).

كما أن تاريخ العنصر الفينيقي من خلال تطوره ينقسم إلى مرحلتين، مرحلة تأسيس مدينة صيدا سنة (١٥٠٠-١٢٠٩ق. م) والتي كانت آنذاك أعظم مدن الفينيقيين، ومرحلة تأسيس مدينة صور سنة (١٣٣١-١٢٠٩ق. م) والتي تزعمت فيه مدينة صور الامبراطورية الفينيقية.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: ويقسم تاريخ الفينيقيين إلى عصرين:

العصر الأول: عصر صيدا، والعصر الثاني: عصر صور.

أولاً: عصر صيدا: ويمتد من سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد إلى سنة (١٢٠٩) قبل الميلاد، وفي هذا العصر أسس الفينيقيون عدة مدن في فينيقيا، وكانت أعظم مدنهم هي مدينة صيدا، وكانت عاصمتهم، ولهذا سمي هذا العصر بعصر صيدا، وقد دامت عظمة هذه المدينة نحو (٢٣٠) سنة.

ثانيًا: عصر صور: وهو يمتد من سنة ١٣٣١ قبل الميلاد إلى سنة ١٢٠٩ قبل الميلاد، وفي هذا العصر تزعم أهل مدينة صور الامبراطورية الفينيقية، وصارت صور من أعظم مدن العالم، وقد استطاع الفينيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول من أقصر وقت، وقد قوى اتصال أهل صور بأهل الشمال الأفريقي، وكونوا في موريتانيا ونوميديا وزوجيتان (تونس حالياً) مدنا كثيرة» [1].

ففي هاتين المرحلتين من مراحل تاريخ الفينيقيين قامت لهم حضارة مدينة تعتبر آنذاك تقدما عالي المستوى، يدل على اهتمامهم بجوانب تحصيل العلوم والتقنية، وتطوير المهن الحرفية، والصناعية والحربية، وتوطيد سرعة الاتصالات، ولعل آثارهم الباقية في صبراتة، ولبدة، وبعض ضواحي طرابلس تشهد بذلك.

يقول الأستاذ شيت خطاب مشيدا بحضارة الفينيقيين:

«قد أجمع المؤرخون على أن الفينيقيين كانوا أول من ركب البحر، وأول من صنع السفن البحرية، وكانوا في تلك العصور القديمة أعظم أمة تجارية صناعية، فكانوا ينظمون قوافل تسير في البر إلى الهند، وبابل، وآشور، وبلاد فارس، ولتبيع مصنوعاتهم في تلك

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١١).

الأقطار، كما نظموا فواقل بحرية كانت تذهب إلى شواطئ البحر، تعرض المصنوعات الفينيقية على أمم البحر الأبيض المتوسط، وصاروا يرسلون إلى شواطئ الأقطار البعيدة جاليات منهم لتؤسس مدنا فينيقية تجارية، لتكون مركز الاتصال بينهم وبين تلك الأمم، كما أسسوا في إقليم طرابلس الغرب مدينة «تزسيوم» وأطلقوا على تلك الجهة كلمة «تزاسين»، ومعنى ذلك في لغتهم: الأرض الكثيرة المياه، وهم الذين أنشأوا في تونس إقليم «زوجيتان» وسموا تلك الجهة بهذا الاسم.

وظلوا سادات البحر الأبيض المتوسط يفعلون ما يشاءون ولا ينازعهم فيه أحد إلى سنة (١٥٠٠) قبل الميلاد، ففي هذا العصر ظهر في البحر سفن أمم جديدة، أخذت الحضارة والصناعة وأصول الملاحة من الفينيقيين، وكان من أعظم هذه الأمم الإغريق، التي صارت تحارب سفن الفينيقيين وتضايقهم في شرق البحر الأبيض المتوسط، وكانت لفينيقيا مستعمرات كثيرة في البحر الأوسط، فلما ضايقها الإغريق تركت تلك الجهة وولت وجهها شطر بلاد المغرب، فمن هذا التاريخ اشتد اتصال الفينيقيين بالمغاربة وأحدثوا في شمال إفريقية مدنا كثيرة»[1].

ويقول في موضع آخر: «وقد استطاع الفينيقيون أن يعيدوا مجدهم الذي كان لهم في العصر الأول في أقصر وقت، وقد قوي اتصال أهل صور بأهل أفريقية وكونوا موريتانيا، ونوميديا، وزوجيتان (تونس حالياً) ومدنا كثيرة، وقد استدلوا على جزيرة (مالطة) وجعلوها محطة لسفنهم التي كانت تسير في البحر الأبيض المتوسط، وظل الفينيقيون متمتعين بسيادة البحر الأبيض المتوسط إلى سنة (٣٣١) قبل الميلاد، ففي هذه السنة احتل الإسكندر المقدوني مدينة صور وخرب معظمها وأذاق أهلها العذاب الأليم، وبهذا الحادث انتهى مجد الفينيقيين وعظمتهم، وورث ملكهم أبناؤهم القرطاجنيون، وقد عاش أهل صور متمتعين بالعز (٨٧٨) سنة، وعاشت الأمة الفينيقية أكثر من (٣١٧٠) سنة».

سبحان الله! فقد أصبحت تلك الأمم والحضارات أثراً بعد عين، وها نحن نسطر في تاريخها وحضارتها كأن لم تكن، وهذا-كما هو ظاهر-تحقيق لسنن الله الثابتة، التي تقرر أن الله سبحانه يمهل الأمم الكافرة ويعطيها شيئاً من التمكين الدنيوي والقوي الظاهر، إذ

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٤، ٢٥، ٢٦).

أخذت بالأسباب والسنن الكونية، قال تعالى: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ولكن يأخذها أخذ عزيز مقتدر لكفرها وشرها وتمردها على منهج الله القويم، وهكذا كان حال الأمة الفينيقية المشركة الكافرة بربها، فقد وصلت إلى قمة الحضارة المدنية -كما مر معنا- حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها، إلا أنها كانت تعبد الأصنام الأحياء منها والأموات، حتى أصبحت هذه الأوثان والأصنام والهياكل معلما من معالم حضارتها!! فكان من أبرز معالم تمردها عن منهج الله، وكفرها بخالقها تلك الأصنام المسماة بأصنام هرقل المحيطة بجبل طارق، والتي كانوا يتقربون إليها بالأضاحي، والنذور، والدعاء، والخوف، والرجاء!! فلما فعلوا ذلك أتاها أمر ربنا فجعلها حصيدا كأن، لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴿سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٣].

* * *

المبحث الرابع
العنصــــر القرطاجني

إن العنصر القرطاجني امتداد طبيعي للعنصر الفينيقي، إذ تعتبر الصلة بينهما بمثابة صلة الأب بابنه، وكان سبب وصولهم إلى شمال إفريقية اعتناء الأجداد الفينيقيين بإنشاء المدن وتطويرها خاصة في الشمال الأفريقي، فقد أسسوا مدينة قرطاجنة (تونس) (سنة ٨٤٠ ق. م) وكان في عهد الأميرة (ديدون) أو (أليسا) حيث قدمت هذه الأميرة وجماعتها، واستقرت في قرطاجنة التي كان يبلغ تعداد سكانها حوالي مليون نسمة، وبذلك أسست أكبر إمبراطورية حينئذ إذ كانت تملك شواطئ الشمال الأفريقي، وأغلب أراضي إسبانيا، وأكثر جزائر البحر الأبيض المتوسط، وكان نظام هذه الامبراطورية السياسي يدار على نمط النظام الجمهوري المعاصر في مدنها الثلاث الرئيسية-قرطاجنة إفريقية وهذه أعظمها، وقرطاجنة الجزيرة الخضراء بالأندلس عند جبل طارق، وقرطاجنة الخلفاء بكورة تدمير بالأندلس،حيث كان هناك مجلس مكون من مائة عضو من أهل الحل والعقد، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي:

«وكان نظام حكمها زمن القرطاجنيين أشبه بالجمهوري، وكان يدير شئون الحكم مجلس مكون من مائة عضو من الأعيان والتجار، وكان لهم رئيسان ينتخبان كل سنة، وديانتهم الوثنية، وأكبر آلهتهم بعل» [١].

وبعد ست سنوات من استقرار الامبراطورية القرطاجنية في الشمال الأفريقي بدأت الامبراطورية بإرسال حملات عسكرية على قبائل البربر التي كانت تسكن المنطقة من حدود برقة الشرقية، إلى ساحل أوروبا الجنوبية حتى جبل طارق الذي كان يسمى آنذاك أعمدة هرقل، وكان الغرض من هذه الحملات إخضاع هذه القبائل لسلطان الامبراطورية ونفوذها.

---

(١) قادة الفتح العربي في ليبيا: (ص ٣١).

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«وفي سنة (٤٨٠ ق. م) صار القرطاجنيون يغيرون على القبائل البربرية التي كانت تسكن السواحل حتى أخضعوها لسلطانهم، وشمل نفوذهم من حدود برقة الشرقية إلى بحر الظلمات، كما شمل ساحل أوروبا الجنوبي إلى جبل طارق الذي كان يسمى إذ ذاك أعمدة هرقل» [1].

وفي بدايات سنة (٢٦٤ ق. م) قامت صراعات عنيفة بين إمبراطورية الرومان التي كانت تقطن سواحل أوروبا الجنوبية، وإمبراطورية القرطاجنيين، دامت أكثر من مائة عام انتهت بتغلب الامبراطورية الرومانية على القرطاجنيين، حيث انتقلت بعد ذلك زعامة الشمال الأفريقي بأسره إلى الامبراطورية الرومانية الواقعة جنوب أوروبا.

يقول الأستاذ شيت خطاب في ذلك:

«في سنة ٢٦٤ ق. م) اشتبكت قرطاجنة في صراع عنيف مع الرومان دام أكثر من مائة سنة، وأخيراً تغلب عليها الرومان سنة (١٤٦ق. م) وقضوا عليها القضاء النهائي، ومحوا آثارها من الوجود، فتحولت زعامة الدنيا من شمال إفريقية إلى جنوب أوروبا» [2].

وهكذا تحققت فيها سنة الله سبحانه في أخذه للأمم الكافرة الظالمة، التي تبغي في الأرض بغير الحق، فقد سلط عليهم الرومان فمزقوهم شر ممزق.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

* * *

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٢٧).

(٢) المرجع السابق: (١ / ٢٧).

المبحث الخامس

العنصر الروماني

فبعد الحروب الطويلة التي دامت حوالي مائة عام بين الامبراطورية القرطاجنية والامبراطورية الرومانية، ومن هذه الحروب ثلاث حروب مهمة الأولى: كانت سنة (٢٦٣ ق. م) وانتهت بانهزام القوات الرومانية في إفريقية وانهزام القوات القرطاجنية في صقلية، والثانية: كانت سنة (٢١٨ق. م) وانتهت سنة (٢٠٢ق، م) والتي انتصر فيها القائد العسكري هنبعل القرطاجني على القوات الرومانية في إيطاليا، ثم أعاد الرومان الكرة عليه في معركة زاما سنة (٢٠٢ ق. م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية، والثالثة كانت سنة (١٤٩ ق. م) وانتهت (١٤٦ ق. م) بانتصار الرومان على القوات القرطاجنية، مما أتاح الفرصة للقبائل البربرية بقيادة «ماكسن» للانضمام إلى القوات الرومانية هربا من قسوة القرطاجنيين واستبدادهم.

يقول الأستاذ محمود شيت مقررا ذلك:

«لقد أصبحت الدولة الرومانية أعظم دولة في العالم بعد قضائها على قرطاجنة، فقد وقعت ثلاث حروب بين الرومان والقرطاجنيين في المدة ما بين (سنة ٢٦٤ ق. م) إلى (١٤٦ ق. م).

فالحرب الأولى: ابتدأت من (سنة ٢٦٤ ق. م) وانتهت (سنة ٢٤١ ق. م) انهزم فيها الجيش الروماني في أفريقية وانهزم الجيش القرطاجني في صقلية.

والحرب الثانية: ابتدأت (سنة ٢١٨ق.م) وانتهت (سنة ٢٠٢ق. م)، انتصر فيها (هنبعل) القائد القرطاجني في إيطاليا في معركة (كان) وقتل فيها من الرومان ما يربو على السبعين ألفاً، وكانت (سنة ٢١٦ق. م)، وكان (هنبعل) من أكبر قواد القرطاجنيين، وكاد يقضي في هذه المعركة على روما لولا تقاعس دولته عن إمداده بالمال والجند لخلاف كان بينه وبين بعض الرؤساء، وانتصر عليه الرومان في معركة (زاما) (سنة ٢٠٢ق. م) ففر إلى الشام ومات في أنطاكية.

الحرب الثالثة: ابتدأت (سنة ١٤٩ق. م)، رجحت فيها كفة الرومان على

القرطاجنيين، واستمات القرطاجنيون في الدفاع عن عاصمتهم، فانتهز البربر فرصة رجحان كفة الرومان فانضموا إليهم بزعامة (ماكسن) البربري، فملك الرومان قرطاجنة وخربوها، وأحرقوها بالنار، فأصبحت أثراً بعد عين، وكان ذلك سنة (١٤٦ق. م)» [1].

وبتلك المعركة الثالثة التي تعتبر الفيصل في الحروب التي نشبت بين الرومان والقرطاجنيين والتي زال فيها ملك قرطاجنة من الوجود بعد أن دام نحو سبعمائة سنة، استولى الرومان على سواحل ليبيا، وتونس، والجزائر، أما سواحل المغرب الأقصى فلم يستطيعوا الاستيلاء عليها لقيام أهلها بمقاومة مسلحة بقيادة (تاكفراس) لمدة تسع سنوات تقريباً، ولكن بعد ذلك تم الاستيلاء على ناحية المغرب الأقصى (سنة ٤٢ بعد الميلاد)، وجعلوا عاصمته مدينة «تينجيس» طنجة الحالية، ثم أقاموا عدة مدن عصرية وربطوا بينها بطرق معبدة تشبه الطرق الحديثة، وأنشأوا على مداخلها ومخارجها أبراجا وقلاعا تصد الغارات التي قاوم بها المناوئون للإمبراطورية الرومانية.

ولكن ما لبثت الامبراطورية الرومانية بعد أن أعادت الحياة العمرانية في البلاد حتى قام الحاكم العام الروماني (بونيفاس) بتمرد على سلطان الامبراطورية الرومانية، وأعلن عصيانه على سلطة روما التي كانت في حالة حصار وتعاني سكرات الموت!!، ولم يكن لهذا الحاكم قوى عسكرية محلية يستطيع أن يقاوم بها ضربات سلطة روما، فلجأ إلى أعداء الرومان الذين كانت لهم مملكة ودولة قوية في إسبانيا يستعين بها للقضاء على سلطة روما، وكان هذا العدو لسلطة روما هما واستجاب الوندال بقيادة (جينسريك) فلبوا مباشرة نداء الحاكم الروماني ودخلوا إلى المغرب بجيش مدجج بالأسلحة تعداده نحو ثمانين ألف جندي، وانضم إليهم أكثر أهل المنطقة الكارهون للاحتلال الروماني.

وبذلك كانت القاصمة للحاكم العام الروماني الذي رأى أن الوندال انتهزوا الفرصة بدخولهم للمنطقة وجعلوها تابعة لهم، وأقاموا فيها دولتهم وأصبحت قرطاجنة عاصمة لدولة الوندال بقيادة جينسريك، وهنا أدرك الحاكم العام الروماني (بونيفاس) خطأه في استعانته بالوندال، وكانت هذه نهاية الامبراطورية الرومانية في الشمال الأفريقي.

---

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١ / ٢٢).

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب في هذا الصدد:

«قد ظل المغرب خاضعا للرومان إلى (سنة ٤٢٩ميلادية)، ففي هذه السنة أعلن الحاكم العام الروماني (بونيفاس) العصيان على حكومة روما، التي كانت ضعيفة في ذلك العصر، وقد استعان بأعداء الرومان على حرب دولته، وهم «الوندال» الذين كانوا يحتلون في ذلك الوقت جنوب إسبانيا، فأسرع ملك الوندال وهو «جينسريك» إلى بلاد المغرب ومعه «ثمانون ألف جندي» وانضم إليهم كثير من المغاربة لأنهم يكرهون الاحتلال الرومان لبلادهم، ولكن «بونيفاس» أدرك أنه أخطأ عندما رأى الونداليين يحتلون المغرب لأنفسهم، فصار يحاربهم إلى أن انتصروا عليه واحتلوا شواطئ المغرب، وتونس، والجزائر، وجعلوا عاصمتهم مدينة «قرطاجنة»، وغادر «بونيفاس» بلاد المغرب (سنة ٤٣١م)، وبقيت فيها بعض الجيوش التي أرسلتهم إليها الامبراطورية الشرقية لإعانة روما (سنة ٤٣٥م)، وفي هذه السنة خرج آخر جندي للرومان من المغرب، وبذلك انتهى عصر الرومان الذي دام (٣٩٣سنة)» [١].

* * *

(١) قادة فتح المغرب: (١ / ٣٢).

المبحث السادس
عنصر الوندال

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عنصر الوندال يرجع أصله إلى الجرمانيين الذين يطلقون عليهم اسم الألمان في عصرنا الحاضر، وكان سبب تواجدهم في إسبانيا بعد الاستيلاء على فرنسا في القرن الرابع الميلادي عدة عوامل منها: التوسع وبسط النفوذ، وتأمين جوانب المعيشة، ومحاولة الوصول إلى الشمال الأفريقي كعمق استراتيجي لمملكتهم في جنوب إسبانيا.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«الوندال هم من الأصل الجرماني-الألمان-زحفوا في القرن الرابع الميلادي على إسبانيا فاحتلوها وأقاموا بها دولة عظيمة، ولما ضعفت الدولة الرومانية صارت تهاجمها القبائل المتبربرة من شمال أوروبا، وتستولي على أراضيها، وكان من جملة القبائل التي هاجمت الامبراطورية الرومانية قبائل الوندال، وبعد أن احتلوا فرنسا تقدموا إلى إسبانيا واستقروا في جنوبها في إقليم الأندلس، وإليهم ينسب هذا الإقليم، فقد كان يسمى فاندولوسيا نسبة إليهم»[1].

وفي فترة تمرد الحاكم العام الروماني بونيفاس-كما مر معنا-على الامبراطورية الرومانية في روما، وطلب الاستعانة من الوندال بقيادة جينسريك، كان الوندال في ذلك الوقت يملكون القوى العسكرية الرهيبة المكونة من أسطول ضخم من السفن الحربية، وتعداد هائل من القوى البشرية، مما حفزهم لتلبية طلب الحاكم العام الروماني الاستعانة بهم، ودخلوا المنطقة بعزيمة الاستيلاء-لا الاستعانة-لصالح المملكة الوندالية، وكان ما خططوا ونفذوا، حتى أصبحوا فيما بعد تخشاهم الدولتان الشرقية والغربية.

يقول الأستاذ شيت خطاب بهذا الصدد:

«لقد مكث جينسريك أكثر من ثلاثين سنة قاهرا منصورا، تخشاه الدولتان الشرقية

---

(١) قادة فتح المغرب: (١ / ٣٣).

والغربية، فلما مات (سنة ٤٧٧م) تولى ابنه «هنريك» وكان قاسيا على الكاثوليك، فقبض (سنة ٤٨٣م) على خمسة آلاف من رهبانهم وشردهم في الصحراء، واغتصب أموالهم وكنائسهم، وفي (سنة ٥٢٣م) تولى على الوندال (هلدريك)، وكان ضعيف الإرادة منحل العزيمة، فخلعوه وولوا مكانه «جليمير» فاستنجد «هلدريك» المخلوع بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه، فكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية، فهاجم «بيليساريوس» القائد الروماني قرطاجنة (سنة ٥٤٤م) وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع الأملاك التي كانت تابعة للوندال وأعادها إلى بيزنطة «القسطنطينية»، وزالت دولة الوندال بعد أن ملكت نحو مائة سنة» [١].

المطلب الأول

عودة الرومان إلى الشمال الأفريقي بقيادة بيزنطة

فلما أزاح ملك الوندال «جليمير» الملك السابق المخلوع ضعيف العزم والإرادة «هلدريك» استغاث هذا المخلوع بالامبراطورية الرومانية واستنجد بقيصر القسطنطينية جوستنيان لاسترجاع ملكه، فوقعت المملكة الوندالية في الشرك نفسه الذي وقعت فيه القوات الرومانية بقيادة بونيفاس-كما مر معنا-.

فلما وصل هذا النداء لجوستنيان انتهز الفرصة الثمينة، فأعلن الحرب على الوندال وأرسل على الفور قواته المدججة بالأسلحة الفتاكة بقيادة قائده الماهر «بيليساريوس» إلى قرطاجنة وكان ذلك (سنة ٥٣٤م)، فأسر ملك الوندال جليمير، واستولى على كل المناطق الخاضعة لمملكة الوندال، وأعاد كل أملاك الوندال إلى مملكة بيزنطة «القسطنطينية»، وزالت دولة الوندال من بعد أن ملكتها نحو مائة سنة.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي في ذلك: «ولما خلع هلدريك، استنجد بجوستنيان قيصر القسطنطينية لاسترجاع ملكه، وكانت فرصة اغتنمها جوستنيان لطرد الوندال من إفريقية وإرجاعها إلى ملك روما، فأنجده وأعلن الحرب على الوندال، وهاجم بيليساريوس القائد الرومي قرطاجنة سنة ٥٢٤م، وأسر ملك الوندال «جليمير» واسترد جميع البلاد التي

---

(١) قادة فتح المغرب العربي: (١ / ٣٤).

كانت تابعة للوندال إلى مملكة بيزنطة»[1].

وفي هذه الحقبة من الزمان أسس الرومان في الشمال الأفريقي حضارة مدنية راقية، فقد أقاموا العمران المتطور، والصهاريج الضخمة، والسواقي الشاهقة، والسدود المنيعة، وأصلحوا البنية التحتية، والفوقية للبلاد على الجملة، حتى أحس أهالي المنطقة بهذا الاعتناء الخاص بهم من طرف الرومان فطفق الأهالي ينتحلون كل مقومات الحياة الرومانية لدرجة الاندماج الكامل، ويتركون عاداتهم البربرية، حتى وصل بجند الامبراطورية الرومانية أن ينتخب سيفاروس القائد البربري لعرش الامبراطورية (سنة ١٩٣م).

يقول الأستاذ طاهر الزاوي:

«ومع طول الزمن وتعاقب السنين اندمج بربر السواحل في الروم بسنة تقليد الضعيف للقوي، واستحسان المغلوب ما عليه الغالب من عادات وتقاليد، ونسى بعضهم قرميتهم وعاداتهم، وأصبحوا رومانا في كل مقومات الحياة حتى زالت الفوارق بينهم وبين الروم، وبهذا الاندماج أمكنهم أن يتولوا أكبر المناصب في الدولة، فإن سبتيم سيفاروس -وهو بربري الأصل- انتخبه الجند امبراطورا لعرش الروم (سنة ١٩٣م)»[2]، ولكن تفشي الانحلال الاجتماعي، وكثرة الدسائس والمؤامرات والخصومات، والمذاهب الدينية والسياسية أوهن من تعلق نفوس الناس بالامبراطورية البيزنطية، مع وجود عامل مهم ألا وهو اشتداد ساعد الفرس في القرن السادس، ومع اشتداد هذه العوامل أخذت الامبراطورية البيزنطية تفرض الأموال الطائلة على الأهالي للاستعداد لمقابلة الفرس، واستخدمت القوة والاضطهاد في نزع هذه الأموال، وأسكتت أصوات الناقمين منهم، مما حدا بالأهالي أن يقفوا موقف المعادي فكانت بداية نهاية الامبراطورية الرومانية.

يقول الأستاذ محمود شيت:

«ولقد كان للانحلال الاجتماعي أثر بالغ على انحلال الدولة، فقد كانت نفوس

---

(١) انظر: تاريخ الفتح العربي في ليبيا: (ص ٣٥، ٣٦).
(٢) المرجع السابق: (ص ٣٥، ٣٦).

الناس قد وهنت، وكان الأباطرة أنفسهم أسبق الناس إلى حلقات الملاعب والمسرات، وكانت النساء كذلك سباقات إليها يخالطن الرجال في تبذل، انتهى بالمجتمع كله إلى تدهور سريع، ومن هنا نشأت الدسائس والمؤامرات التي تتصل بهذه الألوان من العبث، فنخرت عظام الدولة الواهنة، وأخذت دائرتها تتسع حتى شملت بلاط الامبراطور، فأحالته مسرحا لكثير من الخصومات والجرائم والآثام، وكلما انتصر في القصر حزب ارتفعت له في نواحي الدولة أعلام، بعضها أنصار، وبعضها مذاهب مختلفة في الدين والسياسة، وكلما مات حاكم نزل البلاء بأشياعه وأتباعه ومناصريه في العقيدة والرأي وندمائه في المباهج والشراب.

وكانت بيزنطة كلما ازداد بها الضعف انسلخ عنها جزء من أملاكها، وكلما اشتد ساعد جار اقتطع منها على قدر ما يستطيع، حتى إذا كان القرن السادس واشتد ساعد الفرس أقبلوا ينهبون أرض الدولة انتهابا، فاقتطعوا أكثر آسيا الصغرى والشام ومصر، وأخذوا يستعدون للمضي إلى شمال أفريقية، فلم يكن للدولة بد من أن تبذل ما قد بقي في كيانها الواهن من قوة لتدفع خطرهم، حتى إذا تمكنت من ذلك على يد هرقل، لم يبق لها بعد ذلك من القوة ما يقيمها على أرجلها، إذ كانت الحروب قد كلفتها الثمن الغالي، فأنشأت تعتصر دماء من بقي لها من الرعايا، حتى كادت توردهم موارد التلف، بدأوا يحتجون ويعترضون، فلجأ الحكام إلى العنف لإسكات أصوات الناقمين منهم، فاشتد الحنق وتأصلت الكراهية بين الجانبين، ولم يكد الفريقان يحسان بما بينهما من خلاف بسيط في مسائل الدين، حتى خيل لهم الحقد الدفين أن الخلاف بعيد يتناول كل مرافق الحياة، فنشبت الفتنة، وأهوى الحاكم على رأس المحكوم بسياط الظلم، وأبى المحكوم أن يجيب وأن يطيع، فعظم الاضطهاد وسالت الدماء، واشتعلت بعض نواحي الدولة كمصر وإفريقية بهذه النار الحامية فأتت على ما فيها» [(١)].

ولكن رغم هذا الكبت، وزيادة ضيق الأهالي بالرومان، وعجز المملكة البيزنطية عن متابعة الأحداث وتذليل الصعاب للأهالي، إلا أن المملكة البيزنطية ظلت تسيطر على مقاليد الأمور في الشمال الأفريقي على الجملة حتى (سنة ٦٤٧م)، ثم كان بعد ذلك عام

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٣٦).

الفتح الذي دحر فيه الكفر وأهله، ودخل الناس فيه في دين الله أفواجا.

ولابد لنا من تعليق:

فرغم كثرة الحروب التي خاضها الرومان، ورغم ظلمها للرعية وبطشهم، إلا أنهم قد احتفظوا بكامل قوتهم العسكرية وظلوا رغم ظلمهم قوة لا يستهان بها، فلقد كانوا ينفقون على الجيش بسخاء، وكانوا يضعون موارد الدولة تحت تصرف القادة العسكريين، وكان للجنود وضع متميز بالدولة الرومانية.. ولكن المستشرقين وأذنابهم يحاولون التقليل من قيمة انتصار المسلمين رغم قلة عددهم، وتواضع عددهم على الرومان، بادعاء أن الدولة الرومانية كانت منهكة القوى والظلم الاجتماعي كان متفشيا وكذا وكذا.

نقول لهم: كان الأمر كذلك ولكنهم حشدوا يوم اليرموك قرابة ربع مليون جندي، وكان من بينهم ثمانون ألف فارس وثلاثون ألفاً من الرماة، وكل الجيش متدرع بالحديد في مقابل (٤٠ ألف جندي مسلم)!!.

* * *

المبحث السابع

العنصـــــر الإغريـــــقي

ويقصد بالعنصر الإغريقي سكان جزيرة اليونان الحالية، فهـذا العنصـر اشـتهر منـذ القدم بالهجرة من موطنه الأصلي بحثاً عن الرزق والأمان، وطلباً للاستقرار والاطمئنان، وقد وقع اختياره من أول وهلة على منطقة برقة الواقعة جنوب شمال موطنـه الأصـلي، حيث تعتبر أقرب الأماكن إليه وأشبهها طقسا ومناخا وبيئة بموطنه الأصلي.

فقد قام هذا العنصر بإرسال مجموعات استكشافية إلى عدة مدن واستقر أمرهـم بعـد عملية الاستكشاف على اختيار مدينة قورينا «شحات حالياً» التي تقع على هضبة ترتفـع على سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قـدم، قـرب نبـع دائـم، وكـان ذلـك سـنة (٦٣١ق. م) وأصبح أرسطو كليس أول ملك لها، ثم تـولى ابنـه أرسيلوس بعـده، ثـم بـاتوس الـذي شهدت فترة حكمه توسعا في مملكته وزيادة قدوم المهاجرين اليونان، ممـا أخـاف القبائـل الأصلية أن يطردوا من هذه المنطقة نظراً لزيادة عـدد الوافـدين مـن اليونـان فاسـتنجدوا بأهل مصر لطلب العون على طرد اليونانيين، فاستجاب فراعنة مصر لنداء هـذه القبائـل الليبية وكان ذلك سنة (٥٧٠ ق. م).

يذكر جون رايت في كتابه تاريخ ليبيا: «بعـث اليونـانيون مجموعـات استكشـافية ولم ينجحـوا في الاسـتقرار في الأمـاكن الـتي اتخـذوها في بداية أمـرهـم في جزيـرة «بلاثيـا»، وبتشجيع من كاهنة دلفي تحول اليونانيون إلى «أزريس» ولكنهم بعد سـت سـنوات لبـوا دعوة رجال القبائل المحلية لمشاهدة مكان أفضل لاستقرارهم، وكان هذا المكان هو مدينـة «شحات» فيما بعد، ذات المطر الغزير، وهناك وعلى بعد عشرة أميال من البحـر، وعلـى هضبة ترتفع عن سطح الأرض قرابة ٢٤٠٠ قدم، قرب نبع دائم، أقيمت مدينة شـحات «قورينا» (سنة ٦٣١ قبل الميلاد)، وأصبح (أرسطو كليـس) الذي سمـى (بـاتوس) الأول ملكاً لها، وتلاه في الحكم ابنه (أرسيلوس) الأول، حيث حكم ستة عشر عاماً، ثم باتوس الثاني الذي شهد حكمه قدوم المهاجرين من جنـوب اليونـان وجـزر إيجـة، وقـد أزعـج القبائـل الليبيـة المجـاورة توسـع المستعمرة، لأن الليبيـين كـانوا يرغبـون في أن يشـاركوا الأجانب خيرات أرضهم لا أن يطردوا منها، وتدهورت العلاقات مع اليونانيين بعـد أن

كانت ودية في البداية، والتفت الليبيون إلى مصر يطلبون العون، ولبى نداءهم الفرعون إبريس (أهابرة) في (سنة ٥٧٠ق. م) حيث سار نحو برقة يقود جيشا كبيراً، ولكن اليونانيين كسبوا حربا مفاجئة وقتل إبريس، وجاء وريثه في الملك، فقام بتحسين العلاقات مع برقة بأن تزوج ابنة (باتوس) [١]، ذلك بعد الصراعات والنزاعات التي بين القوم، وأخذت طريقها بين الملأ في ذاتها حينا، والشعب والملأ حينا آخر، وقد قتل أرسيلوس الثاني بعد أن أجبر على الخروج من قورينا إلى مدينة في الجبل الأخضر شرق ليبيا وهناك تم اغتياله، وفي (عام ٥٢٥ ق. م) احتل الفرس مصر، فطلبت الملكة قرتينا أم الملك أرسيلوس النجدة، فتقدم الفرس لغزو برقة وهاجموا مدينة المرج، ثم ما لبثت أن استسلمت، وواصلوا مسيرهم إلى مدينة بنغاري».

يقول جون رايت: «لقد كان حكم أرسيلوس بداية لنزاعات داخلية دائمة، انتهت بخلافة ابنه «أرسيلوس» الثالث، فبعد أن اضطر «أرسيلوس» الثاني للهرب من البلد كون جيشا وهزم «قورينا»، ثم أجبر على الرحيل مرة أخرى، والتجأ إلى المرج، ولكنه اغتيل هناك، وفي (عام ٥٢٥ق. م) احتل الفرس مصر، وطلبت منهم النجدة الملكة «فرتينا» أم الملك أرسيلوس الثالث، للانتقام لمقتل ولدها، فتقدم الفرس لغزو برقة، وتركوا قورينا دون أن يلحقوا بها أذى، ولكنهم هاجموا المرج التي استسلمت بعد حصار طويل (سنة ٥١٥ ق.م) وسار الغزاة غربًا إلى الموقع الذي توجد فيه بنغازي اليوم، ولكنهم في طريق عودتهم إلى مصر فقدوا كثيرًا من رجالهم على أيدي رجال القبائل، وماتت الملكة «فرتينا» فيما بعد» [٢].

وخلال هذه الفترة من الزمان استعادت برقة استقلالها، وأسست مدينة «يوسبر أيدس» (سنة ٥١٥ ق. م)، ثم أنشئت بعد ذلك عدة مدن يونانية أخرى على طول الساحل، منها مدينة توركا - العقورية - مدينة تولمايتا - الدرسية حالياً - مدينة أوبولونيا - مرسى سوسة - وفي عام (٥١٥-٤٧٠ ق. م)، تولى عرش شحات كل من الملك تابتوس الرابع، أرسيلوس، والتعيس، ولكن رغم النزاعات الحادة والصراعات القوية بين مدن برقة إلا أنهم توحدوا في وجه

(١) تاريخ ليبيا (٢٩، ٣٠).

(٢) المرجع السابق: (٣٥، ٣٦).

قرطاجنة التي لم تعترف أبداً بحقوق الإغريق التجارية في الشمال الأفريقي.

لذلك اهتم الإغريق بالزراعة إلى جانب التجارة، حيث جلبوا الحبوب الجديدة واعتنوا بإصلاح الأراضي التي كانت تغل ثلاثة مواسم في سنة واحدة كما يقول «هيرودوت» فما إن أهلت بداية القرن الخامس قبل الميلاد حتى أصبحت شحات واحدة من أكبر عواصم عالم الإغريق تجاريا ومعماريا ومناخا وموقعا جغرافيا، بل أصبحت محطة فكرية مهمة جداً آنذاك، فقد ساهم أفلاطون بذاته في كتابة قانون قورينا، وقد درس أفلاطون الفلسفة في قورينا، وعاش فيها الرياضي المشهور «تيردور» وكان بها مدرسة للفلسفة، وربما كان أرسيطيبوس القوريني هو الذي أنشأها، كما أن قورينا كانت مركزا طبياً شهيرا في صفاء هوائها ونقائه، وجودة طقسها وجمال طبيعتها.

يقول جون رايت: «قد ازدهرت منطقة برقة بصفة عامة تحت حكم البطالمة الذين قاموا ببناء أسوار دفاعية للمدن الخمس، أوبولونيا، وبرنسية، وشحات، وترسيرا، وطوليد-طلميثة-والتي كونت اتحادا فيما بينها، وفي ذلك الوقت بنيت بعض المستوطنات اليهودية بالمنطقة، وفي (سنة ١٦٠ق. م) حدث نزاع في مصر بين حكامها الثلاثة بومبي الثالث ويوجريستس وأخيه فيلومستر، والتجأ الأخير فطلب مساعدة الرومان الذين تدخلوا وأعطوا يوجريستس حكم برقة، وهذا بدوره حكم عشرين عاماً، وأوصى بانتقال البلد إلى حكم الرومان بعد موته (عام ٦٩ ق. م).

وعاشت منطقة برقة فترة عشرين عاماً في فوضى أهلية قبل أن تنتقل إلى حكم الرومان الصارم، حيث عين مجلس الشيوخ الروماني حاكما لها اسمه «كورنيليوس مرسيلينوس» (سنة ٧٥ ق. م)، وخلال الحروب الأهلية الرومانية التي انفجرت بعد ذلك بقليل استغل أتباع «بومبي» مدينتي قورينا وبرنسية كقاعدة للانطلاق منها عبر «ترتيكا» للالتحاق بجيش بومبي الرئيسي في تونس، وقد استقر الوضع في العالم الروماني بعد معركة «أكتيوم» (سنة ٣١ ق. م)، والتي كانت فاصلة لدرجة أن أهالي برقة استمروا لمدة ثلاثة قرون يؤرخون بها، وقد وحد الرومان برقة مع جزر «كريت» كمقاطعة واحدة لمدة ٣٠٠ سنة».

وهكذا انتهت تلك الدول التي عمرت في الأرض أعواما عديدة، وآمادا مديدة، شيدوا فيها الصروح الكبيرة، وأقاموا فيها القصور المنيعة، وعتوا في الأرض فساداً،

وصالوا واستطالوا على رقاب الناس بغير منهج الله القويم، ولكن ذهبوا وتركوا كل ذلك فما بقي من تلك الدول إلا أثر بعد عين!!، ولقد عبر عن تلك النهايات شاعر الزهد أبو العتاهية رحمه الله تعالى بأبيات مؤثرات، يحملن في طياتها العبر البالغة لمن يعتبر، فقال:

أيـنَ القُـرُونُ الماضِـيَة	تركُـوا المَنـازِلَ خَالِيَـة
فَاسْـتبْدَلَت بِهِـم ديـارُهم	الريـاح الهَاوِيَـة
وَتشَـتَّت عنهـا الجمـوعُ	وفارقتهـا الغاشِـية
فـإذا محـل للوحـوش	وللكـلاب العاويـة
درجـوا فمـا أبقَـت صـروفُ	الـدهرِ مـنهم باقيَـة
لم يبـق بعـدَهم	إلا العِظـام الباليـة
ولقـد عتـوا زمنـا كـأنهم	السـباعُ العاتيَـة
في نِعْمَـة وغَضَـارة	وسـلامة ورفاهِيَـة [1]

* * *

(١) قصائد الزهد، لمحمد أحمد سيد، (ص ٥٥).

المبحث الثامن

النوميديـــــون

إن النوميديين من قبيلة ماسيلي البربرية، والتي كان يتزعمها آنذاك القائد العسكري مسينيسا الذي كانت تربطه علاقة وثيقة بالامبراطورية الرومانية، مما جعل قبيلة ماسيلي البربرية تدعم الامبراطورية الرومانية في حربها مع القوات القرطاجنية بأربعة آلاف فارس مدججين بالأسلحة، وهذا ما جعل الامبراطورية بعد انتصارها على القرطاجنيين أن تعيد لقبيلة ماسيلي بقيادة زعيمها مسينيسا جميع أراضيها، مما حذا بالقائد مسينيسا أن يفكر في توحيد قبائل البربر وتأسيس مملكة نوميدية تجمع تحت ظلها كل قبائل البربر، واستطاع أن يحقق ما أراد.

يقول جون رايت في ذلك: «عن طريق الحرب والقوة، أصبحت مدينة طرابلس رومانية، ففي (عام ٢٨٩ ق. م) أخذت قرطاجنة «مسينيسا» في صقلية من الإغريق، وبذلك غدت في احتكاك مباشر في روما، وقد سطا الأسطول الروماني في مدن قرطاجنة على ساحل شمال أفريقية خلال الحرب «البونية» الأولى (٢٦٤-٢٤١ ق. م) وفقدت قرطاجنة صقلية، ثم اندلعت الحرب البونية الثانية (سنة ١٢٨ ق. م) وتم غزو إيطاليا وخربها (هانيبال) القائد القرطاجني، وردت روما على ذلك فأرسلت سفنها الحربية إلى الساحل الأفريقي الشمالي فهزمت القرطاجنيين (عام ٢٠١ ق. م) في معركة «زيما» على الحدود الليبية التونسية الحالية، وربما كان نجاح الرومان راجعا إلى مساعدة «مسينيسا» زعيم قبيلة «ماسيلي» النوميدية، الذي دعم الرومان بأربعة آلاف فارس في لحظة حاسمة.

وقد كوفئ «مسينيسا» على مساعدته بأن اشترطت روما على قرطاجنة في معاهدة سالم (سنة ٢٠١ ق. م) أن تعيد «المسينيسا» جميع الأراضي التي كانت له أو لأجداده في أي وقت مضى، وكان مسينيسا يرى أن المعاهدة تعطيه الحق في حجز أجزاء من منطقة قرطاجنة ليضيفها إلى المملكة النوميدية التي كان يعمل على تأسيسها آنذاك، كان مسينيسا هذا قائدا موهوبا، وقد استطاع توحيد رجال القبائل البدائيين النوميديين وتحويلهم إلى أمة عظيمة على غرار النموذج القرطاجني، وكان هذا إنجازا رائعاً أدى إلى تشكيل دولة

لأهالي الصحراء لأول مرة»[1].

ولكن مسينيسا لم يكتف بإقامة مملكته بين تلك القبائل فحسب، بل قام بحملة عسكرية على مدينة طرابلس وضواحيها، وسهل جفارة ونواحيها، وتوجه إلى مدينة لبدة، وأوية، وصبراته، وحاصرها، فلما رأت المملكة القرطاجنية خطر المملكة النوميدية عليها، وأنها لا قبل لها بها، قدمت تعويضات ومبالغ مالية هائلة لمسينيسا قائد الحملة لتأخيره على المضي قدما في حملاته العسكرية للمناطق الخاضعة للمملكة القرطاجنية.

وبعد تأزم القضية لم تجد المملكة القرطاجنية بدا من خوض حرب خاسرة ضد المملكة النوميدية، مما استدعى الامبراطورية الرومانية للتدخل لمناصرة المملكة النوميدية التي كانت حليفة لها، وانتهت هذه الحروب التي دامت قرابة أربع سنوات بتدمير قرطاجنة ومدنها وضمت كل مقاطعاتها إلى ولاية الرومان.

يقول جون رايت عن عجز القرطاجنيين أمام المملكة النوميدية:

«عجز القرطاجنيون أمام مسينيسا، لأن شروط السلام لم تكن تسمح لهم بشن حرب ضده دون موافقة الرومان الذين كانوا يؤيدون سلب الأراضي من الأعداء المهزومين، واستولى مسينيسا على منطقة طرابلس حوالي (عام ١٦٥ ق. م) وبحجة منعه من مطاردة حصار لبدة، وأوية، وصبراتة، توجهت قرطاجنة إلى روما كي تتدخل لوقف اعتداءات مسينيسا، وقد سوت بعثة من مجلس شيوخ روما ذلك النزاع بأن أمرت قرطاجنة بتسليم المدن لمسينيسا ثم أمرت بدفع تعويضات له لتباطئها في عملية التسليم، وبذلك خضع الساحل الطرابلسي كله لمسينيسا، وامتدت مملكته (سنة ١٦١ ق. م) من غرب الجزائر إلى سرت.

وبعد عشر سنوات تأزمت قضية شمال أفريقية، وأصبحت روما تشعر بأن مملكة النوميديين القوية كانت مصدراً خطيراً عليها، كما كانت قرطاجنة من قبل، وعندما دخلت قرطاجنة (سنة ١٥٠ ق. م)، في حرب يائسة مع مسينيسا تدخلت روما، واعتبرت مهاجمة قرطاجنة للنوميديين خرقا لشروط اتفاقية السلام لعام (٢٠١ ق. م) وأعلنت الحرب على قرطاجنة، وكان هناك دافع آخر لدخول روما هذه الحرب، وهو أنها أرادت

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤٠).

الحد من طموح مسينيسا الواسع في جعل قرطاجنة عاصمة لمملكته، وبعد أربع سنوات من الحرب والحصار، استسلمت قرطاجنة لروما، واستبعد أهلها، وخربت المدينة العظيمة (١٦٤ ق. م)، وضمت مناطقها في شمال تونس إلى ولاية أفريقية الرومانية، لمنع مسينيسا من احتلالها»[١].

وبعد وفاة مسينيسا تولى ابنه الأكبر مسبسا زمام الأمور فترة من الزمن ثم مات، فتولت من بعده زمام الأمور قيادة مشتركة بين أبناء مسبسا وأبناء أخيه جرجوثا الذي انفرد بالسلطة بعد ذلك، وفي هذا العهد ساءت العلاقة بين الرومان والمملكة النوميدية مما حدا بالرومان إلى شن حرب ضروس على المملكة النوميدية، تم فيها اعتقال جرجوثا، وتعيين أخيه جوبا كصنيعة رومانية، إلا أن الحرب الداخلية الأهلية زادت الأمر سوءا مما دعا الرومان إلى ضم المملكة النوميدية وإخضاعها لسلطان الامبراطورية الرومانية، وأصبحت بذلك مقاطعة أفريقية القديمة (القرطاجنية)، ومقاطعة أفريقية الجديدة (المملكة النوميدية) جزءً من الامبراطورية الرومانية.

يصور صاحب كتاب تاريخ ليبيا الأحوال التي أدت إلى انهيار المملكة النوميدية فيقول: «وانتهت حالة شبه الاستقلال للمدن (سنة ٤٩ ق. م) عندما اندلعت الحروب الداخلية بين «يوليوس قيصر» وبومبي، وكان ملك نوميديا-جوبا الأول-من المؤيدين لبومبي، وأجبر «جوبا» دولة لبدة على تقديم الجيوش والمعدات، ولكن بعد هزيمة بومبي (سنة ٤٨ ق. م) وموته، واعتصم أتباعه بأفريقية، أصبحت لبدة مركزا لهم، ورست جيوش يوليوس قيصر في أفريقية (سنة ٤٧ ق. م)، وقضت على جيش بومبي في العام التالي.

وضمت روما مملكة النوميديين إلى مقاطعة أفريقية الجديدة، وعرفت مقاطعة تونس الأصلية باسم «أفريقية القديمة»، وكعقاب للبدة على مساعدتها لبومبي جعلت مدينة لبدة خاضعة لروما، وغرمت مليون لتر من الزيت كل عام، وأصبحت علاقة منطقة طرابلس سيئة مع روما بعد الحرب، وبعد ود قديم، حيث صارت جزءًا من الامبراطورية الرومانية»[٢].

---

(١) تاريخ ليبيا (ص ٤٠).

(٢) المصدر نفسه (ص ٤١).

قلت: إن الباب الذي مضي يذكرنا بقول الله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿سُنَّتَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥].

إنك أيها القارئ الكريم تستطيع أن تتأمل في عدة سنن من سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والحضارات والدول من خلال الباب الماضي.

ومن أهم هذه السنن:

أ- إن هلاك الأمم يكون بفشو الظلم وعدم إقامة العدل، ويكون ذلك عندما تختل الموازين، وتنعدم القيم، وتنحرف الفطرة، ويغيب منهج الله في دنيا الناس، وفي تحكم الأقوياء في الضعفاء، ويشرعون قوانين أرضية تجعل المجتمع طبقات فيه العبيد والسادة، ومن حق السادة أن يفعلوا ما يريدون تلبية لأهوائهم وإشباعا لنزواتهم، فعند ذلك ينزل العقاب وتقع القاصمة.

قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الأنبياء: ١١].

ب- إن انهيار الأمم والشعوب وزوالها يكون بأجل، وإن آجال الأمم أطول من آجال الأفراد، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

جـ- إن الأمم والشعوب بحاجة دائمة إلى من يذكرها ويردها إلى الصواب، لأنه مع تطاول الزمن تنحرف عن الحق لأسباب عديدة، ولذلك كان من رحمة الله بالإنسان أنه لم يتركه لفطرته وحدها أو لعقله وحده، ولذلك أرسل الله الرسل وأنزل الكتب.

وإذا تأملت وجدت غير ذلك من السنن التي مضت، ولا تزال تمضي في الشعوب والدول والأفراد والحضارات، والأمم، وأن سنن الله لا تحابي أو تجامل ولا تتغير ولا تتبدل.

إن الترف والفساد من أسباب زوال الأمم، فإذا ما تجبرت أمة من الأمم وعلت في الأرض وأصابها البطر والكبرياء هيأ الله لها أسباب الانهيار والزوال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

أي: أمرناهم بالأمر الشرعي من فعل الطاعات وترك المعاصي فعصوا وفسقوا فحق عليهم العذاب والتدمير جزاء فسقهم وعصيانهم والترف، وإن كان كثرة المال والسلطان من أسبابه، إلا أنه حالة نفسية تصيب الشعوب والأمم فتتمرد على منهج الله، وليس كل ثراء ترفا.

* * *

الباب الثالث

الفتح الإســــلامي
لشمال إفريقيـــة

تمهيـــد:

كان حال الشمال الأفريقي قبل الفتح، يلفظ آخر أنفاسه السياسية، والعسكرية، والدينية، والاجتماعية، فبعد دخول القائد جستنيان قرطاجنة واستسلام آخر ملوك الوندال جليمر أخذت الدولة في انحدار سريع وتساقط غريب حيث كانت الإدارة المدنية فيها في غاية من الفساد، كما أن الاضطهاد الديني والاستغلال المالي، وفوضى الجيش أصبحت تنذر الامبراطورية بأخطار عظيمة.

فحاولت قيادات الامبراطورية البيزنطية إجراء بعض الإصلاحات التي تطيل عمرها إلا أنها باءت كلها بالفشل، وحيث ترتب على هذه الإصلاحات بروز دور الكنيسة الأفريقية الذي يعتبر الخطر القاتل للامبراطورية الذي تمثل في تنازع العاصمتين الكبيرتين-القسطنطينية وإفريقية-على سيادة العالم المسيحي آنذاك، مما ترتب عليه أن أصيبت الكنيسة الأفريقية بأزمة زعزعت أعماقها.

فقد ظهر فيها مذهب سرجيوس بطريق قسطنطينية الذي يقول بالطبيعة الواحدة الإلهية والإنسانية معاً، والذي وقف إلى جانبه هرقل رغبة منه في اكتساب تأييد اليعاقبة، وعارضت الكنيسة الأفريقية ووجهت الاحتجاجات ضد هذا المذهب إلى الامبراطور والبابا، وانتهى الأمر بأن أعلنت أسقفية قرطاجنة عدم صلاحية الامبراطور.

وتعقد الموقف عندما وصل إلى إفريقية جماعات من الرهبان والراهبات الذين خرجوا من مصر، فرارًا من الاضطهاد، وبعدا عن مواطن الخطر في الوقت الذي كان المسلمون يفتحون فيه مصر.

كانت هذه حالة المسيحية في الشمال الأفريقي قبل ظهور الإسلام؛ مذاهب منشقة وفساد إداري، وعدم نظام، وإشاعة الرشوة، وتسلط الرومان، وانقسامات البربر، وفساد العدالة الاجتماعية، والظلم والجور، مما كان مهدا خصبا لانتشار الإسلام وقبوله كدين فيه خيراً الدنيا والآخرة [١].

***

(١) راجع كتاب تاريخ المغرب العربي (ص ١٢٤).

الفصل الأول

دواعي الفتح الإسلامي

المبحث الأول

الأمة المسلمة ودورها الريادي

لقد تقرر في بدهيات هذا الدين أن غاية وجود الأمة المسلمة في هذه الحياة هي توحيد الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في كل مناحي الحياة وإلى الممات، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا كانت تلك غاية العبودية الشاملة التي تشمل الأمة المسلمة ومن حولها من بني البشر، كان لزاما على الأمة المسلمة أن تقوم في ذاتها بامتثال الإسلام عقيدة وسلوكاً، ونظام حياة متكاملا، ثم حمل هذه الأمانة لأجل تبليغها للناس أجمعين، والجهاد في سبيل الله وأداء الأمانة إلى أصحابها، وإزالة كل العقبات التي تقف بوجه أداء هذه الأمانة إلى الناس أجمعين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك يتحقق بسط سيادة الشرع الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:

«وإذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن منع قوتل باتفاق المسلمين» [1].

بيد أن علينا أن ننوه هنا بأن أصل الجهاد في سبيل الله ليس لحمل الناس على اعتناق الإسلام كرها، كلا!، بل لإزالة الحواجز والعقبات المانعة من سماع دين الفطرة التي فطر الناس عليها. قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

إلا أنه يشرع لإزالة العقبات والموانع والحواجز التي تمنع بسط حكم الله سبحانه على الأرض، ودخول الناس كلهم تحت سلطان حكمه تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) السياسة الشرعية: لابن تيمية (ص ١٨).

ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

كذلك يشرع لرفع الظلم عن المستضعفين في الأرض كما قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥].

وبهذه الأهداف السامية، والمطالب العالية قام إمام المجاهدين وسيد الأولين والآخرين ﷺ، فقد أرسل الكتب والرسل إلى القادة الملوك والزعماء حينذاك، وأرسل السرايا والجيوش لإزالة الحكام الذين تمردوا على منهج الإسلام، فكانت سرية عبد الله بن جحش أول هذه البعوث، واستمر ﷺ في إرسال البعوث والسرايا لإزالة الحواجز البشرية والأعراف الجاهلية، والموانع النفسية، والعوائق المادية المانعة من سماع الإسلام وتفهمه، بل قاد ﷺ هو بذاته بعض البعوث والغزوات، والتي كان آخرها غزوة تبوك سنة ٩هـ.

والناس في كل هذه المعارك والغزوات مخيرون بين ثلاثة: إما أن يدخلوا في الإسلام ويكونوا للمسلمين إخوانا، وإما أن يختاروا البقاء على كفرهم، ويؤدوا الجزية، ويخضعوا لسلطان الله وحكمه، ولهم ما لنا وعليهم ما علينا، وإما أن يرفضوا هذا وذاك فيكون السيف فاصلاً بيننا وبينهم، وبذلك يتحقق قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وهكذا سار على نحو هذا المنهج القويم، والقواعد الجهادية الحكيمة، والأسس النبوية الراشدة، الخلفاء الراشدون الذين حملوا أعباء هذا الدين وطافوا أصقاع الأرض يبذلون الغالي والنفيس في سبيل تبليغ هذا الدين للناس أجمعين طاعة لله ورسوله، ورحمة بالناس وإشفاقا عليهم، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

المبحث الثاني

مبشرات الفتح الإسلامي

لقد تقرر في السيرة النبوية والأحاديث الصحيحة أن رسول الله ﷺ بشر المؤمنين بعدة بشائر، ومن تلك البشائر بشارته ﷺ بفتح كثير من الممالك والبلاد كفتح العراق وجهة المشرق، كما وعد سراقة بن مالك بن جعشم سواري كسرى أثناء هجرته المباركة من مكة إلى المدينة، وهذا نص البشارة التي وعد فيها ﷺ سراقة بسواري كسرى الذي كان آنذاك إمبراطور المشرق، فقد جاء في سيرة ابن هشام قوله: «فكتب لي كتاباً في عظم أو في رقعة، أو في خرقة، ثم ألقاه إليَّ فأخذته، فجعلته في كنانتي، ثم رجعت»[(١)].

وكذلك وعد ﷺ عدي بن حاتم الطائي -رضي الله عنه- بذلك حيث قال له: «فوالذي نفسي بيده لَيُتِمَّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز»[(٢)].

أما المبشرات بفتح الشام، فقد بشر بها ﷺ وفد تميم الداري حين قدومه إلى المدينة بقوله: «إذا هلك كسرى، فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر، فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله عز وجل»[(٣)].

ولاشك أن هذه بشارة كانت واضحة وجلية بفتح الشام والعراق وبلاد فارس، أما عن بشارة فتح جنوب أوروبا وشرقها، فقد جاءت بها الأحاديث الصحيحة كالتي تبشر بفتح مدنية القسطنطينية الهرقلية عاصمة الامبراطورية البيزنطية آنذاك، ومدينة رومية الإيطالية عاصمة البابوية الكاثوليكية.

فقد سئل عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-أي المدينتين تفتح أولاً، القسطنطينية أم رومية؟!!. فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج كتاباً فقال: «بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً؟، فقال: «مدينة هرقل»- يريد القسطنطينية»[(٤)].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٩٧).
(٢) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).
(٣) البداية والنهاية (٧/ ٥٩).
(٤) رواه الدرامي، وأحمد، وابن أبي شيبة والحاكم.

كما وقد جاءت الأحاديث الصحيحة ببشارة فتح مصر المقوقسية التي قال فيها ﷺ: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا افتتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة، ورحما» أو قال: «ذمة وصهرا» [1]، يشير بذلك إلى هاجر أم إسماعيل عليه السلام، وإلى مارية القبطية أم إبراهيم، التي أهداها المقوقس حاكم مصر لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم- وأنجبت ابنه إبراهيم.

وبعد... فلا ريب أن هذه المبشرات قد أضافت رصيدا مادياً، ومعنويا وحسيا على أن الفتوحات الإسلامية كانت وفق رؤية واضحة المعالم، بأبعادها المرسومة سواء البعيدة المدى أو القريبة، حتى جعلت أبا هريرة -رضي الله عنه- يقول حين افتتحت الأمصار زمن عمر وعثمان -رضي الله عنهما-«افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده، ما افتتحتم من مدينة، ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك».

إن الفتوحات الإسلامية خاضعة لمشيئة الله التي جعلت لكل شيء قدرا، «ما افتتحتم من مدينة ولا تفتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمداً ﷺ مفاتيحها قبل ذلك» إذ لا مكان للعفوية والارتجالية في هذا الدين السماوي القويم، فإن كل تحركات هذا الدين القيم كانت محسوبة في علم الله عز وجل، مسطرة في اللوح المحفوظ لذلك كانت قيادة الرسول ﷺ لتلك الفتوحات التي افتتحها والمبشرات التي أخبر عنها، كل ذلك كان وفق خطة ربانية شاملة ترفض الارتجالية. وخطة عسكرية منظمة تستنكف عن العفوية، كما قال عنه ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣، ٤].

وجاء في الحديث الصحيح: «والذي نفسي بيده، لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغدو في سبيل الله، والذي نفسي بيده لوددت أني أقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل، ثم أحيا، ثم أقتل» [2].

---

(١) فتح الباري (٦ / ٨٠).

(٢) البخاري، كتاب «الجهاد والسير»، باب تمني الشهادة: (٣ / ٢٦٨) رقم (٢٤٩٧).

المبحث الثالث
دعاوى المستشرقين.... شبهات وردود

إن الاستشراق والمستشرقين من ولادتهم في القرن العاشر الميلادي في أحضان الكنيسة برعاية اليهود، إبان الفتح الإسلامي لأوروبا، حيثما توجهت أنظار العالم إلى هذا الفتح الجديد، فخافوا أن ينصرف أتباعهم إلى هذا الدين العظيم، فرأوا -بزعمهم- أن أنجح حيلة لمواجهة هذا المد العظيم، محو صورته الوضيئة والإعجاب به في نفوس أتباعهم على وجه الخصوص، وفي نفوس أتباعه على وجه العموم، وذلك بالطعن فيه وتشويه محاسنه والتنفير منه، فكان أول مخطط لهذا المكر والكيد النصراني المدعو «بطرس الجليل» رئيس دير كلوي؛ الذي راقب الصراع بين الإسلام والنصرانية، واستنتج أن القوة المسلحة لا تجدي نفعا في محاربة الإسلام والمسلمين، وإنما ينبغي اللجوء إلى الغزو الفكري، لذلك توجهت محاولات الغزو للقرآن الكريم بترجمته إلى اللاتينية والطعن فيه وتشويه حقائقه، ثم الطعن في شخص الرسول الكريم ﷺ، في عالمية دعوته ووسائلها الجهادية والدعوية، وما شاكل ذلك من شبهات أَوْهَن من بيت العنكبوت!!.

ولكن نظراً لعدم تخصص هذا البحث في تقصي عمل الاستشراق والمستشرقين، وشبهاتهم والرد عليها، نكتفي بإيراد بعض شبهاتهم التي هي وثيقة الصلة ببحثنا هذا، ولكل مقام مقال كما قيل.

الشبهة الأولى: دعوى عدم وجود استراتيجية للفتوحات الإسلامية:

يقول المستشرق «أنتوني نتنج» وهو يجزم برأيه:

«والحملات بعيدة جداً عن أن تكون نتيجة لتدبير مقصود هادئ، إذ يبدو أنها بدأت كغارات قصد منها أن توجد مخارج جديدة للروح الحربية التي كانت تسود القبائل، والتي حظر عليها أن تشتبك في معارك أخوية» [(١)].

ويقرر فيليب حتى الذي يمثل خلاصة رأي المستشرقين في هذه الدعوى: «كان على

---

(١) راجع كتاب «دواعي الفتوحات الإسلامية، ودعاوى المستشرقين» د.جيل عبد الله المصري (ص ٣٥).

أولي الأمر بعد إخضاع الجزيرة أن يوجهوا الجيوش الحسنة الاستعداد إلى بلدان جديدة، وقد جعل الإسلام من المؤمنين إخوة، حتى إن الغزو بين القبائل – والغزو قديم العهد في الحياة البدوية–لم يبق أمراً ترضى عنه السلطة، ولكن كان من الصعب كبح القبائل المتوثبة للغزو والقتال، فكان على أولي الأمر أن يوجهوا القبائل في سبل ومنافذ جديدة.. وهكذا بدأت بشكل غزوات تنفيسا للروح الحربية المتأججة في قلوب أبناء القبائل، وخلقا للمجال الحيوي خارج الجزيرة المكتظة بالسكان» [١].

لاشك أن هذه الدعوى باطلة من أصلها، وواهية مردودة بالنصوص الثابتة، والوقائع الصحيحة، فلو تأمل عاقل في دين الإسلام، لوجد من النظرة الأولى، أنه دين يحث أتباعه ويأمرهم بالنظام في حياتهم الخاصة والعامة، وبالتفكير والتأمل في كل حركاتهم وسكناتهم، وبالرؤية العميقة للأحداث، والنظرة البعيدة للأهداف، فخذ لذلك مثلاً للإيضاح والتبيان لما قررناه شعيرة الصلاة فحسب، والتي تعتبر من أبرز مظاهر التدين بدين الإسلام، فانظر في كيفية أدائها على سبيل المثال بصورها الجماعية في حالة الحرب، وتحديد دور الإمام فيها والمأموم، والسابق والمسبوق، فما إن تتأمل في تلك الشعيرة وكيفية أدائها، فتقر بأن هذا الدين عظيم، أساسه التنظيم والدقة في حالات الحرب والسلم.

فإذا كان ذلك في شعيرة الصلاة التي لا فيها إراقة دماء ولا إهدار أموال، ولا تغريب عن الأهل والأوطان، فكيف يتصور أن دينا هذا سمته، في شعيرة تعبدية كالصلاة، يأمر بشعيرة جهادية عسكرية تتضمن القتال والاستشهاد، وإهدار المال والتضحية بالأولاد، والتغريب عن الأوطان والإخوان، بدون وضع خطة جهادية بأبعادها الاستراتيجية، لإقامة هذه الشعيرة التعبدية؟!! [٢].

لذلك كان على أصحاب هذه الشبهات، أن يقفوا عند سيرة الرسول ﷺ ويتأملوا بعد تخطيطه وأهدافه ﷺ منذ بداية الرسالة، وكيف قام في مكة بتبليغ دعوة الإسلام لزعماء القبائل، وسادة القوم، وملوك الناس آنذاك، يدعوهم بدعاية الإسلام على أن

---

(١) دعاوى الفتوحات الإسلامية (ص ٣٥).

(٢) هذه الفكرة من الأخ عبد الحكيم الصادق، أثناء حوار معه.

يؤازروه وينصروه، فكان له ما قصد، فقد قبل أهل المدينة تلك الدعوة وقائدها ﷺ التي كانت بداية إرهاصات قيام دولة الإسلام الأولى التي هاجر إليها ﷺ فيما بعد، حيث قام بتثبيت دعائم الدولة الجديدة، وتحمل عبء نشر الدعوة للناس أجمعين، وذلك بإرسال الرسل، والاستعداد للجهاد في سبيل الله وفق خطط واضحة المعالم، والأبعاد، والمضامين والأهداف والمقاصد.

وهكذا استمر الخلفاء الراشدون من بعده ﷺ على هذا النمط من التحرك المدروس بأبعاده الشمولية وأهدافه الشرعية، يحدوهم في كل ذلك حب الخير للناس أجمعين في الدنيا والدين، وبهذه الروح وتلك الاستراتيجية استطاعوا أن يفتحوا قلوب الناس ليدخلوا في دين الله أفواجا حتى وصلوا إلى بلاد الصين، والروس، وقلب أوروبا ومجاهل إفريقية، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «فوالذي نفسي بيده لَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر، حتى تخرج الظعينة من الحيرة، حتى تطوف البيت في غير جوار أحد، وليفتحن كنوز كسرى بن هرمز»[(١)].

الشبهة الثانية: أن الفتوحات الإسلامية كانت حروبا دينية:

وجماع هذه الشبهة يلخصها الدكتور جميل المصري بقوله:

«إن المسلمين أصحاب عقيدة، ولكنهم توسلوا بالتعصب الأعمى، وأخضعوا الناس لمبادئهم بالقهر والإرغام، وخاضوا إلى ذلك بحار الدم والقسوة، وأنهم كانوا يحملون القرآن بإحدى يديهم، والسيف باليد الأخرى»[(٢)].

ونقول: رغم هذا الإفك المبين، ومواقف هؤلاء المبطلين الذين يعرفون حقيقة الإسلام ودعوته أكثر من بعض المسلمين، كما قال تعالى فيهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، بيد أن الله سبحانه أقام حجته عليهم ودحض شبهاتهم بأقلامهم، وألسنتهم حيث سخر لهم من يفند شبهاتهم من بني جنسهم ومن جلدتهم ويتكلمون بألسنتهم، ومن أولئك المستشرقين روزنتال.

---

(١) سيرة ابن هشام (٤ / ٥٨١).
(٢) دواعي الفتوحات الإسلامية (ص ٣٩).

يقول المستشرق روزنتال:

«.... وقد نمت المدينة الإسلامية بالتوسع لا بالتعمق، وداعية إلى العقيدة، مناقشة لتلك الحركات الفكرية الموجودة... وفوق كل ذلك فتقدم الإسلام وتهاوت الحواجز القديمة من اللغة والعادات، وتوافرت فرصة نادرة لجميع الشعوب والمدنيات لتبدأ حياة فكرية جديدة على أساس المساواة المطلقة بروح المنافسة الحرة» [(١)].

ويقول فون كيرمير:

«كان العرب المسلمون في حروبهم مثال الخلق الكريم، فحرم عليهم الرسول قتل الرهبان، والنساء والأطفال، والمكفوفين، كما حرم عليهم تدمير المزارع، وقطع الأشجار، وقد اتبع المسلمون في حروبهم هذه الأوامر بدقة متناهية، فلم ينتهكوا الحرمات، ولا أفسدوا المزارع، وبينما كان الروم يرمون السهام المسمومة، فإنهم لم يبادلوا أعداءهم جرما بجرم، وكان نهب القرى وإشعال النار قد درجت عليهما الجيوش الرومانية في تقدمها وتراجعها، أما المسلمون فقد احتفظوا بأخلاقهم المثلى، فلم يحاولوا من هذا شيئاً» [(٢)].

وأجاد المستشرق جوستاف لوبون بالفعل في طريقة عرضه لعدم إكراه المسلمين الناس على الإسلام، وبين أن الإسلام انتشر بالدعوة وبدون إكراه [(٣)].

يقول الدكتور جميل المصري:

«والواقع أن مصادرنا لم تبخل علينا بالنصوص الموثقة، التي لا تدع مجالاً للشك في أن المسلمين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإسلام، منفذين أمر الله سبحانه وتعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وأما إقبال الشعوب على الإسلام، فكان سببه ما لمسوه في الإسلام نفسه، فهو النعمة العظيمة، ولما لمسوه من المسلمين من التخلق بأخلاق الإسلام، والالتزام بأحكامه، وأوامره ونواهيه، ولما لمسوه من القادة والجند الذين كانوا يقومون بالدعوة بالتطبيق

---

(١)، (٢) دواعي الفتوحات الإسلامية: (ص ٤١).

(٣) المرجع السابق: (ص ٤٢).

العلمي، فتميزت مواقفهم بأنبل المواقف التي عرفها التاريخ العالمي، فقد كان الخلفاء والقادة يوصون جندهم بالاستعانة بالله، والتقوى، وإيثار أمر الآخرة على الدنيا، والإخلاص في الجهاد، وإرادة الله في العمل، والابتعاد عن الذنوب. [١]

الشبهة الثالثة: إن الفتوحات الإسلامية كانت حروبا قومية:

لا يخفى عليك أن هذه الشبهة مردودة من أصلها، إذ إن أكبر خصومة للدعوة الإسلامية كانت من قبل العرب سواء أكانوا عرب مكة، أم عرب الشام والعراق، بل التاريخ يثبت أن هؤلاء العرب المتنصرة وغيرهم، هم الذين وقفوا في عدة معارك مع الفرس، والروم ضد المسلمين، فكيف يكون أعداء الدعوة الإسلامية سبباً في الفتوحات الإسلامية، هذا بهتان عظيم؟!!.

ولكن لا بأس أن نذكر لك فحوى شبهة القوم، حتى يتضح لك أنها ليست بشبهة وإنما هي المكر والكيد!! وهذا نص الشبهة كما ذكره الدكتور جميل المصري: «وجود العرب في الشام والعراق ومصر، الذين اعتبروا العرب من بني جنسهم، يربطهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين من الروم والفرس».

واعتبروا أن هذه الفتوحات: «من سلسلة الصراع بين الشرق والغرب، استرد بها الشرق الأدنى مجده السامي الغابر»[٢]. وذهب إلى هذه الدعوى الباطلة من المستشرقين بروكلمان في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية، وكلود كاهي، وبرنرد لويس في كتاب العرب في التاريخ، وموريس لومبارد في كتابه الجغرافيا التاريخية.

الشبهة الرابعة: الفتوحات الإسلامية كانت لأسباب اقتصادية:

ولا ريب أن من تأمل هذه الشبهات وأسباب إثارتها عند هؤلاء المستشرقين يجد أن هؤلاء المستشرقين قد انطلقوا لتقييم حركة الفتح الإسلامي من منظورهم النصراني البحت، الذي قد تجسم في دوافع حركتهم الاستشراقية، حيث كان أول دافع لهم في حركتهم تلك بعد فشلهم في الحروب الصليبية، كان الدافع الديني، ثم الباعث الاقتصادي الذي سيطر على أذهان القائمين على حركة الاستشراق سيطرة كاملة، وما تحركات

(١)، (٢) دواعي الفتوحات الإسلامية، ودعاوي المستشرقين (ص ٥٥).

حركة الاستشراق المعاصرة بقيادة أمريكا، وفرنسا، وبريطانيا، وألمانيا، وإيطاليا، في منطقة الشرق الأوسط، وأفريقية، وشرق آسيا إلا دليل على ذلك، وما حرب الخليج ودوافعها عنا ببعيد!!.

لذلك فهم يحاكمون حركة الفتح الإسلامي الرباني بحركتهم الاستشراقية الجاهلية التي مبناها الكفر بالله واليوم الآخر، حيث إنهم لا يتحاكمون إلى كتاب سماوي، بل يرفعون لواء المنهج العلمي في البحث والنقد الأكاديمي -كما يزعمون- لهذا سوف نحاكمهم إلى المنهج العلمي في البحث والنقد، ويكون ذلك على محورين لا غير.

المحور الأول:

لماذا لا يلتزمون بقواعد البحث العلمي، والنقد الأكاديمي، حيث عمدوا لمحاكمة حركة الفتح الإسلامي صاحبة الكتاب السماوي والدستور الإلهي، التي لها من المراجع العلمية والبشرية ما لم يكن من قبل، ولا من بعد لحركة قط، إلى حركتهم الاستشراقية الجاهلية التي ليس بها سند سماوي، ولا دستور إلهي، ولا مرجعية علمية!، أتكون هذه المحاكمة عادلة والحال كما مر معنا؟!،، أفتونا يا أصحاب المناهج العلمية، والقواعد الأكاديمية الاستشراقية المسمومة.

المحور الثاني:

ثم بعد ذلك قرروا في أنفسهم ما قرروه من الشبهات حيال حركة الفتح الإسلامي الرباني، ونظروا في المصادر الإسلامية ليتخيروا كلمات، أو يبتروا نصوصًا، أو يتصيدوا عبارات موهمة قد قيلت في سياق معين، فيقطعوها من سياقها وسابقها ولا حقها لكي تؤيد ما قرروه من شبهاتهم!!، ويعرضون جملة وتفصيلا عن النصوص المحكمات الواضحات ويتسللون منها لواذا!! أهذا منهج علمي في البحث عن الحقائق!!، أهكذا تكون قواعد النقد الأكاديمي؟!!.

* * *

الفصل الثاني

بدايات الفتح المبارك

إرهاصات الفتح:

لقد سبق الفتح الإسلامي لليبيا إرهاصات، وأحداث، وقضايا سياسية، ونزاعات عرقية، وثورات محلية في مدينتي برقة وطرابلس، والتي كان لها أثر بالغ في تغيير مجريات الأحداث السياسية والدينية في المنطقة، وتمهد لتهيئة نفوس أهالي ليبيا لقبول الفتح الإسلامي، حيث إنهم كانت قد بلغتهم أخبار فتح المسلمين لبلاد الشام ومصر، فتطلعوا إلى الخلاص على أيدي المسلمين من أولئك البيزنطيين وحكمهم الجائر التعسفي، لذلك حاول نفر من أهالي ليبيا التمرد على نظام الامبراطورية البيزنطية، والخروج إلى ناحية مصر، وما إن وصل هؤلاء النفر، حتى أعلنوا إسلامهم ودخلوا في دين الله سبحانه، وأعطوا ولاءهم لقيادة المسلمين بقيادة عمرو بن العاص، ونيابة عن خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.



المبحث الأول
حملة عمرو بن العاص ﷺ على برقة

ولما كان الحال في ليبيا كذلك، فقد قرر عمرو بن العاص رضي الله عنه بناء على تلك المعلومات، أن يضع استراتيجية أمنية ووقائية لمصر من الناحية الغربية، حتى يأمن شر الروم القاطنين بناحية برقة وطرابلس، بعد أن أمن فتوحاته الشامية، وذلك بفتحه الإسكندرية، لذلك قرر عمرو بن العاص رضي الله عنه، إرسال عقبة بن نافع الفهري رضي الله عنه كمقدمة استطلاعية لفتح الشمال الأفريقي، وكان ذلك في (عام ٢٢ هـ-٦٤٢م) على الراجح من الأقوال.

يقول ابن عذاري بهذا الصدد: «إن عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر وجه عقبة ابن نافع الفهري إلى زويلة، وبرقة فافتتحهما، ثم توجه بنفسه إلى برقة، فصالح أهلها، ولا يستبعد أن تكون حملة عقبة بن نافع هذه عبارة عن سرية استطلاعية وأنها هي التي جعلت عمرو بن العاص يمكث بقية (سنة ٢١هـ/ ٦٤١م)، ثم إن الفتح قد تم في الشهور الأولى من (سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م) ثم واصل عمرو سيره إلى طرابلس في (سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م) أو في أواخرها»[1].

يبدو لي أن فتح برقة لم يكلف عمرو بن العاص رضي الله عنه كبير عناء، إذ إن جيشه الذي فتح به مصر، لا يتجاوز تعداده اثني عشر ألفًا، مع الأخذ في الاعتبار أن نسبة الجيش الذي وجهه لفتح برقة ثم طرابلس تعداده كان ضئيلاً قياساً مع حجم قوات الامبراطورية البيزنطية التي كانت ترابط بتلك المنطقة، إلا أن القوة الحقيقية ليست في تعداده وشكله، وإنما تكمن في إيمانه بالله واليوم الآخر، وحبه للموت في سبيل الله، مع ممارسة فن القتال، وخبرته الطويلة في ذلك.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «فلما انتهى عمرو بن العاص رضي الله عنه من فتح الإسكندرية، وتنظيم أمورها، سار ببقية جيشه إلى مدينة برقة، ثم أصبح مجموع جيشه بعد

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، للدكتور/ صالح مصطفى مفتاح المزيني، ص (٢٨).

أن وصلته الإمدادات لا يزيد على اثني عشر ألفًا، وإذا أدخلنا في حسابنا ما فقده عمرو رضي الله عنه من جند استشهدوا في فتح مصر وما تركه من جند للدفاع عنها، أدركنا قلة عدد جيش المسلمين الذي وصل به إلى برقة، الأمر الذي سهل عليه مهمة السير إلى برقة دون أن يتطلب الإعداد لذلك مجهودًا كبيرًا، فلم يكن من الصعب على جيش بمثل هذا العدد أن يقطع الطريق فيما بين مصر وبرقة دون أية صعوبة، وقد ساعده على ذلك ما عرف به الجند المسلمون في عصرهم الأول من بساطة في التجهيز للحرب، والتزود لها وخبرة بفنون القتال في الصحراء»[1].

والجدير بالذكر، أنه يجب التنويه هاهنا، بخصلة مهمة قد ساعدت عمرو بن العاص رضي الله عنه أثناء فتح برقة، وهذه خصلة تعتبر منقبة لأهالي برقة، ألا وهي عدم مقاومتهم للجيش الإسلامي، رغبة في العيش تحت ظل الحكم الإسلامي العادل بقيادة عمرو بن العاص، ورغم سجيتهم التي ألفت الحروب، والتمرد على أنظمة الامبراطوريات الفينيقية، والإغريقية، والرومانية، والبيزنطية وغيرها، ولذلك تعتبر هذه النقطة عاملاً مهما من العوامل التي ساعدت الجيش الإسلامي في فتح برقة بدون كبير عناء.

يقول الأستاذ طاهر الزاوي: «وسار بجيشه عمرو بن العاص إلى برقة لفتحها، فلم يحاربه أهلها، وآثروا أن يدخلوا تحت حكم الإسلام ويتمتعوا بما فيه من حرية وعدالة».

يقول الدكتور صالح مصطفى: «وعندما وصل جيش الفاتحين إلى برقة ضرب عليها الحصار، وتتفق معظم المصادر على أن برقة وهي مدينة أنطابلس [2] قد فتحت صلحا، وأن أهلها قد عاهدوا عمرو بن العاص -رضي الله عنه- على أن يدفعوا مبلغاً من الجزية مقداره ثلاثة عشر ألف دينار، وقد اختلف في سبب تحديد الجزية، وعللها بعضهم بأنها كانت تمثل عدد المحتلمين ممن آثروا البقاء على مسيحيتهم، ولم يعتنقوا الإسلام فحقت عليهم الجزية باعتبارهم أهل ذمة» [3].

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، (ص ٢٩).

(٢) أنطابلس، اسم برقة قبل الفتح الإسلامي وهي كلمة رومية معناها بالعربية، خمس مدن، تسمى الآن العقورية وشحات وبنغازي، وسومة، إلخ.

(٣) ليبيا منذ الفتح العربي (ص٢٩).

ولا يخفى أن أحكام أهل الذمة، وكيفية أخذ الجزية منهم، وتحديد قيمتها، كل ذلك مسطر في كتب الفقه بشكل مفصل، وما قصدت التكلم في ذلك، وإنما قصدت الإشارة إلى بعض مقاصد أخذ الجزية من أهل الذمة في دولة المسلمين، وهذه المقاصد تدور حول عدة نقاط نذكر منها: تقرير مبدأ لا إكراه في الدين، ولكن عليهم أن يدخلوا بذلك تحت سلطان الدولة المسلمة، وعدم التمرد عليها في حالتي الحرب والسلم، ويدفعهم الجزية تعصم دماؤهم وأموالهم وأعراضهم إلا بحق الإسلام، وبذلك تعطى لهم فرصة معايشة أهل الإسلام بالإسلام، لكي يجاوروا أهله، وتكون فرصة للدخول فيه، ويدفعهم الجزية يكونون قد ساهموا في نفقات الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وحرماتهم التي كفلها الإسلام لهم، وأخيراً المساهمة في بيت مال المسلمين الذي يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل، بما في ذلك أهل الذمة، بدون فرق بين المسلمين دافعي الزكاة، وأهل الذمة دافعي الجزية، فالكل ينعم بعدل الإسلام ورحمته بضمان تلك الواجبات وغيرها.

وبهذه الروح والأخلاق، وبتلك العدالة والإنصاف، استجاب كثير من الشعوب لنداء الفطرة، دين العدل والمساواة، دين رب الأرض والسماء، بمجرد دخول جيوش المسلمين الصادقين إلى أراضيهم، فأصبحوا إخواناً في العقيدة، وحملوا مع الفاتحين الرسالة، وأدوا الأمانة.

فإذا كان ذلك كذلك فيجب الاهتمام بأمر إعداد العدة والجهاد في سبيل الله على منهاج النبوة والخلافة الراشدة، وذلك بإقامة هذه الفريضة كما ينبغي، حتى تقام أحكام كثيرة، بدونها لا تقام، بل تتعطل بالكلية، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وبعد، فقد واصل عمرو بن العاص ﷺ مسيرته المباركة بعد أن استسلمت مدينة برقة إلى ناحية مدينة طرابلس، خلال مسيره ناحية الغرب، ثم فتح بقية المدن التابعة لبرقة مدينتي توكوة، وبنغازي، ثم وصل إلى مدينة أجدابية التي رفع معظم أهلها شعار الصلح على أن يدفعوا خمسة آلاف دينار فرعوني، ولكن ما لبثوا على دفع الجزية إلا قليلاً، حتى أسلم

معظم سكانها، بعد أن رأوا من الفاتحين من العدالة والمساواة، والصدق والأمانة، والطهارة والعفة، ما لم يروه من قبل في جيوش تلك الامبراطوريات الهالكة!!.

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد: «وبعد أن خضعت مدينة برقة للجيش الإسلامي تابع عمرو بن العاص سيره مع الطريق الساحلي القديم مستهدفا مدينة طرابلس، ففتح في طريقه بقية مدن برقة مثل توكير (توكرة)، ويبرنيق (بنغازي)، وكانتا أطلالا مهجورة أو على الأقل كانت حالتها قد تدهورت بحيث لم تستحقا أن تذكرا في أخبار الفتح، وكانتا من قبل مدينتين مهمتين في الإقليم، وفي نفس السنة ٢٢هـ / ٦٤٢م وصل عمرو بن العاص -رضي الله عنه- في مدينة أجدابية فافتتحها صلحًا على أن يدفع أهلها خمسة آلاف دينارًا، وقد أسلم معظم أهلها، وبينما عمرو بن العاص يواصل سيره نحو طرابلس، كان يعمل على تثبيت فتح برقة وتأمين مواصلاته، ولذلك أرسل عقبة بن نافع على رأس قوة من الجيش لغزو المناطق الداخلية من برقة، بينما واصل هو مسيره مع معظم الجيش نحو طرابلس» [(١)].

ولا يخفى أن الدور الذي قام به عقبة بن نافع -رضي الله عنه- خلال هذه الحملة المباركة، كان دور الإسناد، والاستطلاع، والتأمين، حيث أمَّن لحملة عمرو بن العاص -رضي الله عنه- مناطق الجنوب حتى وصل مدينة زويلة فافتتحها، بذلك استطاع عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أن يسير نحو جهة الغرب وهو آمن من الجهات الثلاث، جهة الشرق لقبول أهلها الإسلام، وجهة الجنوب لقبول أهلها الإسلام والدخول في طاعة جيش عقبة، أما جهة الشمال فكانت متمثلة في شريط البحر الأبيض المتوسط، وكانت آنذاك جهة آمنة، فما بقيت إلا جهة الغرب، لذلك وجه معظم الجيش نحو طرابلس، وما حولها من المدن، فكان له ما قصد.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «أما عقبة بن نافع فقد توجه بتلك القوة في اتجاه الجنوب تاركاً ودان [(٢)] على يمينه وفاتحا المناطق الداخلية حتى بلغ مدينة زويلة فافتتحها

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي: (ص ٣٠، ٣١).

(٢) ودان: مدينة في جنوب سرت، وكانت مضمومة إليها وهي جزيرة لا تقصر في رخص التمور وكثرتها وجودتها عن أوجلة، ويذكر البكري أن ودان مدينة في بلاد البربر، وهي من حيز برقة يسكنها قوم من العرب، وبينها وبين قصر ابن ميمون ستة أيام، انظر: معجم ما استعجم (٤ / ١٣٧٥).

وفرض على أهلها ثلاثمائة رأس من الرقيق، وبذلك يكون عقبة بن نافع قد مهد لقيام الإسلام في مناطق نائية في الصحراء الجنوبية، إلى حد أن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- قد كتب إلى الخليفة يُعلمه أنه قد ولّي عقبة بن نافع المغرب، فبلغ زويلة، وأن مَنْ بين زويلة وبرقة سلم كلهم، حسنة طاعتهم، قد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل زويلة ومن بينه وبينها ما رأى أنه يطيقونه، وأمر عماله جميعاً: «أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة، فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من أرض المسلمين العشر، ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم».

وحينما كان عقبة يتجه نحو الجنوب كان عمرو بن العاص ﷺ يسير نحو طرابلس وفي طريقه إليها مر بسرت [1]، ولم يواجه عناء في فتحها، إذ لم يذكر أحد أنها فتحت عنوة أو صلحا، مما يدل على أنها لم تكن ذات خطر، فاكتفى المسلمون باستسلامها، ثم ساروا في طريقهم إلى لبدة [2]، فوجدوها خرابا مهدمة وحولها قليل من السكان؛ خليط من البربر والروم فافتتحوها دون مقاومة [3].

* * *

(١) سرت: وهي مدينة كبيرة على سيف البحر الأبيض المتوسط.

(٢) لبدة: تقع شرق طرابلس بنحو (١٢٤ك. م) أسست في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد، احتلها الروم (سنة ٤٢ق. م) انظر: الزاوي، معجم البلدان الليبية، (٥، ٦).

(٣) ليبيا منذ الفتح العربي (٣١، ٣٢).

المبحث الثاني

حملة عمرو بن العاص على طرابلس

ولما انتهى عمرو بن العاص من فتح برقة وتأمين حدودها، تقدم بمعظم جيشه جهة الغرب حتى بلغ مدينة طرابلس ذات الحصون المنيعة، والأسوار الحصينة التي كانت تحيط بها من جميع الجهات شرقاً، وغرباً، وجنوبا إلا ناحية الشمال التي كانت مطلة على البحر، فلما رأى عمرو تلك الحصون المنيعة والأسوار الحصينة اختار موقعاً من ناحية الشرق ورابط فيه، وكان يرسل طلائعه تلك إلى الأسوار لعلهم يجدون مدخلاً إلى داخل المدينة.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«ثم تقدم عمرو بن العاص بجيشه حتى وصل إلى مدينة طرابلس، وكانت محصنة، إذ إن الأسوار تحيط بها من جميع الجهات، فيما عدا الجهة البحرية حيث كان الميناء، ورابط عمرو -رضي الله عنه- في موضع مرتفع يشرف على المدينة من جهة الشرق وظل محاصرا لها لمدة شهر» [(١)].

ويقول الأستاذ طاهر الزاوي وهو بصدد الحديث عن مناعة مدينة طرابلس وأسوارها:

«وقد كان سور طرابلس من المناعة بحيث لم يقدر المسلمون أن يتسوروه، كما لم يقدروا أن يقتحموا أبوابه، وكان السور يحيط بالمدينة من جهة الشرق، والغرب، والجنوب، ولم تكن مسورة من الشمال بينها وبين البحر» [(٢)].

وهكذا استمر عمرو بن العاص في رباطه وحصاره لمدينة طرابلس قرابة الشهر أو يزيد، حتى منَّ الله عليهم بتلك الحصون، التي ظن أهلها أنها مانعتهم من الله، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، فقد تمكنت مفرزة من طلائع الجيش المسلم، خلال تجوالها الاستطلاعي حول مدينة طرابلس، من العثور على معبر إلى داخل المدينة خلال جهة السور الغربية الشمالية، حيث نزلوا إلى البحر فوجدوا أن هناك سبيلاً للدخول من تلك الفجوة، التي كانت بين نهاية السور وسطح البحر، فدخلوها من فورهم، وكانت بداية نهاية الحصار الذي طال قرابة الشهر.

---

(١) معجم البلدان الليبية، (٣٢، ٣٣).

(٢) تاريخ الفتح العربي في ليبيا، (ص ٦٣، ٦٤).

يقول :لأستاذ طاهر الزاوي:

«وبقي المسلمون على حصارها نحو شهر لا يقدرون منها على شيء، وكانت رسلهم تغدو وتروح حول السور علهم يجدون فجوة توصلهم إلى داخل المدينة فلم يجدوا، وفي ذات صباح ذهب سبعة من المسلمين للاستكشاف أو للصيد كما يقول ابن عبد الحكم، وكانوا مسلحين بسيوفهم ورماحهم، وساروا حتى وصلوا إلى جهة السور الغربية الشمالية فوجدوا السور غير متصل البحر؛ لأنها لم تكن مسورة من الناحية الشمالية كما ذكرنا، وقد يكون البحر في حالة جزر مما زاد في اتساع الطريق بين نهاية السور والبحر، ورأوا من الممكن الوصول إلى داخل المدينة من هذه الفجوة، فدخلوها من فورهم من ناحية الكنيسة القديمة، وهو مكان مرتفع يقع في الشمال الغربي من المدينة، وقد أعملوا سيوفهم في رقاب الروم، وعلت أصواتهم بالتهليل والتكبير، وسمع عمرو وبقية المسلمين تكبير إخوانهم داخل السور فأسرعوا إليهم، وتكاثر المسلمون، وعلت سيوفهم رقاب الروم فذهلوا وذعروا فلم يسعهم إلا الفرار» [1].

ويبدو واضحاً من هذه القصة أن سكان مدينة طرابلس من الروم وغيرهم، لم تكن لهم المقدرة على مقاومة جيوش المسلمين، لذلك تم الاستيلاء على المدينة دون كبير عناء، ولا مقاومة تذكر، لا خارج السور ولا داخله، حيث فر من فر، وأما من بقي منهم داخل المدينة، فقد اختاروا الدخول في أمن المسلمين، حيث كفلوا لهم حماية أنفسهم وأعراضهم، ومعابدهم، وأملاكهم.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي:

«ولما تم استيلاء العرب [2] على المدينة أمنوا من بقي فيها وكفلوا لهم أموالهم، ومنعوا التعدي على أعراضهم وأنفسهم، ولم يذكر أحد من المؤرخين أن الروم قاوموا العرب بالسيف حينما اقتحموا عليهم المدينة، مما يدل على أنهم كانوا في حكم المستسلمين، ويقال: إن المسلمين بنوا فيها مسجدًا، وإن مسجد أحمد باشا بني على أنقاضه» [3].

---

(١) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٦٣، ٦٤).

(٢) وددنا من شيخنا الفاضل أن يسمى هذه الجيوش بما سماها الله عز وجل في كتابه، قال تعالى: ﴿هو سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]. بدل تسميتهم العرب، لأن هذا الدين دين عالمي، وهذه الجيوش مختلطة مع جميع الأجناس التي استسلمت لله ودخلت في دين الله أفواجا، فكيف إذن حصر هذه الأجناس في جنس واحد؟ بل كيف تسمى هذه الفتوحات الإسلامية بفتوحات عربية كما سمى شيخنا الفاضل مصنفه بهذا الاسم «تاريخ الفتح العربي في ليبيا».

(٣) تاريخ الفتح العربي في ليبيا (ص ٣٥).

المبحث الثالث

حملة عمرو بن العاص على صبراتة

وقبل مغادرة عمرو بن العاص ﷺ مدينة طرابلس إلى صبراته [(١)]، قام بتثبيت أركان الحكم فيها، وتأمينها ضد هجمات الروم الخارجية، حيث هدم بعض أسوار المدينة مخافة تحصن الأهالي ومقاتلة المسلمين عند مغادرتهم لمدينة طرابلس، ثم بعد ذلك جد السير بهذه الحملة المباركة، إلى مدينة صبرة-صبراته-التي تقع غربي مدينة طرابلس تجاه الحدود الليبية التونسية، حيث وجه خيله بقيادة عبد الله بن الزبير إلى مدينة صبراته، ففتحها على حين غفلة من أهلها، وكان ذلك في الصباح الباكر وقت فتح أبوابها، وإخراج الماشية منها لترعى خارج السور.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«وبعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مدينة طرابلس، وجه خيله على غفلة إلى مدينة صبرة-وهي في اتجاه الحدود التونسية-بقيادة عبد الله بن الزبير، وكان أهل المدينة قد تحصنوا عندما علموا بمحاصرة عمرو بن العاص لمدينة طرابلس، ولكن عندما امتنعت مدينة طرابلس، أطمأن أهل صبرة، وظنوا أن عمراً لا طاقة له بهم، ولكن عمراً كان قائدا بارعا، فما إن ظفر بمدينة طرابلس حتى جرد خيلا كثيفة من ليلته، وأمرهم بسرعة السير، فتقدمت الخيل إلى هذه المدينة في الصباح الباكر، وكان أهلها قد أطمأنوا، وفتحوا أبواب المدينة، وأخرجوا ماشيتهم لترعى فاستطاع ذلك الجيش أن يحتوي على المدينة بسهولة ويسر» [(٢)].

ولما فتح الله عليهم مدينة صبراتة، رأي عمرو بن العاص -رضي الله عنه- عند قائد الحملة المباركة أن التقدم بهذا الجيش الذي استمر في فتح البلدان من برقة وضواحيها،

---

(١) صبراته: مدينة قديمة تقع غربي مدينة طرابلس بنحو (٦٧ كم) على ساحل البحر الأبيض المتوسط أنشأها الفينيقيون حوالي (٩٠٠أو ٨٠٠ ق، م) وهي مدينة من أعظم المدن التي كانت في الشمال الإفريقي، وكانت أكبر من طرابلس، وأعظم منها عمرانا ومدنية، وأروج تجارة (راجع تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص ٦٦).

(٢) ليبيا منذ الفتح العربي (ص ٣٥).

مرورا بأجدابية وريفها، ووقوفا على سرت وطرقها، ووصولا إلى ودان ونخيلها، وحصارا لطرابلس وفتحها، وأخيراً صبراته واستسلامها له، فيه إضعاف لقوته، وتشتيت لجهوده، وتحفيز للعدو لضربه، خاصة أن رجال مخابراته قد اخبروه بأن هناك تجمعات من الروم والقبائل المحلية بدأت تلتقط أنفاسها وترتب أمورها لمحاربته، فلما رأى ذلك أدرك أن التقدم دون استئذان الخليفة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- فيه نوع من التجاوزات العسكرية المقررة لفتح برقة وطرابلس لذلك كتب إليه، يستأذن في التوغل داخل إفريقية، وأن يمده بالمدد المناسب، وفق الأهداف الجديدة لفتح برقة ومن حولها.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

ولم يشأ عمرو أن يتقدم لقلة القوة التي معه، ولأنه يعلم أن مدنا كثيرة للروم والقبائل المحلية مازالت أمامه، كما أن عيونه أخبرته بكثرة تجمعاتهم في تلك المدن، ومن أجل ذلك وتنفيذا لما تقتضيه الخطط الحربية أراد أن يستأذن الخليفة عمر بن الخطاب في التقدم نحو إفريقية، طالبا منه المدد إذا ما وافق الخليفة على ذلك، فكتب له يقول: «إن الله قد فتح علينا طرابلس وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام، فإن رأي أمير المؤمنين أن يغزوها، ويفتحها الله على يديه فعل»[1].



(١) ليبيا منذ الفتح العربي، (ص ٣٦، ٣٧).

المبحث الرابع
حملة عمرو بن العاص
على مدينة شروس وعودته إلى مصر

لا يخفى أن مدينة شروس الواقعة في جبل نفوسة، والتي كانت تدين بدين النصارى، تعتبر قريبة جداً لمدينة صبراتة، لذا حاول عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أن يجتهد في فتح هذه المدينة، قبل وصول رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-، فتقدم إليها وما زال بها حتى فتحها، ولكن ما إن فتحها حتى جاءه رد خليفة المسلمين عمر بن الخطاب على رسالته بشأن الاستراتيجية العسكرية الخاصة بشئون إفريقية ينص فيها على عدم التوسع بالجيش في فتح هذه الأقاليم.

وهذا نص رسالة خليفة المسلمين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: «لا، أنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت»[1].

ولهذا السبب وغيره رجع عمرو بن العاص من جبل نفوسة وتوجه إلى طرابلس، وما إن أقام فيها حتى وصله كتاب المقوقس، يخبره فيه بأن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، وقد كان عمرو بن العاص قد أبرم عهدا مع المقوقس قبل خروجه من الإسكندرية متوجهاً إلى برقة، بألا يكتمه المقوقس أي أمر يحدث بعده.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«ولهذه الأسباب رجع عمرو بن العاص من نفوسة بكتاب عمر -رضي الله عنه-، أضف إلى ذلك أن عمرو بن العاص كان قد عقد عهدا بينه وبين المقوقس، قبل أن يغادر الإسكندرية، على ألا يكتمه المقوقس أمراً يحدث، وعندما وصل عمرو عائداً إلى إقليم طرابلس، أتاه كتاب المقوقس يذكر له فيه أن الروم يريدون نكث العهد، ونقض ما كان بينهم وبينه، فانصرف عمرو راجعا مبادرا لما أتاه الكتاب إلى مصر»[2].

وهكذا أنجز عمرو بن العاص هذا الفتح المبارك الذي تجاوز فتح الأراضي إلى فتح

(١) ليبيا منذ الفتح العربي (ص ٣٧).
(٢) المرجع السابق: (ص ٣٨).

القلوب التي آمنت بالله ربا، وبالإسلام ديناً ومنهجا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، فعاشت تلك الشعوب حياة العدل والمساواة والتسامح والإخاء في ظل الشريعة السمحاء على أيدي أولئك الفاتحين الذين يبتغون بذلك الفتح، وجه الله ورضوانه.

يقول الأستاذ سيد قطب-رحمه الله-بهذا الصدد:

«لقد كان الفتح الإسلامي فتحا فريدا في تاريخ البشرية كلها، لم تعرف له من قبل ولا من بعد نظيرا، لم يكن فتحا للأرض وكنوزها، إنما كان فتحا لقلوب ساكني الأرض، وغرس بذرة العدل، والتسامح والمساواة، والإخاء فيها، وأن أي إنسان مخلص للإنسانية، يعرف طبيعة الفتح الإسلامي، ويدرك أهدافه وبواعثه، ليتمنّى أن لو كان مد الإسلام الأول قد غمر الأرض جميعاً، وألقى البذرة الطيبة الخيِّرة.

إن الحروب الإسلامية والفتوحات ملحوظ فيها أنها تحقق إلى جانب حرية الدعوة وحرية العقيدة، العدالة المطلقة لجميع الناس، فإذا هي لم تحمل هذه المقدمات معها لأهلها وللبلاد المفتوحة كذلك، لم تكن حربا إسلامية ولا فتحا إسلاميا، ولم تر ثمرتها على ضم رقعة من الأرض إلى العالم الإسلامي، وزيادة رقعة الأرض لم تكن يوماً ذات قيمة في حساب الإسلام، إنما القيمة كلها لتحقيق النظام العادل الكامل، الذي يقوم على الشريعة الإسلامية المنبثقة من العقيدة الإسلامية، وهذا الذي كان يضيف إلى الإسلام شعوبا وقلوبا، وهذه هي غاية الفتح الإسلامي لا الأرض ولا الفيء، ولا الغنيمة، ولا الغلبة على البلاد والعباد»[1].

* * *

(١) راجع كتاب «دراسات إسلامية» لسيد قطب (٤٤-٤٦).

المبحث الخامس

فاتح ليبيـــا في ســـطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه ونسبه:

لقد تقدم فيما مضى أن قائدا فتح برقة وطرابلس، هو عمرو بن العاص السهمي القرشي، وكنيته أبو عبد الله، وأبو محمد [١]، وأمه سلمى بنت حرملة [٢]، وتلقب بالنابغة، وهي من عنزة [٣].

ميلاده:

وأما فيما يتعلق بميلاده، فإن الكتب التي ترجمت لعمرو -رضي الله عنه- فيما أعلم لم تنص على تحديد السنة التي ولد فيها، لكن روي البيهقي عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال: «أذكر ليلة ولد عمر بن الخطاب».

يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله بعد أن ذكر هذا الأثر: «فكان عمره لما ولد عمر -رضي الله عنه- سبع سنين» [٤].

إسلامه:

لقد أسلم عمرو في شهر صفر، سنة ثمان للهجرة، وكان إسلامه هو وخالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة -رضي الله عنهم-في وقت واحد [٥].

ولقد سئل عمرو ﷺ ن سبب تأخر إسلامه إلى هذا الوقت، فقال «إنا كنا مع قوم لهم علينا تقدم وسن، توازي حلومهم الجبال، وما سلكوا فجا فتبعناهم إلا وجدناه سهلاً، فلما أنكروا على النبي ﷺ أنكرنا معهم، ولم نفكر في أمرنا، وقلدناهم، فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا، نظرنا في النبي ﷺ فإذا الأمر بيِّن، فوقع في قلبي الإسلام» [٦].

---

(١) (٢) (٣) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ، للدكتور عبد الله الرشيد، (ص ٣، ٦) اعتمدت على هذا الكتاب في ترجمة عمرو بن العاص.

(٤) (٥) راجع المصدر السابق (ص ٦٢٥، ٢٢٦).

(٦) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ (ص ٦٢٥- ٦٢٦).

ولا يخفى أن قصة إسلامه وشدة حيائه من النبي ﷺ قد وردت في صحيح مسلم حيث قال عمرو ﷺ: «... لقد رأيتني وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ مني، ولا أحب أن أكون قد استمكنت منه فقتلته... فلما جعل الله الإسلام في قلبي وأتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: «مالك يا عمرو؟!» قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يغفر لي، قال: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»، وما كان أحد أحب إلي من رسول الله ﷺ ولا أجَلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه»[1].

المطلب الثاني

مناقبـــــه

لا يخفى أن له من المناقب الجليلة، والأخلاق النبيلة، والمواقف الحميدة، ما يجعل هذه السطور غير كافية لأداء حق هذا القائد الصحابي الجليل، ولكن يمكن أن نجمل هذه المناقب الجليلة والمواقف الحميدة في عدة نقاط:

١- ن الرسول ﷺ لم يعدل به أحداً من الصحابة، فقد جاء عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قوله: «ما عدل بي رسول الله ﷺ وبخالد أحداً منذ أسلمنا في حرب»[2].

٢- شهادة رسول الله ﷺ له بالإيمان: كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ابنا العاص مؤمنان، هشام، وعمرو»[3].

٣- شهادة رسول الله ﷺ له بأنه من صالحي قريش: فقد جاء عن أبي مليكة قال: قال طلحة بن عبيد الله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عمرو بن العاص من صالحي قريش»[4].

* * *

---

(١) رواه مسلم «كتاب الإيمان» باب كون الإسلام يهدم ما كان قبله، وكذا الهجرة والحج (١/ ١١٢) رقم (١٢١).

(٢) وهذا الحديث أخرجه البيهقي، باب إسلام عمرو بن العاص (٤/ ٤٣).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٢٧، ٣٥٣)، والحاكم في كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب هشام ابن العاص، المستدرك على الصحيحين (٣/ ٢٤٠) وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم.

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب عمرو بن العاص رقم (٣٨٤٤).

المبحث السادس

أهم صفاته القياديـــة

المطلب الأول

الشـــجاعة

من الصفات التي كان يتمتع بها عمرو الشجاعة، فقد كان جريئا مقداما ذا شخصية جبارة، لا يهاب خوض غمار الحرب، ولا يخشى الموت، ومن المواقف التي برزت فيها هذه الصفة: ما حدث في معركة اليرموك، حين اشتد القتال بين الروم والمسلمين، حيث أصاب الروم أعين سبعمائة من المسلمين مما اضطرهم إلى الفرار من الميدان، فرأى عمرو أن الموقف يحتاج إلى ثبات فبقي في مكانه ومعه أصحاب الرايات وقاتلوا الروم ببسالة وقوة حتى انتصر عليهم، ومن هذا يتبين أثر تحلي القائد بهذه الصفة في كسب النصر.

المطلب الثاني

الرأي السديد والعقل الراجح

كان عمرو ﷺ ذا رأي وعقل راجح، فهو معدود من دهاة العرب المقدمين في الرأي، ومما يدل على سداد رأيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استضعف رجلاً في رأيه قال: «أشهد أن خالقك وخالق عمرو واحد» يريد خالق الأضداد.

وقد وقع الإجماع على أنه أحد دهاة العرب، وفي ذلك يقول الثعالبي رحمه الله: «ووقع الإجماع على أن الدهاة أربعة: معاوية، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد ابن أبيه رضي الله عنهم».

ولرجاحة عقله ﷺ بعثته قريش إلى الحبشة للتفاوض مع النجاشي بشأن رد المهاجرين إلى مكة.

المطلب الثالث

بُعد النظـــر

كان عمرو ﷺ، يتمتع بصفة بعد النظر، فهو يقدر كل الاحتمالات ويفترض أن أصعبها يمكن أن يقع، ولهذا كان يأخذ بمبدأ الحيطة، ويشهد على ذلك أنه حين فزع أهل

المدينة لبس سلاحه، وقصد المسجد، بينما تفرق الناس.

عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كان فزع بالمدينة، فأتيت على سالم مولى أبي حذيفة، وهو محتب بحمائل سيفه، فأخذت سيفا فاحتبيت بحمائله، فقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس، ألا كان فزعكم إلى الله وإلى رسوله؟»، ثم قال: «ألا فعلتم كما فعل هذان الرجلان المؤمنان» [(١)].

المطلب الرابع

القدرة على جمع المعلومات

يُعد جمع المعلومات عن العدو من الأمور الضرورية لتقدير الموقف العسكري، ووضع الخطة المناسبة له، ولهذا كان عمرو رضي الله عنه، يحرص على جمع المعلومات عن عدوه، وعن طبيعة الأرض التي سيقاتل فيها.

ومن الأمثلة على ذلك: ما حدث في غزوة ذات السلاسل، حيث استعان بأخواله من «بلى» في إمداده بالمعلومات الضرورية عن أعدائه، مما كان سبباً في انتصاره عليهم.

ولما كان الاستطلاع أمراً ضروريا لوضع صورة القائد عن عدوه، وسلاحه، وخططه العسكرية وحلفائه، فإن عمراً كان يقدر قيمة هذا الأمر حق قدره سواء كان ذلك باستطلاعه الشخصي أو بإرسال العيون والأرصاد، ومن الأمثلة على اهتمامه بالاستطلاع الشخصي ما قام به رضي الله عنه من استكشاف مقر قائد الروم «أرطبون» حيث اطلع على مواطن الضعف في مواقع جيش الروم.

المطلب الخامس

الماضي الناصع المجيد

من الصفات القيادية التي توافرت لعمرو ﷺ، الماضي المجيد، فهو من بني سهم، وهذا البطن في قريش انتهى إليهم الشرف في الجاهلية، حيث كانت لهم السيادة والسلطان في مكة.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ٢٠٣)، والنسائي بسند حسن، انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣).

وقد اختص بنو سهم من بين بطون قريش الأخرى، بأنهم كانوا أصحاب الحكومة، وهي: أشبه ما تكون بالقضاء، وفض المنازعات في المسائل الدقيقة، حيث كان يحتكم القرشيون وغيرهم من العرب إلى زعماء بني سهم، الذين اشتهروا بسداد الرأي، والحلم، والدهاء، والحزم.

إن لبنى سهم أيضاً الرئاسة على الأمور الخاصة بآلهتهم، وهي قريبة الشبه في عصرنا بالأوقاف العامة، وكان الشأن في ذلك: أن يقوم صاحب هذه الوظيفة بالتصرف في هذه الأموال وفق القواعد التي جروا عليها في العمل بأموال أوثانهم.

وأما أبوه العاص بن وائل بن هشام، فقد كان من أشراف قريش، وذوي الجاه فيهم، ومن أبرز الأدلة على ذلك، أن عمر بن الخطاب لما أسلم وثَبَتْ عليه قريش حتى أيقن بالهلاك، وبينما هم قائمون على رأسه، إذ أقبل العاص بن وائل فقال لهم: حلوا عن الرجل، أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبكم؟ وعندئذ انفض المشركون عن عمر.

كما كان عمرو نفسه من ذوي الشرف في الجاهلية، وممن عرفوا بسداد الرأي والحزم، فقد حاز الشرف من جميع جوانبه، فهو ذو نسب شريف، كما تربى في بيت شريف هو بيت العاص بن وائل، وعاش في بلد شريف هو مكة المكرمة.

المطلب السادس

اتخاذ القرارات الصحيحة وتنفيذها في الوقت المناسب

من الصفات القيادية التي كان يتحلى بها عمرو رضي الله عنه اتخاذ القرارات الصحيحة، فقد كان يعمل على اتخاذ قراراته، ثم يقوم بعد ذلك بتنفيذها بدقة كاملة، حتى تؤدي الغرض منها، ومن الأمثلة على ذلك: ما رآه عمرو من ضرورة اجتماع المسلمين في اليرموك، إذ إن هذا القرار يحقق مصلحة كبيرة في هذا الظرف الحاسم، وهو وحدة المسلمين وإظهار هيبتهم أمام عدوهم حتى لا يطمع فيهم، كما أنه يدفع مفسدة عظيمة وهي تفرق الجيوش الذي هو مظنة الفشل والخذلان، مما يغري أعداءهم بالهجوم عليهم، وبذلك تحيق بهم الهزيمة.

وقد كان عمرو رضي الله عنه يعتمد في ذلك على أسس اتخاذ القرارات ابتداء من الاستطلاع، وجمع المعلومات، وتقدير الموقف، وحساب ميزان القوى، ووضع جميع العوامل الضرورية في الحسبان، مثل الطبيعة الجغرافية، والأهمية الاستراتيجية للموقع والطبيعة البشرية، سواء كانت في جانب جنده، أو لدى جنود أعدائه، حتى ينتهي بإصدار القرار المناسب في وقته (١).

* * *

(١) راجع هذه الصفات، كتاب القيادة العسكرية (٦٢٧، ٦٢٨، ٦٣٢).

المبحث السابع
قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية

فإذا كانت تلك صفات شخصية عمرو القائد المحنك البارع، فما هي أسس استراتيجيته الحربية التي طبقها في تلك الفتوحات الإسلامية؟

المطلب الأول
الحرص على تطوير القدرة الحركية

لما وصل عمرو رضي الله عنه إلى مصر، حرص على تطوير القدرة الحركية لجيشه، وذلك بالاستيلاء على السفن الموجودة في جزيرة «الروضة» لاستخدامها في نقل قواته، كما أن استخدامه لمنطقة غرب النيل، كان وسيلة لضمان استخدام القدرة الحركية لقوات المسلمين على أفضل وجه.

ثم إن إصراره على هدم أسوار الإسكندرية، لم يكن وسيلة لإزالة كل ما يعيق من استخدام القدرة الحركية، وكان اهتمام عمرو بالشئون الإدارية، والتنظيمية، والاقتصادية وغيرها، إنما هو من أجل القدرة الحركية وتوفير الظروف المناسبة لاستخدامها على أفضل وجه ممكن.

ومما سبق يتبين: أن هذا المبدأ لدى عمرو رضي الله عنه يقوم على ركيزتين أساسيتين هما:

الركيزة الأولى: إزالة السدود والحواجز التي يمكن أن تعيق القدرة الحركية.

الركيزة الثانية: اختيار محاور العمليات التي تساعد المسلمين على تطبيق هذا المبدأ.

المطلب الثاني
الشدة على أعداء المسلمين

عندما قام عمرو بفتح الإسكندرية الثاني (سنة ٢٥ هـ) غدر أهل قرية تسمى (خربة)، ولما وصل عمرو إلى الإسكندرية وفتحها، وجَّه مولاه ويسمى «وردان» فقتلهم وخرب قريتهم، وتسمى الآن: «خربة وردان».

من هذا الموقف: نستنتج أن شدة عمرو وصلابته تزداد عندما يتعرض المسلمون للغدر، وذلك لكي يردع الأعداء عن التمادي في ارتكاب مثل هذا الخلق الذميم، وحتى يحفظ للمسلمين هيبتهم ويضمن لهم الأمن والسلامة، وبعد أن فتح عمرو الإسكندرية وضع السيف في رقاب الروم الذين كانوا بها، ثم كلموه في ذلك فرفع السيف عنهم، وبني في ذلك الموضع مسجدًا يعرف بمسجد الرحمة في الإسكندرية.

ومن هذا الموقف: ينبغي أن يُعلم أن عمراً رضي الله عنه، كان يترك في مثل تلك الظروف القاسية التي تدعو إلى الشدة والصلابة مجالاً للرحمة والشفقة، فعندما يأتيه من يطلب الرحمة فإنه يستجيب له، لأنه كان ينطلق من منطلق البناء والإصلاح، لا بالحقد أو حب الانتقام.

وقد كان عمرو رضي الله عنه صلباً عند خوض القتال، ففي بلبيس-مثلاً قام بتصفية قوات العدو وإبادتها كاملة، ومن الجدير بالذكر أن استعمال الشدة لدى عمرو رضي الله عنه في المجتمع الجديد إنما هو مجرد وسيلة وليس غاية في حد ذاته، لمتطلبات البناء السلمي الذي يفتقر إلى الاستقرار والهدوء.

المطلب الثالث

ادخار القوى

لقد كانت قوات المسلمين في جميع الحروب التي خاضوها أقل من قوات أعدائهم، ولهذا فكر القادة العسكريون اقتداء بالرسول القائد ﷺ في إيجاد البديل الذي يعوض عن هذا النقص في العدد والمعدات، فطبقوا مبدأ ادخار القوى.

ومن هؤلاء القادة: عمرو بن العاص رضي الله عنه فقد كان يحسن تطبيق هذا المبدأ كلما دعته الضرورة إليه، ومن الأمثلة على ذلك: أن عمراً رضي الله عنه عندما أراد فتح أجنادين وجد أن «أرطبون» الروم قد وضع قوتين لهما شأنهما في كل من «إيلياء» و«الرملة» ففصل عمرو جيشه إلى قوتين صغيرتين، وعين على كل وحدة منهما قائدا، وأمرهما بمنع أي تحرك لقوات الروم إلى «أجنادين»، أما القوة الرئيسية فإنه جعل مهمتها مقاتلة جيش الروم، وبهذا الأسلوب تحقق لعمرو النصر على أعدائه الرومان.

المطلب الرابع
خفة الحركة

كان عمرو رضي الله عنه يؤمن بمبدأ خفة الحركة، ويحسن تطبيقه في الوقت المناسب، ومن الأمثلة على ذلك: أن عمراً رضي الله عنه عندما احتل «طرابلس»، أمر قواته بالتوجه إلى صبراتة -ليلا- فتحركت القوات بقيادة عبد الله بن الزبير فدخلها صباحاً، واستسلم أهل المدينة دون قتال، وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم: «كان من بسرت متحصنين... فلما بلغهم محاصرة عمرو مدينة طرابلس، وأنه لم يصنع فيهم شيئاً، ولا طاقة لهم به آمنوا، ولما ظفر عمرو بن العاص بمدينة طرابلس جرد خيلا كثيفة من ليلته وأمرهم بسرعة السير فصبحت خيله مدينة «سرت»، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم، فدخلوها فلم ينج منهم أحد، واحتوى جند عمرو على ما فيها ورجعوا إلى عمرو»[1].

* * *

(١) القيادة العسكرية: (ص ٦٣٤).

المبحث الثامن
أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول ﷺ

لقد قام عمرو رضي الله عنه بأعمال جليلة في عهد الرسول ﷺ، وكان من أهم هذه الأعمال، الأعمال الآتية:

١- قيادة سرية ذات السلاسل لصد هجوم قضاعة على المدينة.

٢- هدم سواع بعد فتح مكة.

٣- دعوة ابني الجلندي «جيفر، وعباد» إلى الإسلام، وقد ذهب عمرو رضي الله عنه إلى عمان ودعاهما إلى الإسلام وصدَّقا بالنبي ﷺ، وخليا بين عمرو وبين الصدقة والحكم فيما بين قومهم وكانا له عونا على من خالفه [١].

المطلب الأول
أعماله في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما

عقد أبو بكر الصديق لعمرو بن العاص رضي الله عنه لواء الجهاد ووجهه لحرب قضاعة حيث ارتدت عن الإسلام، ثم وجهه أبو بكر رضي الله عنه بعد ذلك إلى فلسطين، وأمره بنجدة أبي عبيدة بن الجراح ومشاورته.

وفي معركة اليرموك كان عمرو رضي الله عنه على الميمنة، وكان لمشاركته أثر كبير في انتصار المسلمين، كما كان لعمرو رضي الله عنه مشاركة فعالة في حركة الفتح الإسلامي بالشام، فقد قام بمشاركة شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان، وسبرذجة، وأجنادين [٢].

كما قام رضي الله عنه بفتح غزة، وسَبَسْطية، ونابلس، واللُّد، ويُبْنَي، وعَمْواس، وبيت جبريل، ويافا، ورفح، وبيت المقدس، ولم يقتصر عمرو رضي الله عنه على فتح بلاد الشام وحدها، بل شمل أيضاً بعض مشاهير بلاد مصر، حيث كان عمر بن الخطاب

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد، (١ / ٢٦٢)، جوامع السيرة لابن حزم، (ص ٢٣، ٢٩).
(٢) انظر: «تاريخ الطبري» (٣ / ٦٠٥)، و «الكامل» لابن الأثير (٢ / ٤٩٨).

رضي الله عنه قد أصدر أمره إلى عمرو رضي الله عنه بعد الفراغ من فتوح الشام أن يسير بمن معه من الجند إلى مصر، فخرج رضي الله عنه حتى وصل إلى العريش ففتحها.

كما شملت حركة الفتح أيضاً: الفرما، والفسطاط، وحصن بابليون، وعين شمس، والفيوم، والأشمونين، وأخميم، والبشرود، وتنيس، ودمياط، وتونة، ودميرة، وشطا، ودقهلية، وبنا، وبصير، والإسكندرية، وبلادا إفريقية أخرى مثل: برقة وزويلة وطرابلس[1].

المطلب الثاني

عمرو رجل الآخرة

إن مما يجب التنويه به في هذا المقام، أن حرص عمرو رضي الله عنه على تولي القيادة العسكرية وغيرها من الولايات، إنما كان يدفعه إليه الإخلاص للإسلام والمسلمين، والرغبة في ثواب الله تعالى، ويدل على ذلك الأمر ما يأتي:

أولاً: شهادة الرسول ﷺ له بالإيمان.

ثانيًا: جوابه للرسول ﷺ لما دعاه إلى الاستعداد لغزوة ذات السلاسل، فعن موسى بن علي عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعث إليَّ رسول الله ﷺ، فقال: «خذ عليك ثيابك وسلاحك ثم ائتني» فأتيته وهو يتوضأ فصعد فيَّ النظر ثم طأطأه فقال: «إني أريد أبعثك على جيش فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة» قال: قلت: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ فقال: «يا عمرو نعم المال الصالح للرجل الصالح»[2].

ثالثًا: بكاؤه عند موته وخوفه من الله في تلك الولايات التي صارت إليه، وقد ورد في صحيح مسلم ما يدل على ذلك في حديث طويل عن ابن شماسة المهري، قال: «حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياق الموت، فبكى طويلاً وحول وجهه إلى الجدار...وفيه قال: ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي بها»[3].

---

(١) القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ (٦٣٤-٦٤٢).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٩٧، ٢٠٢) وأخرجه الحاكم في كتاب البيوع، باب لا بأس بالغنى لمن اتقى ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب كون الإسلام يهدم ما قبله، وهكذا الهجرة والحج، (١ / ١١٢). رقم (١٢١).

ولقد ثبت أنه كان يدعو في آخر حياته بهذا الدعاء:

«اللهم إنك أمرتنا فأضعنا، ونهيتنا فارتكبنا، فلا برئ فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، ولكن لا إله إلا أنت، ومازال يقولها حتى مات»[1].

ففي هذه البراهين الساطعة قطع لألسنة المتقولة، الذين يتهمون عمراً بأنه إنما آمن طمعاً في المال أو حبا للرياسة، وقد زيف الروافض في سيرة عمرو بن العاص ونسبوا إليه روايات ظلماً وزورا، ومن ذاك قصة التحكيم التي فندها الإمام أبو بكر ابن العربي في كتابه النافع «العواصم من القواصم» ففند قاصمة التحكيم.

فقال في كتابه القيم: «وقد تحكم الناس في التحكيم فقالوا فيه ما لا يرضى الله، وإذا لاحظتموه في الكتب الأكثر عدم الدين، وفي الأقل جهل بين، والذي يصح من ذلك ما روي الأئمة الثقات كخليفة بن خياط والدارقطني، أنه لما خرجت الطائفة العراقية في مائة ألف، والشامية في سبعين أو تسعين ألفاً، ونزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا أول يوم وهو الثلاثاء على الماء فغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة سبع وثلاثين، ويوم الجمعة وليلة السبت، ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعوا إلى الصلح وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل، أبو موسى من جهة على رضي الله عنه ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وكان موسى رجلاً تقيا عالماً أرسله النبي ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم، وزعمت الطائفة التاريخية الركيكة أنه كان أبله، ضعيف الرأي، مخدوعا في القول، وأن عمراً كان ذا دهاء وأرب حتى ضربت الأمثال بدهائه تأكيداً لما أرادت من الفساد، وتبع ذلك بعض الجهال بغضاً وصنفوا فيه حكايات.

وإنما بنوا ذلك على أن عمراً غدر بأبي موسى في قصة التحكيم، فصار له الذكر في الدهاء، والمكر، وقالوا: إنهما لما اجتمعا بأذرع من دومة الجندل تفاوضا؛ اتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبي موسى: اسبق بالقول فتقدم فقال: إني نظرت فخلعت عليا من الأمر، ولينظر المسلمون لأنفسهم كما خلعت سيفي هذا من عاتقي، وقال

(١) سير أعلام النبلاء (٣ / ٧٦).

عمرو: إني نظرت فأثبت معاوية على الأمر، كما أثبت سيفي هذا في عاتقي وتقلده، فأنكره أبو موسى فقال عمرو: كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك الاختلاف.

ورد القاضي أبو بكر بن العربي عليه هذه الرواية، وذكر عاصمة من تلك القاصمة، فقال: هذا كله كذب صراح ما جرى منه حرف قط، وإنما شيء اخترعته المبتدعة، ووضعته التاريخية، فتوارثه أهل المجانة والجهارة بمعاصي الله»[1].

نقد الرواية الباطلة في قضية التحكيم والتي طعن من خلالها عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري رضي الله عنهما:

ولما لحادثة التحكيم من أهمية في التاريخ السياسي للدولة الإسلامية، فإنه من الضروري إجلاء حقيقة وقائعها، حيث أسيء تصور هذا الحادث، بقدر ما أسيء تفسيره فنتج عن الأمرين خلط كثير وإساءة إلى مكانة الصحابة وقدرهم، حيث باتت القصة الشائعة بين الناس عن حادث التحكيم تتهم بعضهم بالخداع والغفلة، وتتهم آخرين بالصراع حول السلطة، وبإخضاع هذه الرواية للنقد والتحليل يلاحظ عليها أمران: ضعف سندها واضطراب متنها، وأما سندها ففيه راويان متهمان في عدالتهما هما: أبو مخنف لوط بن يحيى، وأبو جنان الكلبي.

الأول: ضعيف ليس بثقة «أبو مخنف لوط بن يحيى».

قال فيه الإمام أبو حاتم: متروك، وقال فيه الدارقطني: ضعيف، وقال فيه ابن معين: ليس بثقة، وقال فيه ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم، وقال فيه الذهبي: إخباري تالف لا يوثق به[2].

أما الثاني: أبو جنان الكلبي: قال فيه ابن سعد: كان ضعيفاً[3]، وقال البخاري وأبو حاتم: كان يحيى القطان يضعفه، وقال عثمان الدارمي: ضعيف، وقال النسائي: ضعيف[4].

---

(١) انظر: العواصم من القواصم، لأبي بكر ابن العربي المالكي (١٧٥-١٧٩).

(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، محمد أمحزون (٢ / ٢٥٣).

(٣) ابن سعد في «الطبقات» (٦ / ٣٦٠).

(٤) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٥٣).

يكفي أن في الرواية المذكورة وجود شيعي محترف طعن في عدالته أهل الجرح والتعديل، وهذا من ناحية السند، أما من ناحية المتن فهناك أمور عدة تبطل الرواية. والذي يهمنا في هذا المبحث أن القول بأن أبا موسى الأشعري كان في قضية التحكيم ضحية خديعة عمرو بن العاص، ينافي الحقائق التاريخية الثابتة عن فضله وفطنته وفقهه ودينه، التي تثبت له بتوليه بعض أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول ﷺ؛ فقد استعمله النبي ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البصرة، وبقي واليا عليها إلى مقتل عمر، وكذلك استعمله عثمان بن عفان على الكوفة وبقي واليا عليها إلى أن قتل.

إن مما يؤكد عدم صحة الرواية المذكورة عن قضية التحكيم أن العلماء انتقدوها ورووا خلافها في كتبهم، فقد أخرج الدارقطني عن حصين بن المنذر أنه جاء فضرب فسطاطه قريباً من فسطاط معاوية، فبلغ نبؤه معاوية، فأرسل إليه فقال: «إنه بلغني عن هذا-عمرو بن العاص-الذي بلغني عنه فأتيته فقلت له: أخبرني عن الأمر الذي وليت أنت وأبو موسى كيف صنعتما فيه؟ قال: قد قال الناس في ذلك ما قالوا، والله ما كان من الأمر على ما قالوا، ولكن قلت لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنه في النفر الذين توفى رسول الله ﷺ وهو راض عنهم، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يستعن بكما ففيكما معونة، وإن يستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما» [١].

وليس من شك في أمر الخلاف الذي رأى الحكمان رده إلى الأمة أو إلى أهل الشورى ليس إلا الخلاف بين علي ومعاوية حول قتلة عثمان، وهو ما أطبقت على ذكره المصادر الإسلامية [٢].

إن سهام الروافض المسمومة وآراءهم المحمومة وجهت للطعن في عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، وغيرهما من الصحابة وحرص المستشرقون على نشر الروايات المطعونة سندا ومتنا، وروج لها أذنابهم من أهل الفكر الغربي والعلماني.

---

(١) العواصم من القواصم، لأبي بكر المالكي (ص ١٧٨).
(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٣٣).

الحجة في عدالة الصحابيين الجليلين:

إن الصحابي الجليل أبا موسى الأشعري تولى أعمال الحكم والقضاء في الدولة الإسلامية منذ عهد رسول الله ﷺ على زبيد وعدن، واستعمله عمر على البصرة، وبقي واليا عليها إلى أن قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأقره عثمان على البصرة، ثم على الكوفة، وبقي واليا عليها إلى أن قتل عثمان، فأقره علي رضي الله عنه. فهل يتصور أن يثق رسول الله ﷺ ثم خلفاؤه من بعده برجل يمكن أن تجوز عليه مثل الخدعة التي ترويها قصة التحكيم؟ هذا وقد شهد الصحابة وكثير من علماء التابعين لأبي موسى رضي الله عنه بالرسوخ في العلم، والكفاءة في الحكم، والفطنة، والكياسة في القضاء، فهذه شهادة عمر عن أنس قال: «بعثني الأشعري إلى عمر، فقال لي: كيف تركت الأشعري؟ قلت: تركته يعلم الناس بالقرآن، فقال: أما إنه كيس ولا تسمعها إياه»[(١)].

وقال الشعبي: كتب عمر في وصيته: «ألا يقر عامل أكثر من سنة، وأقروا الأشعري أربع سنين»[(٢)].

وقد ثبت عن أبي موسى أيضاً أنه كان ممن حفظ القرآن كله على عهد الرسول ﷺ وكان من المشهورين بتعليمه للناس، فإذا علم أن مدار حياة الناس في ذلك العهد-في سلمهم وحربهم-كان على فقه القرآن والسنة، وعلمت مكانة أبي موسى من ذلك حتى خصه عمر بن الخطاب بكتابه المشهور في القضاء وسياسة الحكم[(٣)] فكيف يتصور غفلته إلى هذا الحد؟! فلا يفقه حقيقة النزاع الذي كلف بالحكم فيه، وصدر فيه قرار لا محل له، وهو قرار عزل الخليفة الشرعي بدون مبرر يسوغ هذا العزل، وقرار عزل معاوية المزعوم ثم يقع منه ومن عمرو بن العاص ما نسب إليهما من السب والشتم، وهو أمر يتعارض مع ما عرف وتواتر عن الصحابة رضي الله عنهم من حسن الخلق وأدب الحديث بينهم، ثم أن يخطئ الحكم في القضية التي أوكل إليه العرب في أمرها، ويرون ذلك أيضاً هو شأن عمرو بن العاص الذي يعتبر من أذكياء العرب وحكمائهم، وقد أمره رسول الله ﷺ أن

(١) ابن سعد، الطبقات (٤ / ١٠٨).
(٢) انظر: تحقيق مواقف الصحابة في الفتن (٢ / ٢٢٧).
(٣) المرجع السابق (٢ / ٢٢٩).

يقضي بين خصمين في حضرته، وبشره حيث سأله: يا رسول الله، أقضي وأنت حاضر؟ بأن له إن أصاب أجرين، وإن أخطأ له أجر واحد حيث قال: «إذ حكم الحاكم ثم أصاب له أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد» [1].

إن قبول تلك الرواية الرافضية الكاذبة طعن في ورع وتقوى ونزاهة الصحابي الجليل عمرو بن العاص الذي بينت الأحاديث فضله وعمق إيمانه.

إن التاريخ الإسلامي أصبح غرضا ومرمى لسهام أعداء الإسلام على مختلف مذاهبهم وعقائدهم، ويحاولون أن يوجدوا فجوة بين الإسلام وتاريخه الزاهر حتى يتسنى لهم عزل النشئ عن الإسلام وشريعته وتراثه العلمي، ولذلك يبذلون قصارى جهدهم لنفث السموم في المجتمع الإسلامي.

لقد حاول المستشرقون ومن قبلهم الروافض أن ينشروا كل رواية باطلة تنقص من شأن الصحابة الكرام، وتطعن في تاريخ الأمة المجيد، وتصور تاريخهم بأنه صراع على السلطة والسيادة والنفوذ.

ولذلك يجب الحذر من كل رافضي كاذب ومستشرق عربيد وعلماني فاجر وكل من سار على نهجهم، ولابد من الدفاع المستميت عن تاريخنا الخالد والهجوم الشجاع على أوكار الكذابين، ويكون هذا الهجوم المبارك بقذائف الحق العلمية المملوءة بالحقائق الساطعة والأدلة والبراهين الدامغة.

* * *

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام (٨ / ١٥٧) رقم (٧٣٥٢)، ومسلم رقم (١٧١٦).

الفصل الثالث

تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة

لقد كان من مقاصد حملة عمرو بن العاص رضي الله عنه لبرقة وطرابلس وبقية مناطق ليبيا، فتح البلاد، وإزالة الطاغوت الروماني عن قلوب العباد، حتى تتضح لهم السبل، وتتفرق لهم الطرق، وتصبح لهم حرية الاختيار: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وبعد ذلك: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُر﴾ [الكهف: ٢٩].

ثم كان بعد ذلك الحملة المباركة التي كانت سبباً في دخول ذلك النور إلى تلك المناطق المظلمة بعبادة الأصنام والتقرب إليها بالقرابين، واتخاذ الأنداد والأرباب من البشر من دونه سبحانه وتعالى، وإخراجهم من عبادة العباد، إلى عبادة رب العباد.

* * *

المبحث الأول
حملة عبد الله بن سعد على إفريقية

لقد تقرر في كتب التاريخ أن عمرو بن العاص رضي الله عنه لما فتح ليبيا بداية ببرقة وانتهاء بطرابلس وصبراتة، رجع بعد ذلك إلى مصر، حيث كانت ولايته، ولما تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه خلافة المسلمين عزله عن ولاية مصر، وعقدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته الشامية والمصرية.

يقول الأستاذ محمود شيت: «كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر،كان عبد الله قائدا للميمنة منذ توجه من «قيسارية» إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر، وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته وفي حربه هناك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيا ويمده بالجنود فيعود من غزواته غانما» [(١)].

يقول الدكتور صالح مصطفى: «وفي (سنة ٢٦هـ / ٦٤٦م) عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه عن ولاية مصر واستعمل عليها عبد الله بن سعد رضي الله عنه، وكان عبد الله بن سعد يبعث جرائد الخيل، كما كانوا يفعلون في أيام عمرو بن العاص فيصيبون من أطراف إفريقية ويغنمون» [(٢)].

ويبدو لي أن جرائد الخيل هذه لم تكن داخلة ضمن الأهداف العامة للحملة التعليمية لترسيخ مبادئ وأسس الدين الحنيف عند أهالي برقة وطرابلس، ولكن هذه الجرائد كانت تقصد إفريقية-تونس-تمهيدا لفتحها ومعرفة وضعها، فكان حال هذه الجرائد أشبه ما يكون بكتائب الاستطلاع التي تعتبر مقدمة الجيش وعيونه، فلما اجتمعت عند عبد الله بن سعد معلومات كافية عن إفريقية، من ناحية مداخلها ومخارجها، وقوتها وعددها،وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، كتب حينئذ إلى خليفة المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه يخبره بهذه المعلومات المهمة عن إفريقية، ويستأذن بناء على تلك المعلومات

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٥٤).
(٢) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية (٣٩).

بفتحها، فكان له ما طلب.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «ولما أستأذن عبد الله بن سعد الخليفة عثمان بن عفان في غزو إفريقية، جمع الصحابة واستشارهم في ذلك، فأشاروا عليه ففتحها، إلا أبا الأعور سعيد بن زيد، الذي خالفه متمسكا برأي عمر بن الخطاب في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

ولما أجمع الصحابة على ذلك، دعا عثمان للجهاد، واستعدت المدينة عاصمة الخلافة الإسلامية لجمع المتطوعين وتجهيزهم وترحيلهم إلى مصر، لغزو إفريقية تحت قيادة عبد الله بن سعد، وقد ظهر الاهتمام بأمر تلك الغزوة جلياً، فهذا يتضح من الذين خرجوا إليها من كبار الصحابة، ومن خير شباب آل البيت، وأبناء المهاجرين الأوائل، وكذلك الأنصار فقد خرج في تلك الغزوة، الحسن والحسين، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وابن جعفر، وغيرهم.

هذا وقد خرج من قبيلة مهرة وحدها في غزوة عبد الله بن سعد ستمائة رجل، ومن غيث سبعمائة رجل، ومن ميدعان سبعمائة رجل، وعندما بات الاستعداد تاماً خطب عثمان فيهم، ورغبهم في الجهاد، وقال لهم: «لقد استعملت عليكم الحارث بن الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد فيكون الأمر إليه، وأستودعكم الله» ويقال: إن عثمان رضي الله عنه قد أعان هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس.

وعندما وصل هذا الجيش إلى مصر، انضم إلى جيش عبد الله بن سعد، وتقدم من الفسطاط تحت قيادة عبد الله ذلك الجيش الذي يقدر بعشرين ألفاً يخترق الحدود المصرية الليبية، وعندما وصلوا إلى برقة انضم إليهم عقبة بن نافع الفهري، ومن معه من المسلمين، ولم يواجه الجيش الإسلامي أية صعوبة أثناء سيرهم في برقة، وذلك لأنها ظلت وفية لما عاهدت المسلمين عليه من شروط زمن عمرو بن العاص، حتى إنه لم يكن دخلها جابي خراج، وإنما كانت تبعث بخراجها إلى مصر في الوقت المناسب، مما يؤكد بقاء برقة على عهدها لعمرو بن العاص، وقد ذكر أنه سُمع يقول: «قعدت مقعدي هذا، وما لأحد من قبط مصر عليَّ عهد إلا أهل أنطابلس، فإن لهم عهدا يوفي لهم به» كما أن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يقول: «لولا مالي

بالحجاز لنزلت برقة، فما أعلم منزلاً أسلم، ولا أعزل منها»[١].

وهكذا أعدّ السير بهذه الحملة المباركة نحو إفريقية وكان ذلك بعد انضمام قوات عقبة بن نافع إليها، إلا أن سعدا قائد الحملة ما فتئ يرسل الطلائع والعيون في جميع الاتجاهات لاستشكاف الطرق وتأمينها ورصد تحركات العدو وضبطها، تحسبا لأي كمين، أو مباغتة تطرأ على حين غفلة، فكان من نتائج تلك الطلائع الاستطلاعية أن تم رصد مجموعات من السفن الحربية للامبراطورية الرومانية، حيث كانت هذه السفن الحربية قد رست في ساحل ليبيا البحري بالقرب من مدينة طرابلس، فما هي إلا برهة من الزمن حتى كان ما تحمله هذه السفن غنيمة للمسلمين، وقد أسروا أكثر من مائة من أصحابها، وتعتبر هذه أول غنيمة ذات قيمة أصابها المسلمون في طريقهم لفتح إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى بهذا الصدد: «وبعد انضمام عقبة بن نافع إلى هذا الجيش اتجه صوب إفريقية، وكان عبد الله بن سعد يرسل الطلائع في كل الاتجاهات الضرورية لاستطلاع أحوال المناطق المختلفة، وكانت هذه الطلائع تعود إلى القائد بالأخبار جالبة معها البقر والشياه وعلف الدواب، ولما دنا الجيش من طرابلس تقدمته إليها إحدى تلك الطلائع التي كان يرسلها عبد الله بن سعد، فوجد أفرادها مراكب للروم راسية على الساحل، فحملوا عليها وغنموا ما فيها وأسروا مائة من أصحابها، غير أنهم لم يتعرضوا للأهالي بشيء، وذلك لأنهم تحصنوا داخل مدينتهم، وكانت هذه أول غنيمة أصابها المسلمون، وكانت هذه المراكب قد وصلت إلى طرابلس، إما للتجارة أو لتعزيز من كان لها من الروم، إلا أن طليعة الجيش الإسلامي حالت دون تحقيق أحد الهدفين، ولم يتحصن أهل طرابلس بها امتناعا على ذلك الجيش، وإنما أخافتهم حادثة المراكب، فالتزموا بيوتهم خشية أن يأخذهم عبد الله بن سعد بتهمة التواطؤ مع السفن الرومية»[٢].

بيد أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه اكتفى من أهالي مدينة طرابلس بذلك الموقف السلبي حيال تلك السفن الرومانية، حيث التزموا بيوتهم ولم يتفاعلوا مع ذلك الحدث، لذلك جد السير به إلى إفريقية، وبث طلائعه وعيونه في كل ناحية، حتى وصل

---

(١) ليبيا من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة: (ص ٤٥).
(٢) المرجع السابق: (ص ٢٣).

جيشه إلى مدينة سبيطلة بأمان، وهناك التقى الجمعان، جيش المسلمين بقيادة عبد الله بن سعد، وجيش جرجير حاكم إفريقية، وكان تعداد جيشه يبلغ حوالي مائة وعشرين ألفاً، وكان بين القائدين اتصالات مستمرة، ورسائل متبادلة، فحواها عرض الدعوة الإسلامية على جرجير ودعوته للدخول في الإسلام، ويستسلم لأمر الله سبحانه، أو أن يدفع الجزية، ويبقى على دينه خاضعا لسيادة الإسلام، ولكن كل تلك العروض رفضها وأصر واستكبر هو وجنوده! فلما كان ذلك، وضاق الأمر بالمسلمين فكر القائد عبد الله بن سعد، وقال لجنوده! أيها الناس عليكم بقتال من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، عليكم بقتال هؤلاء، فنشبت المعركة بين الجمعين، وحمي الوطيس بينهما لعدة أيام، حتى وصل مدد بقيادة عبد الله بن الزبير، وكانت نهاية هذا المستكبر الطاغي جرجير على يديه.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «وصل جيش المسلمين إلى مدينة سبيطلة، وفي هذا المكان التقى جيش عبد الله بن سعد، مع جيش جرجير الذي بلغ مائة وعشرين ألفاً، وتبودلت الرسائل بين القائدين، على أن يقبل جرجير الإسلام أو يدفع الجزية غير أنه رفض ذلك، فضاق أمر المسلمين، واختلفوا مع عبد الله بن سعد في الرأي فدخل فسطاطه مفكرا، بينما تأهب جرجير للحرب، وجعل ابنته على ديدبان وأقسم بأن من يقتل قائد المسلمين زوَّجه ابنته، وكان ذلك تشجيعا لجيشه على قتال المسلمين، فبلغ ذلك عبد الله بن سعد، فأقسم من يقتل جرجير نفسه نفله ابنته، والتحم الجيشان وانتصر المسلمون، وقتل جرجير على يد عبد الله بن الزبير»[1].

وبذلك كانت نهاية إفريقية إلا أن جرجير كان نصرانياً تابعاً لديانة الامبراطورية الرومانية، لذلك لما وصل إلى الروم أخبار ما حل بجرجير وجنوده، أخذتهم الحمية ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [المائدة: ٥١]. وقرروا مقاتلة عبد الله بن سعد ومن معه، وأخذ الغنائم التي غنمها من إفريقية، فلما أحس عبد الله بن سعد بخطورة ذلك التجمع الروماني رأى رغبة منهم في إبرام الصلح نظراً لعدة نقاط عسكرية منها: بعد جيش المسلمين عن مركز الإمداد والنجدة، ومخافة تواطؤ قوى الروم والبربر ضده، خاصة أن المعركة التي كانت مع جرجير سقط فيها من الشهداء العدد الكثير، ولكن قبل إبرام

---

(١) ليبيا من الفتح العربي... (ص ٤٥).

الصلح معهم أرسل إلى نائبه على مصر يطلب منه إرسال سفن إليه في أقرب وقت ممكن لحمل الغنائم التي غنمها من إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «فلما رأى الروم الذين بالساحل ما حل بجرجير وأهل سبيطلة، غارت أنفسهم وتجمعوا، وكاتب بعضهم بعضاً في حرب عبد الله بن سعد إياهم، فخافوا وراسلوه، وجعلوا له جعلا على أن يرتحل بجيشه، وألا يعترضوه بشيء، ووجهوا إليه ثلاثمائة قنطار من الذهب في بعض الروايات، وفي البعض الآخر مائة قنطار، جزية في كل سنة على أن يكف عنهم ويخرج من بلادهم، فقبل ذلك منهم وقبض المال، وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد الصلح ردوه عليهم، وانصرف راجعا إلى مصر بعد أن أقام بإفريقية سنة وثلاثة أشهر، أو سنة وشهرا في رواية أخرى» [1].

ويقول أيضاً: «وتذكر الرواية عندما وصل إلى طرابلس وافته المراكب فحمل فيها أثقال جيشه وقصد هو وأصحابه إلى مصر سالمين، ووجه إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه بالأموال التي معه من الخمس وغيره، ومن المرجح أن تكون السفن التي وافته في طرابلس من السفن التي غنمها السلمون في سورية والإسكندرية، إذ يذكر إرشيبالد: إنه قد سهل على العرب بفضل استيلائهم على دور الصناعة البيزنطية في الإسكندرية وسورية أن تكون لديهم سفن حربية، إما حاضرة وإما سهلة الإنشاء» [2].

بيد أن هناك روايات تنص على عودة عبد الله بن سعد لإفريقية بعد وصوله إلى مصر، وذلك حين نقض أهلها العهد، وكان ذلك في سنة ثلاث وثلاثين، فانتصر عليهم وقام بتثبيت دعائم النظام الإسلامي هناك، وأقر أهلها على الإسلام والجزية.

* * *

(١) ليبيا من الفتح العربي (٤٦).
(٢) المصدر السابق (ص ٤٦).

المبحث الثاني
فاتح إفريقية (تونس) في سطور

المطلب الأول
اسمه، وإسلامه، ووفاته

اسمه:

عبد الله بن سعد بن أبي السرح بن حبيب بن حذيفة بن حسل بن عامر بن لؤي القرشي العامري، ويكنى: أبا يحيى، واسم أبي السرح الحسام، وأمه أشعرية، واسمها مهابة بنت جابر الأشعرية، أرضعت عثمان بن عفان، فعبد الله بن سعد أخو عثمان بالرضاعة.

إسلامه:

أسلم عبد الله قديماً وهاجر إلى المدينة المنورة، فهو من السابقين الأولين، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثم افتتن وخرج من المدينة إلى مكة، ولما فتح المسلمون مكة المكرمة، عهد رسول الله ﷺ إلى المسلمين بقتل نفر من الكفار سماهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة، منهم عبد الله بن سعد، ففر ابن سعد إلى أخيه بالرضاعة عثمان بن عفان رضي الله عنه فاستأمن له رسول الله ﷺ فأمنه فأسلم عبد الله ذلك اليوم وحسن إسلامه، ولم يظهر منه بعد ذلك ما ينكر عليه.

ولقد بايعه رسول الله ﷺ يومئذ على الإسلام وقال: «الإسلام يجب ما قبله»، ولكن عبد الله كان يفر من رسول الله ﷺ أينما رآه خجلا منه، فذكر ذلك عثمان لرسول الله ﷺ فقال: «الإسلام يجب ما قبله» فكان عبد الله بعد ذلك يجلس مع رسول الله ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك، وعرف فضله وجهاده، فأصبح وثيق الإيمان كامل الشعور بجلال الإسلام وتبعاته، وكل قول يخالف ذلك لا قيمة له من الناحية التاريخية الصحيحة [1].

وفاته:

وبعد الفتنة التي انتهت بمقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، اعتزل

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (١ / ٥١-٥٣).

عبد الله بن سعد الناس، وأقام بمدينة عسقلان معتكفا عن اللذات، واستعدادا للرحيل من هذه الدنيا الفانية إلى الآخرة الباقية، وكان من دعائه في تلك الخلوة: «اللهم اجعل خاتمة عملي صلاة الصبح»، وقد استجاب الله سبحانه لهذا الرجل الصالح المجاهد، ففي ذات يوم عند طلوع الفجر توضأ، ثم صلى الصبح فقرأ في الركعة الأولى بفاتحة الكتاب والعاديات، والثانية بفاتحة الكتاب وسورة أخرى، ثم سلم عن يمينه، ثم ذهب ليسلم عن يساره، فقبض الله روحه وكان له ما أراد.

وكان ذلك في (سنة ٣٦هـ / ٦٥٦م) ودفن بموضع معروف يقال له: مقابر قريش بعسقلان في الشام، إلا أن صاحب كتاب «الفوائد الجلية في تاريخ العائلة السنوسية» عبد الملك بن عبد القادر بن علي، يذهب إلى أنه دفن في أوجلة في إحدى واحات ليبيا، ولا يخفى أن ما ذهب إليه صاحب كتاب «قادة فتح المغرب العربي» أصح من حيث ترجيح الرواية وضبط التواريخ والآثار [1].

* * *

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٦٤، ٦٥).

المبحث الثالث

مناقب عبد الله بن سعد رضي الله عنه

لا ريب أن عبد الله بن سعد رضي الله عنه، كان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته لأرض الشام ومصر، بل كان يرسله يقود حملات جهادية بنفسه على جنوب وغرب مصر من أراضي أفريقية، التي كانت فيما بعد سبباً لفتح ليبيا وتونس، وبلاد المغرب، والسودان وما حوله، لذلك فعلى هذه الشعوب أن تذكر هذا الرجل صاحب الفضل عليها بعد الله سبحانه، بأفضل ما يذكر به الخلف الصالح سلفهم الصالح، فهو الذي كان سبباً في دخول الإسلام لتلك البلاد وقلوب العباد، وكفى بذلك شرفا ومنقبة، لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقب هذا القائد الصحابي الجليل في مسيرته الجهادية الدعوية.

المطلب الأول

جهاده في مصر

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«كان عبد الله مع جيوش المسلمين التي فتحت أرض الشام، فلما سار عمرو بن العاص لفتح مصر، كان عبد الله معه قائدا للميمنة منذ توجه من قيسارية إلى أن فرغ من حربه، فشهد فتح مصر وكان صاحب ميمنة عمرو بن العاص في فتوحاته وفي حروبه هنالك كلها، وكان عمرو بن العاص يبعثه إلى أطراف إفريقية غازيا ويمده بالجنود فيعود من غزواته ظافرا غانما»[1].

المطلب الثاني

جهاده في إفريقية

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«ولما ولي عبد الله بن سعد مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد الخيل، فأصابوا من أطراف إفريقية وغنموا، وكتب عبد الله إلى عثمان بن عفان وأخبره بقرب إفريقية من

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٥٣، ٥٤).

بلاد المسلمين، واستأذنه في غزوها واستشار عثمان من عنده من الصحابة، فأشار أكثرهم بالإقدام على غزو إفريقية، فوجه عثمان العساكر من المدينة في خلق كثير كان منهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن جعفر، والحسن والحسين رضي الله عنهم، لذلك سمى هذا الجيش بجيش العبادلة، وسار عبد الله بن سعد بجيشه البالغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين، وسار عبد الله إلى إفريقية، فلما وصلوا إلى برقة لقيهم عقبة بن نافع ومن معه من المسلمين-وكان عقبة ومن معه حامية هناك-فساروا جميعاً إلى طرابلس الغرب فقاتلوا من عندها من الروم.. ولقد افتتح عبد الله بن أبي السرح إفريقية سهولها وجبالها، وفتح الله على يديه فتحا عظيماً وانتصر على ملك البربر جرجير في موقعة سبيطلة، وأذلت تلك الواقعة أهل إفريقية وأصابهم رعب شديد، فإذا كان كل ذلك ليس فتحا مستداما، بل غارة، فكيف يكون الفتح؟!» [1].

المطلب الثالث

جهاده في قبرص

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«وفي سنة ثمان وعشرين للهجرة أجاب عثمان بن عفان معاوية بن أبي سفيان حين كان على أرض الشام إلى فتح قبرص، وقال له: لا تنتخب الناس ولا تقترع بينهم! خيرهم فمن اختار الغزو طائعا فاحمله وأعنه، فسار المسلمون من الشام إلى قبرص، وسار إليها عبد الله بن سعد من مصر فاجتمعوا عليه، فصالحهم على جزية قدرها سبعة آلاف دينار كل سنة، وفتح المسلمون قبرص، وكان لعبد الله فضل كبير في فتحها [2].

المطلب الرابع

جهاده في بلاد النوبة

يقول في موضع آخر: «بعث عمرو بن العاص عقبة بن نافع لفتح النوبة، فقاتل المسلمون بالنوبة قتالا مريرا، إذ كان أهلها ماهرين برمي السهام، فرشقوا المسلمين بالنبل حتى جرح عامتهم، فانصرفوا بجراحات كثيرة وحدق مفقودة ولم يصالحهم عمرو بن

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٥٣، ٥٤).
(٢) المرجع السابق: (١ / ٦١-٦٣).

العاص، ولم يزل يهاجمهم بين حين وآخر حتى عزل عن مصر وولي ابن سعد فغزاهم سنة إحدى وثلاثين هجرية، فقاتله الأساود من أهل النوبة قتالا شديداً، فأصيبت يومئذ عيون كثيرة من المسلمين، فقال شاعرهم:

لم تَـرَ عَـيْني مثـل يَـوْم دنْقلـة والخيـلُ تَعْـدُو بالـدُّروع مثقلـة

فسأل أهل النوبة عبد الله بن سعد المهادنة، فهادنهم وعقد لأهل «مقرة» بعد دخول جيش المسلمين «دنقلة» عقدًا يضمن استقلال بلادهم ويحقق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبية وفتح النوبة للتجارة والحصول على عدد من الرقيق في خدمة الدولة الإسلامية، وقد اختلط المسلمون بالنوبة والبجة، واعتنق كثير منهم الإسلام» [١].

المطلب الخامس

جهاده في إفريقية ثانية

ويقول أيضاً: «وفي سنة ثلاث وثلاثين هجرية، أعاد عبد الله الكرة على إفريقية حين نقض أهلها العهد، فانتصر عليهم وأعاد النظام إلى ربوعهم، وأقرهم على الإسلام» [٢].

المطلب السادس

جهاده في البحر (غزوة ذات الصواري)

وقال أيضاً: «وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية غزا عبد الله غزوة: ذات الصواري في البحر من ناحية الإسكندرية، فلقيه قسطنطين بن هرقل في جمع لم تجمع الروم مثله منذ كان الإسلام، فخرجوا في خمسمائة مركب أو ستمائة والمسلمون في مائتي مركب، وحين علم عبد الله بخبر قدوم الروم بهذا الحشد الكثيف، قام بين ظهراني الناس فقال: بلغني أن هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب، فأشيروا على! فما كلمه رجل من المسلمين!! فكرر عليهم طلب الاستشارة فأجاب في المرة الثالثة رجل من أهل المدينة كان متطوعا مع عبد الله بن سعد فقال: «أيها الأمير إن الله جل ثناؤه يقول: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فقال عبد الله: اركبوا باسم الله، فركبوا، وإنما كان في كل مركب نصف شحنته، إذ قد خرج النصف الآخر إلى البر للقتال في منطقة

---

(١) قادة الفتح بلاد المغرب (١ / ٦١). (٢) المرجع السابق: (١ / ٦٣).

أخرى، قدم أهل الشام وعليهم معاوية بن أبي سفيان، وعلى البحر عبد الله بن سعد، وكانت الريح على المسلمين، فأرسى المسلمون والروم، وسكنت الريح، فقال المسلمون: الأمان بيننا وبينكم، فباتوا والمسلمون يقرأون القرآن ويصلون، وأصبحوا وقد أجمع الروم أن يقاتلوا، وقربوا سفنهم وقرب المسلمون سفنهم، فربطوا بعضها إلى بعض، وصف عبد الله بن سعد المسلمين على نواحي السفن وجعل يأمرهم بقراءة القرآن، ويأمرهم بالصبر.

واقتتل الطرفان بالسيوف والخناجر، فقتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى، وصبر المسلمون يومئذ صبرا لم يصبروا مثله في موطن قط، فجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في هذه المعركة فانهزموا، ولم ينج منهم إلا الشريد، في هذه المعركة بالذات تعرضت حياة عبد الله لخطر داهم، فقد قرن مركبه بمركب من مراكب الروم، فكاد مركب العدو يجر مركب عبد الله إليهم، إلا أن أحد رجاله ضرب السلسلة التي تربط المركبين بالسيف، فقطعها وبذلك نجا عبد الله من الموت أو الأسر.

لقد أظهر عبد الله في معركة «ذات الصواري» بطولة فائقة، تلك الغزوة التي أبعدت خطر الروم بعد اندحارهم عن مصر وأرض الشام» [1].

* * *

(١) انظر: أسد الغابة في معرفة الصحابة (٣/ ١٥٦).

المبحث الرابع
مبادئ في الاستراتيجية العسكرية

لقد تقدم-فيما سبق-أن هذا القائد والصحابي الجليل عبد الله بن سعد صاحب تلك المعارك العظيمة، كان قديرا في وضع الاستراتيجيات الهادئة، والقواعد العسكرية، ومن تلك المبادئ والقواعد التي أسس بنيانها هذا الصحابي الجليل في حياته الجهادية: إتقان إدارة الجيش كما وكيفا، واستقرار المؤخرات، وحشد القوى، والاقتصاد في القوى، والتعرض، والاستعلام والاستطلاع، وإعداد الخطة البديلة، والمحاربة في ميادين القتال، والمناورة الحربية.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب بهذا الصدد:

«وكان قديرا على وضع الخطط العسكرية المناسبة وكان يحرص على إنجاز استعداداته الضرورية قبل كل معركة يخوضها، ويجيد تحشيد قواته، ويكمل قضاياها الإدارية، ويرسل العيون والأرصاد لتزويده بأنباء العدو المفصلة، كل ذلك يساعده على وضع خطة مثلى تؤمن له النصر المبين» [١].

* * *

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب (١ / ٧٣).

المبحث الخامس

أهم صفاته القيادية

لقد كان عبد الله بن سعد رضي الله عنه، ذا مؤهلات قيادية عالية المستوى، تؤهله أن يكون قائدا لتلك الفتوحات المباركة، وأن يخوض غمار تلك المعارك الطاحنة، خاصة معركة «ذات الصواري»، ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها: الشجاعة، وعدم الاستبداد بالرأي، وكثرة استشارته لإخوانه، وقبوله للرأي الثاني والانصياع له بكل رحابة صدر، وكان لا يتأثر بكلام الناس، ويفضل أن يكون غازيا لا واليا.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«وكان يمتاز باستشارة ذوي الرأي من رجاله قبل المعركة وفي أثنائها، ولا يأنف أبداً من الانصياع للرأي الصائب بكل رحابة صدر، بل يشجع كل من له رأي سليم على إظهاره ليطبقه فوراً، وتلك ميزة صاحب الشخصية الرصينة القوية، التي لا تؤثر عليها تقولات الناس، والظاهر من سير معاركه التي خاضها، أنه كان يؤثر أن يكون في ساحات القتال غازيا، على أن يكون في القصور واليا» [1].



(١) قادة الفتح لبلاد المغرب (١ / ٧٣).

المبحث السادس

أعماله في عهد الخليفتين

عمر وعثمان رضي الله عنهما

لقد تولى عبد الله بن سعد رضي الله عنه أعمالا كثيرة ومناصب عظيمة، ففي عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولاه الصعيد المصري، وفي عهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ولاه مصر كلها، وكان ذلك (سنة ٢٥هـ).

أما المناصب القيادية الميدانية التي باشرها عبد الله بن سعد، فمنها ولاية الميمنة في جيش عمرو بن العاص، وولاية قيادة جيش إفريقية، وكل ذلك كان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أما في عهد عثمان بن عفان، فقد ولاه قيادة فتوحات أرض النوبة، ومدينة قبرص وغيرها.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «تولى عبد الله – صعيد-مصر بعد فتحها، وكان عمر بن الخطاب هو الذي ولاه الصعيد، فعقد عثمان بن عفان لعبد الله على مصر كلها مضافاً للصعيد وغيره، وعزل عمرو بن العاص، وكان ذلك سنة خمس وعشرين هجرية....» [١].

واخيراً:

يبقى التاريخ دائماً وأبداً ذاكرا لعبد الله بن سعد رضي الله عنه فتحه لبلاد تونس الخضراء، وشرقي الجزائر، وقبرص، والنوبة، ونشره لدعوة الإسلام في تلك الربوع، كما أنه يذكر له معاركه البحرية بالتقدير والإعجاب، خاصة معركة ذات الصواري، ويذكر له أنه قضى حياته كلها مجاهدا لإعلاء كلمة الله، رضي الله عنه من صحابي جليل، فهو الإداري الحازم، والبطل الشجاع، والقوي الأمين، والقائد الفاتح [٢].

* * *

(١) قادة الفتح لبلاد المغرب (١ / ٧٤).

(٢) المرجع السابق (١ / ٧٤).

الفصل الرابع

معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده

توطئة:

بعد أن عاد عبد الله بن سعد ﷺ إلى مصر من غزوة ذات الصواري (عام ٣٥هـ) حيث علم بخبر فتنة الخروج على خليفة المسلمين عثمان بن عفان ﷺ، فلما علم ذلك خرج من مصر متوجهاً إلى المدينة حيث عاصمة الخلافة ومقر الخليفة، ولكن ما لبث في المدينة إلا قليلاً، حتى وافاه خبر مقتل عثمان بن عفان ﷺ ثم استخلف من بعده الإمام علي بن أبي طالب ﷺ الذي بدوره أعاد ترتيب ولاته وعماله في المنطقة، فكان من ضمن أولئك عبد الله بن سعد حيث ولى قيس بن سعد بن عبادة واليا مكانه.

وهكذا كان والي مصر عبد الله بن سعد القائد الجندي، الذي لم يتأثر بتلك المناصب التي قلما ينزل عنها بشر بيسر إلا إذا كان من أولى التقى والنهي، ونحسب أن فاتح إفريقية من أولئك والله حسبه، لذلك عندما أحس بنشوب الفتنة بين المسلمين اختار مدينة عسقلان التي كانت بعيدة عن مواطن الفتنة مكاناً لخلوته يتعبد الله فيها، حتى توفاه الله وهو في آخر ركعة من صلاة الصبح، فرضي الله عنه وأرضاه، وأدخله فسيح جناته، اللهم آمين.

ثم توالت الأحداث واستلم معاويةُ بن أبي سفيان رضي الله عنه مقاليد الخلافة (سنة ٤١هـ-٦٦١م) حيث عزل فيها عمرو بن العاص والي مصر للمرة الثانية عن منصبه، وعين معاوية بن حديج واليا على مصر، وعقبة بن نافع عاملاً على إفريقية.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«أما بالنسبة لـ (سنة ٤٧هـ-٦٦٧م)، وذلك بعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص عن مصر، وولاها معاوية بن حديج، وفي السنة التي تليها (٤٨هـ-٦٦٨م) كان معاوية بن حديج عاملاً على مصر وإفريقية إلى أن عزله معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عن ولاية إفريقية وأقره على ولاية مصر فقط (سنة ٥٠هـ-٦٧٠م)، هذا فضلاً على أنه في هذه الفترة كان عقبة بن نافع في إفريقية»[1].

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (٤٨).

المبحث الأول

حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية

لقد تقدم فيما مضى أن معاوية بن أبي سفيان خليفة المسلمين قد عين معاوية بن حديج واليا على مصر، ولما استقرت سلطة الخلافة كلف معاوية بن حديج أن يتوجه إلى إفريقية نظراً لخبرته بها وسابقة أعماله الجهادية فيها، وكان جيشه تعداده قرابة عشرة آلاف مقاتل، وكان الجيش الإسلامي يضم في صفوفه أكابر فقهاء الصحابة وتابعيهم أمثال: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن أبي الحكم بن العاص وغيرهم.

يقول الدكتور صالح مصطفى: «أما في (سنة ٤٥هـ-٦٦٥م) فقد أرسل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن توطدت سلطته في الخلافة معاوية بن حديج إلى إفريقية في عشرة آلاف مقاتل، وكان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان، ويحيى بن أبي الحكم بن العاص وعدة من أشراف قريش» (١).

ولقد ذكر في كتب التاريخ أن هذا الجيش الإسلامي بقيادة معاوية بن حديج رضي الله عنه كان قد تحرك من مصر متجها إلى إفريقية عبر الأراضي الليبية التي كان قد رابط بها كل من عقبة بن نافع وشريك بن سمي رضي الله عنهما، لذلك لم يجد جيش معاوية عند مروره بالأراضي الليبية كبير عناء، بل لم يذكر أحد من المؤرخين أن معاوية وجيشه الإسلامي لقي أية مقاومة من الشعوب القاطنة في الأراضي الليبية، نظراً لالتزامهم إما بالإسلام، أو بالجزية، أو العهد.

وبعد عبوره منطقة طرابلس وحدودها توجه إلى تونس التي تعتبر القصد الأول من حملته المباركة، وكانت استراتيجيته في تلك الحملة المباركة السيطرة على مفاصل إفريقية الثلاثة، بنزرت، وسوسة، وجلولاء.

وهكذا كانت البداية فقصد معاوية بجيشه إلى سبيطلة، وسبقته أخباره، وبلغ قيصر

---

(١) ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (٥٠).

الروم خبر هذا الغزو، فأرسل نجدة إلى قرطاجنة عن طريق البحر، والتقى المسلمون بالروم والبربر بقرب (الجم) فهزموهم، واستعد الروم للقائه في جلولاء، ليكون دفاعهم عن سبيطلة في مواقع بعيدة عنها، وهناك جمعوا جيشا لا يقل عن ثلاثين ألف مقاتل، وتواقع الفريقان خارج أسوار المدينة ولم يلبثوا أن رجحت كفة المسلمين على الروم، فدخلوا المدينة منهزمين وتحصنوا وراء أسوارها، وحاول المسلمون اقتحامها عليهم فلم يقدروا وجرح عامتهم واستشهد كثير منهم فتركوها.

ولكن لا يعلم جنود ربك إلا هو فبينما هم راجعون منها إذ بأحد أسوار المدينة قد تهدم وسقط دون أي عامل بشري، الله أكبر، فتحت جلولاء، فرجع معاوية بجيشه المبارك مسارعين ودخلوا المدينة عنوة، وفر منها من نجا من القتل والأسر، وغنموا كل ما حوته المدينة، وكانت هذه الغنيمة من أكبر غنائم أفريقية في الفتح الإسلامي [١].

ثم واصل معاوية حملته المباركة للسيطرة على مفاصل أفريقية، فقد بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى مدينة سوسة البحرية التي ما استطاعت مقاومة قوات ابن الزبير ففتحها وثبت فيها دعائم الإسلام، وهكذا واصل معاوية رضي الله عنه عمله الاستراتيجي الذي يهدف إلى السيطرة على المدن الحيوية والاستراتيجية التي تعتبر مفاصل إفريقية، فبعث رويفع بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه إلى مدينة جربة الاستراتيجية ففتحها.

وبعد أن استتب الأمن في أفريقية اتجه معاوية رضي الله عنه إلى جبل القرن الذي يسمى اليوم بجبل وسلات، واتخذ منه مقرا لقيادته لمنطقة أفريقية، وبني بتلك الناحية مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آبارا تسمى باسمه (آبار حديج) وأقام في هذا الجبل قرابة ثلاث سنين.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«واستقر معاوية في جبل القرن وجعله مقرا له، فبقي هناك ثلاث سنين، وبني بناحية القرن مساكن سماها: قيروان، واحتفر بها آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس

---

(١) راجع: الفتح العربي في ليبيا (ص ٩٩).

منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز»[1].

واخيراً:

عاد معاوية بن حديج رضي الله عنه بعد ذلك إلى مصر بناء على أمر من خليفة المسلمين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بعد أن قام بتثبيت دعائم الإسلام في المنطقة، وأسس القواعد الأولى لفتح أوروبا، وتبليغ دعوة الإسلام إليها، وهكذا سطر التاريخ لمعاوية رضي الله عنه بماء الذهب تلك الآثار الطيبة في الشمال الأفريقي، فاللهم ارض عنه وادخله فسيح جنتك، آمين.

* * *

(١) قادة فتح المغرب العربي (١ / ٨٠).

المبحث الثاني
معاوية بن حديج في سطور
المطلب الأول
اسمه، نسبه، وفاته

اسمه ونسبه:

معاوية بن حديج بن جفنة بن قتيرة بن حارثة بن عبد شمس بن معاوية بن جعفر بن أسامة بن سعد بن أشرس بن شبيب بن السكون السكوني، يكنى: أبا نعيم، وقيل: أبا عبد الرحمن.

وقيل: إنه من حلوان وليس بشيء، والصحيح أنه سكوني، أما قولهم: إنه سكوني، وقيل: تجيبي، وقيل: كندي، فمن يرى هذه يظنه تناقضا، الحقيقة: أن السكوني، من كندة وولد السكون شبيبا، فولد شبيب أشرس، فولد أشرس عديا، وسعدا، وأمهما: تجيب بها يعرف أولادهما، فكل تجيبي سكوني، وكل سكوني كندي، فمن نسبه إلى جده الأقرب قال: وكلاهما صواب، وأمه كبشة بنت معد يكرب الشاعرة.

صحب النبي ﷺ وروى عنه حديث: «إن كان في شيء شفاء فشربة عسل، أو شرطة محجم، أو كية نار، وما أحب أن أكتوي» (إسناده صحيح)، وهاجر إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ووفد على عمر بن الخطاب رضي الله عنه والظاهر أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ فلم يشهد غزواته، لذلك نال معاوية شرف الصحبة، وما أعظمه من شرف، ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد ﷺ [1].

وفاته رضي الله عنه:

وفي سنة خمسين من الهجرة عزل معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج رضي الله عنهما عن أفريقية، وأقره على ولاية مصر، ووجه إلى أفريقية عقبة بن نافع الفهري، ثم عزله عن مصر سنة إحدى وخمسين الهجرية، فمات بها (سنة ٥٢هـ-٦٧٢م) [2].

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٧٦).

(٢) المرجع السابق: (١ / ٨٧).

المطلب الثاني
مناقبه رضي الله عنه

لا يخفى أن معاوية بن حديج رضي الله عنه قد صاحب عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر والإسكندرية، وكان محل ثقته، وأهلا لمشورته ورسوله الخاص لخليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لذلك كان محل ثقة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذلك، وهذا إن دل فإنما يدل على أن معاوية بن حديج كان من الشخصيات القيادية المهمة صاحبة المؤهلات الجهادية والقيادية في جيش عمرو بن العاص، لذا سنحاول أن نتناول بإيجاز معالم هذه الشخصية، ومناقبها الجهادية، وعقليتها العسكرية.

(١) جهاده في مصر والنوبة:

أ- شهد ابن حديج فتح مصر مع عمرو بن العاص، وكان رسوله إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح مصر والإسكندرية، وقد ذكر معاوية بن حديج قصة وفادته إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه بفتح الإسكندرية، فقال: «بعثني عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية، فقدمت المدينة المنورة في الظهيرة... فلما دخلت فإذا عمر بن الخطاب يتناول رداءه بإحدى يديه ويشد إزاره بالأخرى، فقال: ما عندك؟ قلت: خير يا أمير المؤمنين، فتح الله الإسكندرية....».

ولا يخفى أن إيفاد معاوية بشيرا بالفتح دليل على ثقة عمرو به واعتماده عليه، وأنه كان شخصية لامعة-في جيش المسلمين الذي فتح مصر-في جهاده وعقله ومنطقه وتصرفه، كما أنه يكون دليلاً على أنه كان مقبولاً من عمر بن الخطاب، إذ لا يمكن أن يبعثه عمرو دون أن يكون موضع ثقة عمر وتقديره.

ب- وفي سنة إحدى وثلاثين هجرية شهد ابن حديج فتح النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فذهبت عينه يوم دنقلة من بلاد النوبة، فأصبح أعور، ويا له من وسام جهادي يقابل به الله يوم لا ينفع مال ولا بنون [١].

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٨٧).

(٢) جهاده في افريقية:

غزا ابن حديج أفريقية ثلاث مرات، الأولى: سنة أربع وثلاثين هجرية في خلافة عثمان بن عفان، حيث كان عبد الله بن سعد بن أبي السرح واليا على مصر، وكان معه جماعة من المهاجرين والأنصار، ففتح مناطق شاسعة وغنم غنائم عظيمة، واتخذ قيروان عند القرن، ولم يزل فيها حتى خرج إلى مصر.

وغزا معاوية أفريقية سنة إحدى وأربعين هجرية، ففتح مدينة بنزرت، وكان معه عبد الله بن مروان، ولما سمع الروم بما أعطى البربر من أموال لعبد الله بن سعد بن أبي السرح، لمعاوية بن حديج، أجبروا البربر في أفريقية على أن يعطوهم مثل ذلك فاعتذروا، لأن ذلك ليس في طاقتهم، ولأنهم كرهوا معاملة الروم واستعبادهم وظلمهم لهم، فوقع القتال بين خليفة جرجير ملك أفريقية، وبين القائد الرومي، فهزم هذا القائد خليفة جرجير، ففر إلى الشام، واتصل هناك بمعاوية بن أبي سفيان، وزين له فتح أفريقية واصفا خيراتها وثرواتها، ودله على عورات الروم، فبعث معاوية بن حديج لفتحها فغزاها سنة خمس وأربعين هجرية.

وقد وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف تعداده عشرة آلاف رجل، معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وجماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان، ومضي معاوية حتى وصل إلى أفريقية، وكانت تضطرم ناراً فنزل بجيشه على قمونية وهي قيروان أفريقية، وكان عامل جرجير هو ملك سبيطلة على رأس ثلاثين ألف مقاتل، كان القيصر قد وجههم من القسطنطينية في البحر لمدافعة المسلمين عن أفريقية فلم تغن قوات الروم شيئاً، إذ قاتلهم معاوية فهزمهم عن حصن «الأجم»، ثم بث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى «سوسة» ففتحها، وبعث رويفع بن ثابت الأنصاري بحرا إلى جربة ففتحها، ثم عاد أدراجه إلى طرابلس الغرب التي كان أميرا عليها، وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء ففتحها.

واستقر معاوية في جبل «القرن» وجعله مقرا له، فبقي هناك ثلاث سنين، فبني بناحية القرن مساكن سماها قيروان، واحتفر بها آبارا تسمى آبار حديج، وهذه الآبار خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق عند مصلى الجنائز.

لقد غزا أفريقية مرارا كثيرة كان آخرها سنة خمسين من الهجرة، ولكن المؤرخين اقتصروا على ثلاث غزوات منها،وهي أهم غزواته على ما يظهر، وعاد معاوية بعد ذلك إلى مصر بعد أن خلد آثاراً حسنة في أفريقية، وهو الذي بعث عقبة بن نافع سنة خمسين هجرية لغزو إفريقية [١].

(٣) جهاده في البحر:

أ- كان معاوية بن حديج أول من غزا جزيرة «صقلية» إذ بعث إليها عبد الله بن قيس، فأصاب أصناما وفضة مكللة بجوهر، وقد وجه معاوية جيشه هذا في مائتي مركب، وكان ذلك سنة ست وثلاثين هجرية.

ب- وفي سنة تسع وأربعين هجرية، وجه معاوية عقبة بن نافع الفهري في البحر لغزو الروم بأهل مصر [٢].

المطلب الثالث

أهم صفاته القيادية

إن معاوية كان من الأبطال الصناديد، ومن الدهاة المحنكين، ومن رجالات الفتوح الكبار، وكان من ضباط أركان عمرو بن العاص في فتح مصر، ومن ضباط أركان عبد الله بن سعد بن أبي السرح في إفريقية والنوبة، فلما تولى القيادة كان خبيرا بالمغرب، عارفا لشئونه وطبيعة أرضه، ونقاط الضعف في أهله، وخبرة معاوية هذه سهلت له فتح كثير من بلاد المغرب.

والذي يتتبع قصة جهاده بإمعان، يجد أن معاوية رضي الله عنه كان يهوى الجهاد، فكان يفضل دائماً أن يكون غازيا في ساحات الوغى على أن يكون واليا في باحات القصور.

لقد كان جنديا بالطبع، وكان من أسود المسلمين، سألت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها يوماً رجلاً فقالت: «وكيف كان أميركم في غزواتكم؟» تعني معاوية بن حديج،

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٨١).
(٢) المرجع السابق: (١ / ٨٢).

فقالوا: «ما نقمنا عليه شيئاً»، وأثنوا عليه خيراً، وقالوا: «إن هلك بعير أخلف بعيرا، وإن هلك فرس أخلف فرساً، وإن أبق خادم أخلف خادما» فقالت: «أستغفر الله! إن كنت لأبغضه من أنه قتل أخي، وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رفق بأمتي فارفق به، ومن شق عليهم فأشقق عليه» وهذا دليل على سهره على مصالح رجاله وحرصه على راحتهم، ورضائهم وإعطائهم ما يستحقون.

لقد كان معاوية شجاعا مقداما ذا شخصية قوية نافذة، له قابلية ممتازة على إعطاء القرارات الصائبة، يتحمل المسئولية ولا يتهرب منها، ذا إرادة قوية ثابتة، يعرف مبادئ الحرب ويطبقها ويعرف نفسيات رجاله وقابليتهم، يثقون به، ويبادلونه حبًا بحب، وتقديرًا بتقدير، له تجربة طويلة في الحرب وماض ناصع في الجهاد، لقد كان معاوية قائدا ممتازا، قضي حياته كلها مجاهدا في سبيل الله في البر والبحر على حد سواء.

إن التاريخ يذكر له أنه نشر الإسلام بين عدد لا يحصى من البربر، ونشر لغة القرآن بينهم، ويذكر له أنه فتح بلادا شاسعة من شمال أفريقية في تونس، والجزائر، والمغرب، ويذكر له أنه أول من غزا صقلية، فمهد للمسلمين فتحها بعد ذلك، وذكر له أنه كان قائد القادة من الصحابة والتابعين، رضي الله عن الصحابي الجليل، الإداري الحازم، أمير البحر، وقائد البر، معاوية بن حديج السكوني [1].

* * *

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ٨٨، ٨٩). ومن أراد الاستزادة من ترجمة معاوية بن حديج: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، طبقات ابن سعد، معالم الإيمان لعبد الرحمن الأنصاري، فتح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، النجوم الزاهرة لابن تغري بردي.

الفصل الخامس

عقبة بن نافع
قائد فتح الشمال الأفريقي

توطئة:

لا يخفى أن عقبة بن نافع كانت له علاقة قديمة وطويلة ببرقة وطرابلس وإفريقية، والشمال الأفريقي عموماً مما أكسبه خبرة جيدة بطبيعة البلاد، ومعرفة عادات ونفوس أهلها، مما جعله في قائمة المرشحين عند أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لقيادة الحملة الأخيرة لفتح إفريقية.

* * *

المبحث الأول
بداية الفتح المبارك

لقد تقدم -فيما سبق- أن عقبة بن نافع كانت لـه خـبرة بمناطق الشمال الأفريقـي إجمالا، حيث قد أرسله عمرو بن العاص إلى زويلة (سنة ٢٢هـ) ففتحها، ثم عينـه واليـا على أفريقية بعد رجوعه إلى مصر، وبتلك الخبرة والخلفية سار عقبة إلى إفريقية في جـيش رهيب ومهيب، وكانت بداية مسيرة هذه الجحافل المباركة «برقة»، لأنه كان مقيما فيها ثم سار حتى وصل سرت حيث أقام الجيش فيها فترة من الزمان، وتوجـه خلالهـا عقبـة إلى بلاد ودان، وجرمة، وفزان ففتحها ونشر فيها تعاليم الإسلام.

يقول الدكتور صالح مصطفى:

«من المرجح أن عقبة بن نافع خرج إلى إفريقية (سنة ٤٩هـ-٦٦٩م) كما يـذكر ابـن عذاري أو في أولها، ولاسيما أنه قد خرج بعد معاويـة بـن حـديج كمـا يـذكر ابـن عبـد الحكم، وكان مع عقبة بن نافع في هذه الغزوة بسـر بـن أبـي أرطـأة وشـريك بـن سمـي المرادي، وتقدم عقبة بن نافع بقواته إلى أن وصل مغداش من سرت، وكان بسر بـن أبـي أرطأة، قد توجه إليها قبل ذلك (سنة ٢٦هـ-٦٤٦م) من سرت، فلما وصل عقبة إلى هذه المدينة علم بأن أهل ودان قد نقضوا العهد الذي سبق أن عقدوه مع بسر بن أبي أرطأة في سنة ٢٦هـ زمن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

فما كان منه إلا أن ترك جيشه واستخلف عليهم عمر بن علي القرشي، وزهـير بـن قيس البلوي، وسار بنفسه وبمن خف معه، حتى قدم ودان فافتتحها، وجدع أذن ملكهـم أدبا له، وأخذ منهم ما كان بسر بن أبي أرطأة قد فرضـه علـيهم، وهـو ٣٦٠ رأسـا، ثـم واصل سيره إلى مدينة جرمة، ولما دنا منها وكـان آخرهـا قصـور خـوار، جنـوبي فـزان، فعندما وصله عقبة امتنع عليه، ولم يتمكن من فتحه، وظل محاصرا له شهراً، ثم تخلى عنه متجها إلى قصور كوار، وقطع إصبع ملكهم أدبا له، وحتى لا تسول إليه نفسه أن يحارب العرب- المسلمين- مرة أخرى وفرض عليهم ٣٦٠ عبداً.

ثم رجع إلى أهل خوار حتى تجاوزهم، متظاهرا أنه لن يفتح هذا القصر حتى اطمأن

أهله فرجع عليهم وتمكن من فتحه، ومن هناك انصرف راجعا حتى وصل إلى مواضع زويلة اليوم، قاصداً جيشه الذي غاب عنه خمسة أشهر تحت إمرة عمر بن على القرشي، وزهير بن قيس البلوي [(١)].

وهكذا بعد هذه المسحة العسكرية لمناطق ليبيا والتي استغرقت من عقبة ومن معه حوالي نصف سنة رجع بعدها إلى جيشه المرابط في مدينة سرت، ثم سار به إلى ناحية الغرب، وجنوب غرب ليبيا حيث فتح بلاد مزاتة، وأرسل بعدها سراياه إلى غدامس وقفصة، وسبيطلة ففتحوها.

يقول الأستاذ الطاهر الزاوي في ذلك:

«وواصل عقبة سيره حتى وصل إلى معسكره غدامس بأرض سرت بعد أن غاب عنهم خمسة أشهر، ولم يلبث عقبة أن توجه إلى إفريقية، واتخذ له طريقاً غير الطريق الساحلي جنوبي جبل نفوسة، وأرسل خيلا إلى غدامس ففتحها، وواصل سيرة إلى إفريقية» [(٢)].

* * *

(١) ليبيا من الفتح العربي، (ص ٦١، ٦٢).
(٢) قادة فتح المغرب العربي: (١ / ١٠٤).

المبحث الثاني
تاسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الأفريقي

وهكذا واصل عقبة بن نافع سيره حتى وصل القيروان، وهناك رأى ضرورة إنشاء قاعدة أمنية للمسلمين تكون لهم مقرا ينطلقون منه لقتال أعداء الإسلام، وملجأ للراحة والتقاط الأنفاس، وترتيب الأمور، إلا أنه لم يعجبه المكان الذي اختاره معاوية بن حديج من الناحية العسكرية الأمنية، فقرر المسير إلى موضع مناسب عسكريا، وأمنيا واقتصاديا، فكان ذلك الموضع المختار لمدينة القيروان الحالية، التي كانت تسكنها الحيوانات المفترسة، والوحوش الضارية آنذاك، حتى استنكر عليه بعض من رجاله في اختياره ذلك المكان الموحش.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

«إن رجاله قالوا له: إنك أمرتنا بالبناء في شعاب وغياض لا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من دواب الأرض، وكان في عسكره خمسة عشر رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وسائر ذلك تابعون، فدعا الله عز وجل، وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه.

ومضي إلى السبخة ووديها ونادى: «أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله ﷺ، فارتحلوا عنا فإنا نازلون، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه» ونظر الناس بعد ذلك إلى أمر عجب، فقد جعلت السباع تخرج من الشعاب تحمل أشبالها، والذئب يحمل جروه، والحيات تحمل أولادها، ونادى في الناس: «كفوا عنهم حتى يرتحلوا عنا»، فلما خرج ما فيها من الوحوش والهوام، وهم ينظرون إليها نزل عقبة الوادي وأمرهم أن يقطعوا الشجر» [1].

فلما فرغ عقبة بن نافع من تشييد أول صرح إسلامي في الشمال الأفريقي، أردفه بمسجد كبير جعله منارة للعلم، وقبلة لطلاب العلوم الإسلامية، وملتقى للدعاة والعلماء المجاهدين، وكان ذلك (سنة ٥٥هـ)، وبعد ذلك تفرغ أكثر لفتح ما بعد القيروان من مدن المغرب العربي، ومطاردة فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وسوف نتناول هذه الفتوحات في المباحث القادمة إن شاء الله بشيء من التفصيل.

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي (١ / ١٠٤).

المبحث الثالث

فاتح المغرب في سطور

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، ومولده، ونشأته

اسمه ونسبه: هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن عامر بن أمية بن الضرب بن الحارث بن فهر القرشي، أبوه نافع بن عبد القيس الفهري أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر وبعثه عمرو إلى برقة، وقد بقي إلى خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه. وأمه سبية من «عنزة» اسمها النابغة، فهو أخو عمرو بن العاص لأمه، وفي رواية أنه ابن خالة عمرو بن العاص، وفي رواية: أن عمرو بن العاص خاله، وفي رواية أنه ابن أخي العاص بن وائل السهمي لأمه، وعلى كل فعقبة من أقرباء عمرو بن العاص من جهة الأم أولاً، ومن جهة الأب أيضاً على اعتبار أنهما من قريش.

مولده ونشأته: ولد عقبة قبل الهجرة بسنة واحدة، لذا فقد كانت نشأته في بيئة إسلامية خالصة، ذات طابع عسكري بحت، فحمل سلاحه مجاهدا في العصر الذهبي للفتح الإسلامي الخالد، وبرز في ساحات القتال متحملا قسطه الأوفى من الجهاد بحرص واندفاع، وتجرد وإقدام، فقد ولد على عهد رسول الله ﷺ، ولا تصح له صحبة، ويقال له صحبة، وعلى كل حال فهو صحابي بالمولد وهو آخر من ولي المغرب من الصحابة، وقد تولى من صلب القيادة في أيام عمر بن الخطاب الذي لا يولي إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابي تحت قيادة غير صحابي.

لقد تهيأ الجو المناسب والظروف المناسبة والبيئة المناسبة لعقبة، فاجتمع في تكوينه: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، ليكون قائدا من ألمع قادة الفتح الإسلامي على الإطلاق خاصة في مناطق المغرب العربي [١].

* * *

---

(١) تاريخ قادة فتح المغرب العربي: (١ / ٩٠-٩٤).

المطلب الثاني
استشهاده

رجع عقبة إلى القيروان، فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة، أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا ويقدموا القيروان أفواجا ثقة منه بما نال من العدو وأنه لم يبق أحد يخشاه، ومال عقبة بخيل يسيره يريد «تهودة» وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا فيه، فأعلوا الحصن وشتموه وهو يدعوهم إلى الإسلام، فلم يقبلوا منه، وبعث الروم إلى «كسيلة» الذي كان في عسكر عقبة مضمرا الغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره، جمع أهله وبنى عمه، وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوي جمعه، وكان أبو المهاجر موثقا فى الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن الطريق ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا … وأترك مشدودا على وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت … مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحق بالقيروان بالمسلمين وقم بأمرهم، وأنا أغتنم الشهادة، فلم يفعل، وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة، وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بتهودة.

وهكذا كان استشهاد عقبة بن نافع رضي الله عنه سنة ثلاث وستين هجرية ٦٨٣م، في معركة تهودة، وكان مولده قبل الهجرة بسنة واحدة كما أسلفنا (سنة ٦٢١م)، وقبره يزار بالزاب، كما أن أجداث الصحابة الشهداء الذين استشهدوا معه بمكانهم من أرض الزاب يزارون لهذا العهد، وقد جعل على قبورهم أسنمة ثم جصصت، واتخذ على المكان مسجد عرف باسم عقبة، وهو في عداد المزارات [(١)].

ولا ريب أن ما أحدثه هؤلاء المعاصرون على قبور أولئك المجاهدين من الصحابة

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١١١، ١١٢).

يعتبر انحرافا واضحاً عن عقيدة عقبة وأصحابه رضي الله عنهم التي من أجلها أتوا من الجزيرة العربية إلى أفريقية وقاتلوا وقتلوا فيها، لأنه كما لا يخفى أن أصل انحراف الأمم السالفة كان مرده إلى الغلو في صالحيهم، فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة أن أم سلمة رضي الله عنهما ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها وما فيها من الصور، فقال: ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا، وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

ويقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- بهذا الصدد:

«وهذه الأصنام كانت قبور ناس صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم، وما زال الشيطان يوحى إلى عباد القبور، ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم نقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله به، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنا تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويحج إليه ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيدا ومنسكا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم وكل هذا مما قد علم بالضرورة من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث به رسول الله ﷺ»[1].

* * *

---

(١) فتح المجيد: (١٨٦).

المبحث الرابع
مناقبه رضي الله عنه

إن عقبة بن نافع رضي الله عنه قد تولى مناصب قيادية جهادية في أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وصاحب في تلك المناصب القيادية قادة أجلاء أمثال القائد البارع عمرو بن العاص رضي الله عنه في فتوحاته لأرض مصر وطرابلس، وكذلك صاحب عبد الله بن أبي السرح، ومعاوية بن حديج في معاركهما في أفريقية، وأخيراً قاد زمام المعارك والفتوحات في الشمال الأفريقي بنفسه، فجعله الله سبحانه وتعالى سبباً مباشرا في تثبيت دعائم الإسلام في تلك المناطق، فهل يا ترى يعرف أبناء هذه الشعوب «مصر، وليبيا، والسودان، وتونس، والمغرب، وموريتانيا» فضائل هذا القائد المبارك الذي بذل روحه وكل ما يملكه من أجل إيصال دعوة الإسلام إليهم؟ لذا نحاول أن نتناول بإيجاز ذكر بعض مناقبه وعملياته الجهادية، ومسيرته الدعوية وصفاته القيادية.

المطلب الأول
جهاده في مصر وليبيا والنوبة

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب:

(أ) شهد عقبة فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص واختط بها أول صرح إسلامي في الشمال الأفريقي كما أسلفنا، فاكتسب عقبة من معارك فتح مصر ومن أساليب عمرو بن العاص في إدارة القتال خبرة عملية، وبرزت مواهبه القيادية بصورة مبكرة حينذاك.

(ب) بعثه عمرو بن العاص على رأس جيش من المسلمين إلى «زويلة» ففتحها صلحا، وصار ما بين برقة و«زويلة» سلما للمسلمين، وكان ذلك سنة إحدى وعشرين هجرية، وقد كتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب يعلمه أنه قد ولى عقبة بن نافع الفهري المغرب، فبلغ «زويلة»، وأن ما بين «زويلة» و «برقة» سلم كلهم، حسنة طاعتهم، وقد أدى مسلمهم الصدقة، وأقر معاهدهم بالجزية، وأنه قد وضع على أهل «زويلة» ومن بينه وبينها ما رأى أنهم يطيقونه، وأمر عماله جميعاً أن يأخذوا الصدقة من الأغنياء فيردوها على الفقراء، ويأخذوا الجزية من أهل الذمة، فتحمل إلى مصر، وأن يؤخذ من

أرض المسلمين العشر ونصف العشر، ومن أهل الصلح صلحهم.

(جـ) وفي هذه السنة أي سنة إحدى وعشرين هجرية، بعثه عمرو إلى النوبة فلقي المسلمون من «النوبة» قتالا شديداً، ثم انصرف المسلمون من «النوبة»، وبذلك كان عقبة أول من مهد لفتح «النوبة» من المسلمين.

(د) لقد قدر عمرو بن العاص أهمية الحدود الغربية والجنوبية لمصر، لذلك بعث عقبة إلى «زويلة»، وسار هو إلى «ليبيا» وبعث عقبة إلى «النوبة» وبذلك كان لعقبة فضل كبير في تأمين الحدود الغربية والجنوبية لمصر.

(هـ) وحين كان عمرو بن العاص على مصر، كان عقبة على رأس المسلمين في حامية «برقة». وعزل عثمان بن عفان عمرو بن العاص عن مصر سنة خمس وعشرين وعقد عثمان لعبد الله بن سعد بن أبي السرح على مصر كلها مضافاً «للصعيد» وغيره، فأقره ابن أبي السرح على منصبه قائدا لحامية «برقة».

(و) سار عبد الله بن أبي السرح بجيشه الذي بلغ تعداده عشرين ألفاً، سنة ست وعشرين هجرية، فلما وصلوا إلى «برقة» لقيهم عقبة فيمن معه من المسلمين الذين كانوا حامية هناك، فساروا جميعاً إلى «طرابلس» الغرب فقاتلوا من عندها من ا لروم، وشهد عقبة فتوحات ابن أبي السرح في إفريقية، وأبلى في جهاده تحت رأيه ابن أبي السرح أعظم البلاء.

(ز) لقد كان عقبة على رأس حامية «برقة»، يحمي الحدود الغربية لمصر، فلا يدع الروم يهاجمون مصر من اتجاه ليبيا، وقد حافظ على تلك المنطقة حتى في أخطر الظروف والأحوال.

كما أنه حمى «برقة» من الروم، فأصبحت تلك المنطقة القاعدة المتقدمة للمسلمين التي ينطلقون منها إلى فتح «إفريقية»، لذلك كان عقبة قد قدم فائدة عظيمة للمسلمين من الناحية العسكرية.

المطلب الثاني

جهاده في البحر

(أ) بقي عقبة في «برقة» بعد ابن أبي السرح أيضاً في أيام معاوية بن حديج السكوني، وفي سنة تسع وثلاثين هجرية غزا عقبة الروم في البحر بأهل مصر.

(ب) وفي سنة تسع وأربعين هجرية في أيام معاوية بن حديج السكوني غزا عقبة الروم في البحر، فقضى الشتاء هناك بأهل مصر.

المطلب الثالث

جهاده في ليبيا

الفتح: بقي عقبة في «برقة» بعد عثمان بن عفان،وفي أيام علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم، وفي سنة إحدى وأربعين هجرية، استعمل عمرو بن العاص عقبة على «إفريقية» فانتهى إلى «لواتة»، وكانوا قد صولحوا على صلحهم حتى نقضوا ذلك زمن معاوية بن أبي سفيان، فغزاها عقبة فتنحوا ناحية «طرابلس»، فقاتلهم عقبة حتى هزمهم، فسألوه أن يصالحهم ويعاهدهم، فأبى عليهم وقال: إنه ليس لمشرك عهد عندنا، إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ﴾ [التوبة: ٧]، ولكن أبايعكم على أنكم توفوني ذمتي، إن شئنا أقررناكم وإن شئنا بايعناكم. وعقد عمرو لعقبة على «هوارة» فأعطوا هم و «لواتة» ثم كفروا، فغزاهم عقبة من سنته فقتل وسبى، وفي سنة اثنتين وأربعين هجرية افتتح عقبة «غدامس» وقتل وسبى.

وفي «سنة ثلاث وأربعين الهجرية» افتتح «ودان» ثانية وهي من «برقة» وذلك سنة ست وأربعين الهجرية، فقد خرج عقبة في هذه السنة حتى نزل «مغداش» من «سرت» وكانت «ودان» نقضت عهدها الذي عاهدت عليه بسر بن أبي أرطأة سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فترك عقبة جيشه في «مغداش» في أرض «سرت»، وخلف عليهم عمر بن علي القرشي، وزهير بن قيس البلوي، وسار إلى «ودان» في أربعمائة فارس وأربعمائة جمل، وثمانمائة قربة ماء؛ على كل جمل قربتان لحمل الماء، فلما وصلها أبى أهلها إلا العصيان، وعدم الطاعة، فحاربهم عقبة حتى أخضع البلاد بلدا بلدا.

ولما استتب الأمر لعقبة في بلاد «دان» سأل عقبة أهلها: هل من ورائكم من أحد؟ فقالوا له: جرمة، فسار إليها ثماني ليال من «ودان»، فلما دنا منها دعا أهلها إلى الإسلام فأجابوا فنزل منها على ستة أميال، وخرج ملكهم يريد عقبة، فأرسل عقبة خيلا حالت بين ملكهم وبين موكبه، فأمشوه راجلا حتى أتى عقبة وقد لغب، وكان ناعما، فجعل يبصق الدم، فقال له: لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا ذكرته لم

تحارب المسلمين، وفرض عليه ثلاثمائة وستين عبداً.

ومضى من فوره لإنجاز فتح بلاد «فزان» حتى أتى على آخرها، ونشر الإسلام في ربوعها، وهذه أول مرة دخل فيها المسلمون بلاد «فزان» فاتحين، وسأل عقبة أهل فزان: هل من ورائكم أحد؟ فقالوا: أهل خوار، وهو قصر عظيم على رأس المفازة في وعورة على ظهر جبل، وهو قصبة كاوار، فسار إليه خمس عشرة ليلة، فلما وصل إليها دعا أهله إلى الإسلام، فأبوا، وطلب منهم الجزية فامتنعوا بحصنهم، فحاربهم وأقام عليهم وحاصرهم شهراً دون جدوى، وتقدم بجيشه جنوباً لفتح بقية بلاد كاوار، ففتحها حتى أتى على آخرها وقبض على ملكهم وقطع إصبعه، فقال: لم فعلت هذا بي؟ فقال عقبة: أدبا لك إذا أنت نظرت إلى إصبعك لم تحارب المسلمين، ثم فرض عليهم ثلاثمائة وستين عبداً.

ولقد أقدم عقبة على التغلغل في الصحراء بقوات قليلة خفيفة، لأن الحركة في الصحراء صعبة جداً بقوات كبيرة لقلة الماء فيها، ولأن قوات الروم النظامية لن تستطيع القتال في مثل هذا الميدان، وإنما ميدانها المناطق الساحلية التي تتوافر فيها المياه والقضايا الإدارية الأخرى، فليس أمام عقبة غير قوات سكان الصحراء الأصليين، هؤلاء قليلون يمكن التغلب عليهم بقوات خفيفة قليلة كما فعل عقبة، ذلك ما حدا بعقبة على الإقدام لفتح تلك المناطق الصحراوية بقوات خفيفة منتخبة، فعلاً أنجز واجبه وحقق هدفه في الفتح الصحراوي بسهولة ويسر.

وسار عقبة بجيشه إلى المغرب، وجاب الطريق الأعظم وأخذ إلى أرض «هوارة» فافتتح كل قصر بها، ومضى إلى «صفر»، فافتتح قلاعها وقصورها، ثم بعث خيلا إلى «غدامس» فاستعاد فتحها ثانية، والظاهر أنها نقضت عهدها بعد فتحها الأول، فاضطر عقبة إلى فتحها ثانية، وتوجه إلى «قفصة» فافتتحها، ثم افتتح «قسطيلة» ثم انصرف إلى القيروان.

لقد طهر عقبة بهذا الفتح كل المقاومات المعادية بين «برقة»، و «القيروان»، فأصبحت هذه المنطقة خالصة للمسلمين، حرية أن تكون قاعدة رصينة تنطلق منها القوات الإسلامية لفتح شمال إفريقية حتى المحيط الأطلسي.

المطلب الرابع
تأسيسه أول مدينة إسلامية
في الشمال الأفريقي

قد واصل عقبة بن نافع رضي الله عنه حملته الطويلة والشاقة في تلك الصحاري الحارة، التي قد بذل فيها الغالي والنفيس من أجل إخراج أهالي تلك المناطق من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام يبتغي بذلك وجه الله سبحانه.

أقول: لقد وصل هذا البطل أخيراً إلى القيروان القديم الذي كان في مدينة قمونية، حيث بناه معاوية بن حديج رضي الله عنه، فلما نظر إلى الموقع من الناحية الاستراتيجية، لم يعجبه اختيار هذا الموقع الذي كان يقع في الوسط الشرقي لإفريقية حيث لم يكن ضاربًا في الجهة الشمالية فيكون في منعة جبلية، ولا ضاربا في الجهة الجنوبية فيكون في منعة رملية!.

لذا قرر هذا القائد صاحب النظرة الاستراتيجية أن يختار موقعاً استراتيجيا، بحيث يكون دار منعة وعزة للمسلمين وأهلهم، وقاعدة حربية لغزو القواعد الصليبية في عقر دارها، ويكون قاعدة علمية فقهية جهادية حركية لتوريث الدين القيم لمن أسلم من أبناء الشمال الأفريقي أو الجنوب الأوروبي وتثبيت دعائمه حتى لا يرتد أهالي هذه المناطق لجهلهم بالدين وتعاليمه.

فكان له خططه، فقد وقع اختياره على مدينة القيروان الحالية التي تقع قريبة من ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنه رصد الأعداء الصليبيين ومطاردتهم، ثم قربها إلى ناحية الأرض وبها سبخة، حيث يوجد بها كميات كبيرة من الأعشاب والأشجار التي تأكلها الإبل، وبهذا يكون قد أمن القضية الغذائية.

يذكر الأستاذ محمود شيت خطاب قول عقبة لرجاله: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه للإسلام، فإذا تركها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا مدينة عز للإسلام إلى آخر الدهر»، فاتفق الناس على ذلك، وأن يكون أهلها مرابطين قرب البحر ليتم لهم الجهاد والرباط.

وقال لعقبة بعض أصحابه: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين، فقال لهم: إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية فيهلكها، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر ما لا يدركها معه صاحب البحر، لأن صاحب المركب لا يظهر من اللجة حتى يستره الليل، فهو يسير إلى ساحل البحر إلى نصف الليل، فيخرج فيقيم في غارته إلى نصف النهار، فلا تدركها منه غارة أبداً، فإن كان بينها وبين البحر ما لا يجب فيه التقصير، فأهلها مرابطون، ومن كان على البحر فهم حرس لهم، وهم عسكر معقود إلى آخر الدهر، وميتهم في الجنة، فاتفق رأيهم على ذلك فقال: قربوها من السبخة، فقالوا: إنا نخاف أن تهلكنا الذئاب ويهلكنا بردها في الشتاء، وحرها في الصيف، فقال: لابد لي من ذلك، لأن أكثر دوابكم من الإبل، وهي التي تحمل عسكرنا، والبربر قد تنصروا وأجابوا النصارى إلى دينهم، ونحن إذا فرغنا من أمرها لم يكن لنا بد من المغازي والجهاد، ونفتح الأول منها فالأول، فتكون إبلنا على باب مصرنا في مرعاها آمنة من غادرة البربر والنصارى، فركب إلى موضع القيروان اليوم وكانت غيضة كثيرة الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذلك وإحراقه.

وكان مع عقبة عشرة آلاف فارس، وإنضاف إليه من أسلم من البربر فكثر جمعه فأمر ببناء القيروان سنة خمسين الهجرية، وأنجز بناءها سنة خمس وخمسين الهجرية، وبنى المسجد الجامع وبنى الناس مساجدهم، ومساكنهم وكان محيطها ثلاثة آلاف وستمائة باع فأصبحت المدينة معسكرا للمسلمين وأهلهم وأموالهم يأمنون من ثورة تكون من أهل البلاد، فقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وأمنوا واطمأنوا على المقام فثبت الإسلام فيها، وكان عقبة في أثناء عمارة المدينة يغزو ويرسل السرايا فتغير وتغنم، ودخل كثير من البربر في الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، ورسخ الدين، وصارت القيروان مدينة كبيرة وعاصمة الإسلام في المغرب، وأصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية [١].

المطلب الخامس

جهاده من القيروان إلى المحيط

وبعد أن أصبحت القيروان القاعدة الأمنية للمسلمين في شمال إفريقية، واطمأن

---

(١) قادة فتح بلاد العرب (١ / ١٠٥، ١٠٦).

عقبة بن نافع رضي الله عنه على الفتوحات التي أنجزها وفق الخطة الاستراتيجية المقررة لفتح الشمال الأفريقي، وحيث كانت بدايتها فتح برقة وسرت شرقاً،وزويلة وغدامس جنوباً، ومرورا بطرابلس، وسبيطلة غرباً، وأخيراً وقوفا بالقيروان قلب الشمال الأفريقي، حيث أسس أول مدينة إسلامية في المنطقة.

وهكذا جد السير بالقائد المبارك لتنفيذ الخطة المرسومة، فقد جهز الجيش، واستخلف على المدينة زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه إلا أن عقبة الرجل الشهيد رضي الله عنه قد أحس بأن هذه المعارك التي يريد أن يخوضها هي آخر عهده بدنيا الناس، لذلك رأى أن يجمع أهله وأولاده يلقي عليهم آخر نظرة، ويوصيهم وصية مودع، فقال لهم بعد أن جمعهم:

وصية مودع:

وهذا نص الوصية كما نقلها ابن عذاري: «فدعا بأولاده قبل مغادرته القيروان، وقال لهم: إني قد بعت نفسي من الله عز وجل، فلا أزال أجاهد من كفر بالله، ثم قال: يا بني أوصيكم ثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها، إياكم أن تملأوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن، فإن القرآن دليل على الله عز وجل، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب، ويدلكم على مكارم الأخلاق، ثم انتهوا عما وراءه، وأوصيكم ألا تداينوا ولو لبستم العباء، فإن الدين ذل بالنهار وهم بالليل، فدعوه تسلم لكم أقداركم، وأعراضكم، وتبق لكم الحرمة في الناس ما بقيتم، ولا تقبلوا العلم من المغرورين المرخصين فيجهلوكم دين الله، وفرقوا بينكم وبين الله تعالى، ولا تأخذوا دينكم إلا من أهل الورع والاحتياط، فهذا أسلم لكم، من احتاط سلم ونجا فيمن نجا»، ثم قال: «عليكم سلام الله، وأراكم لا تروني بعد يومكم هذا»، ثم قال: «اللهم تقبل نفسي في رضاك، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي عندك» [(١)].

يا خيل الله اركبي:

يقول الأستاذ خطاب: «وسار عقبة في عسكر عظيم حتى انتهى إلى مدينة «بغاية»، لا

---

(١) البيان المغرب: (١ / ٢٣).

يدافعه أحد، والروم يهربون في طريقه يميناً وشمالاً، فحاصرها، وقد اجتمعوا بها وقاتلهم قتالا شديداً، فانهزموا عنه وقتل فيهم قتلا ذريعا، وغنم منهم غنائم كثيرة، واحتمى بها المنهزمون داخل أسوار المدينة، فكره المقام عليهم.

ورحل عقبة فنزل على تلمسان، وهي من أعظم مدائنهم فانضم إليها من حولها من الروم، والبربر، فخرجوا إليه في جيش ضخم، والتحم القتال ووقع الصبر، حتى ظن المسلمون أنه الفناء، ولكنهم هاجموا الروم هجوما عنيفا، حتى ألجأوهم إلى الزاب، فسأل عن أعظم مدينة في بلاد الزاب، فقيل له: «أربة» وهي دار ملكهم، وكان حولها ثلاثمائة وستون قرية كلها عامرة، فامتنع بها من هناك من الروم والنصارى، وهرب بعضهم إلى الجبال، فاقتتل المسلمون ومن بالمدينة من النصارى، ثم انهزم النصارى وقتل كثير من فرسانهم.

ورحل عقبة إلى «تاهرت» فاستغاث الروم بالبربر، فأجابوهم ونصروهم، فقام عقبة في الناس خطيبا، حمد الله وأثنى عليه، وقال: «أيها الناس إن أشرافكم وخياركم الذين رضي الله عنهم وأنزل فيهم كتابه، بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان على قتال من كفر بالله إلى يوم القيامة، وهم أشرافكم والسابقون منكم إلى البيعة، باعوا أنفسهم من رب العالمين بجنته بيعة رابحة، أنتم اليوم في دار غربة، وإنما بايعتم رب العالمين، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلباً لرضاه وإعزازا لدينه، فأبشروا فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى، وربكم عز وجل لا يسلمكم، فالقوهم بقلوب صادقة، فإن الله عز وجل جعل بأسه على القوم المجرمين»، والتقى المسلمون بأعدائهم وقاتلوهم قتالا شديداً، فاشتد الأمر على المسلمين لكثرة العدو، ولكنهم انتصروا أخيراً، فانهزمت الروم والبربر، وأخذهم بالسيف وكثر فيهم القتل، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم.

وسار عقبة حتى نزل على طنجة، فلقيه بطريق من الروم اسمه «يليان» فأهدى له هدية حسنة ونزل على حكمه، وأراد عقبة فتح الأندلس، فقال له يليان: أتترك كفار البربر خلفك، وترمي بنفسك في بحبوحة الهلاك مع الفرنج، وتقطع البحر بينك وبين المدد؟ فقال عقبة: وأين كفار البربر؟ فقال: في بلاد السوس وهم أهل نجدة وبأس، فقال

عقبة، وما دينهم؟ فقال: ليس لهم دين ولا يعرفون أن الله حق، وإنما هم كالبهائم، وكانوا على دين المجوسية يومئذ، فتوجه عقبة، فنزل على مدينة وليلى بإزاء جبل «زرهون»، وهي يومئذ من أكبر مدن المغرب فيما بين النهرين العظيمين «سبو-رزغة» وهذه المدينة هي المسماة اليوم على لسان العامة بـ «قصر فرعون»، فتحها عقبة وغنم وسبى.

وانتهى عقبة إلى «السوس الأدنى» وهو مغرب طنجة، فقاتل جموع البربر الكثيرة، وقتل منهم قتلا ذريعا، وبعث خيله في كل مكان هربوا إليه، ثم سار حتى وصل إلى السوس الأقصى، وقد اجتمع له البربر في عالم لا يحصى، فلقيهم وقاتلهم وهزمهم، وسار عقبة حتى بلغ «ماليان»، ورأى البحر المحيط، فقال: يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك، ثم قال: اللهم اشهد، إني قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد من دونك» [1].

تأمل هذه العبارات المشحونة بحب الله ورسوله، وبروح المعاني الجهادية، وبحرارة الشهادة، وحيوية عبودية الله سبحانه وتعالى وتوحيده، فقد استشهد قائدنا عقبة بن نافع رضي الله عنه بعدما قال هذه الكلمة التي تكتب بماء الذهب وهو حينذاك ينظر إلى المحيط الأطلسي، وكان ذلك سنة ثلاث وستين الهجرية، (٦٨٣م) في معركة تهودة.

* * *

(١) البيان المغرب: (١ / ١١٠، ١١١).

المبحث الخامس

أهم صفاتـــه القياديـــة

لقد كان عقبة بن نافع رضي الله عنه مثلاً في العبادة، والأخلاق، والورع، والشجاعة والحزم، والتخطيط، والتفكير الاستراتيجي، مما جعل آراء المسلمين في عهود مختلفة لا يبغون عنه حولاً في تسلم مناصب حربية كبيرة جداً لقيادة أحذر المعارك في الشمال الأفريقي وغربه، فقد قاد حملة تأمينية على برقة لتأمين الحدود الغربية لمصر، وكان ذلك في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأوائل عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقاد حملة على إفريقية في عهد عمرو بن العاص، وعلى طرابلس في عهد عبد الله بن أبي السرح، وبقي قائدا عليهما حتى عهد علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما. لذا سوف نتناول في شخصية عقبة بن نافع أهم صفاته القيادية ومبادئه العسكرية التي أسس بنيانها في معارك الجهادية المباركة.

المطلب الأول

صفاته القيادية

لقد ذكر الأستاذ محمود شيت خطاب أهم صفات عقبة رضي الله عنه القيادية حيث قال: «كان عقبة يؤمن أن رأس سلاحه في حربه تقوى الله وحده، وكثرة ذكره، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه، وسؤاله التأييد والنصر والسلامة والظفر، وكان يؤمن أن النصر من الله جل ثناؤه، وكان يعتقد أن الانتصارات الإسلامية هي انتصارات عقيدة يحملها إلى العالم مؤمنون صادقون، ويذود عنها حماة قادرون، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم ويثقون به، وقد بلغت ثقتهم حداً جعلهم يعتقدون أنه مجاب الدعوة، فكان يتفقد أصحابه فيما يعود عليهم بالنفع، ويستزيد محسنهم بالتكرمة، ويغض الطرف عن مسيئهم في الأمور الطفيفة غير ذات البال، ويستعتب مقصرهم بحسن الأدب استعتاب مستعتب له، غير مغتنم للزلة ولا متعرض للعثرة ولا مستريح إلى كشف غامض للعورة»[1].

ويقول أيضاً: «كان ميمون النقيبة، كامل العقل، وطويل التجربة، بعيد التصوب، بصيرا، بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكايدة، يحسن تعبئة

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٠٧).

الخاصة، ويدخل الأمن عليهم والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، وكان حسن السيرة عفيفا صارما، متيقظا سخيا... وكانت له قابلية على إصدار القرارات السريعة الصائبة، ذا إرادة قوية ثابتة، وشخصية رصينة متزنة، يتحمل مسئوليته كاملة بلا تردد، وله نفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار، يعرف نفسيات مرءوسيه وقابليتهم، وله ماض ناصع مجيد» [١].

المطلب الثاني

أهم مبادئه العسكرية الاستراتيجية

لا يخفى تفرغ عقبة بن نافع للعمل الجهادي، وما كان يتمتع به من صفاته القيادية، وكفايته ومقدرته العسكرية مما جعله صاحب نظرية في المبادئ الاستراتيجية كمبدأ المباغتة وتحشيد القوات، والاقتصاد في الجهود، والالتفاف والمحافظة والمعنويات، والأساليب التعرضية، وإقامة المسالح، وتأمين خطوط المواصلات، وتذليل الأمور الإدارية، واستخدام القواعد الأمنية والاستخباراتية، والاستطلاعية، كل ذلك كان يطبقه في أعماله الجهادية وفتوحاته الإسلامية.

وينص اللواء الركن محمود شيت خطاب على ما قررناه من مبادئ استراتيجية في أعمال عقبة الجهادية وفتوحاته الإسلامية: «وعند تطبيق أعماله العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ المباغتة في حروبه، وكانت حروبه تعرضية، يعمل على «تحشيد قواته» قبل المعركة، ويقتصد بالجهود، ويطبق مبدأ «الأمن» ويعمل على «إدامة المعنويات» ويذلل «الأمور الإدارية» كافة لقواته، ويحسب لها أدق حساب، لقد كان عقبة من ألمع القادة الممتازين الذين برزوا في الصدر الأول من أيام الفتح الإسلامي» [٢].

ويقول في موضع آخر: «وبدون مبالغة ولا تحيز، فإنه من خلال هذه الفترة القصيرة، قد حقق عقبة أعمالا عسكرية باهرة بلغت حد الروعة والإعجاز، لقد انطلق بكل اندفاع وحماسة لتحقيق الآمال، آماله في فتح إفريقية من القيروان، حتى المحيط الأطلسي، وأنجز ذلك في وقت قد لا يصدقه العقل عند دراسته من الناحية العسكرية البحتة» [٣].

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٣٣).

(٢) المرجع السابق (١ / ١٣٤).

(٣) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١٣٤).

الفصل السادس

قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى

المبحث الأول

أبو المهاجر دينار

لا ريب أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار، قد كان من ضمن قيادات عقبة بن نافع الميدانية، التي قامت بحمل أعباء فتح المغرب الأدنى، والأوسط، والأقصى مع عقبة بن نافع، وبعد أن عزل معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عقبة خلال ولايته على إفريقية سنة خمس وخمسين هجرية، تم تعيين التابعي أبي المهاجر دينار بن أبي دينار رحمه الله من قبل والي مصر مسلمة بن مخلد الأنصاري واليا على إفريقية، إلا أن معاوية خليفة المسلمين بعد برهة من الزمان أعاد عقبة حيث كان، وأصبح أبو المهاجر عند ذلك جنديا من جنود عقبة بن نافع في حملته المباركة على الشمال الأفريقي.

إذن من هو أبو المهاجر؟ وما أبرز معالمه في فترة ولايته وما بعدها؟ وما أهم صفاته القيادية؟ وكيف قضى نحبه؟ كل ذلك سوف نتناوله بشيء من الإيجاز في هذا المبحث وتلك المطالب.

المطلب الأول

جهاده في فترة ولايته

لا يخفى أن أبا المهاجر دينار بن أبي دينار كان يمتاز بمزايا عسكرية ميدانية عالية، وضبط إداري رفيع المستوى، وخبرة بطبيعة إفريقية كافية، مما جعل مسلمة بن مخلد والي مصر يختاره لهذا المنصب الخطير، ويعقد له لواء الحملة.

ويقول اللواء الركن محمود شيت خطاب: «عقد مسلمة بن مخلد لأبي المهاجر على الجيش الذي خرج معه إلى إفريقية، وبعد إنجاز أبي المهاجر تدابيره الإدارية وإعداده خطط الفتح، سار بجيشه إلى قرطاجنة عاصمة الروم في شمال إفريقية، لأن الروم ما زالوا قوة في ساحل المغرب من بنزرت إلى طنجة، وأن هذا الساحل الخصب المتحضر هو مرتعهم وموطنهم، فلابد من تطهير تلك المناطق منهم ليتخلص المسلمون نهائياً من مستعمري

إفريقية القدامى، وليحولوا بينهم وبين شائعة التآمر والدس على الفتح الإسلامي.

ونازل أبو المهاجر «قرطاجنة» فاستغلقت وتحصنت بالأسوار العالية، فشدد أبو المهاجر عليهم الحصار، ولما علموا بأن المسلمين لن يبرحوا حتى يحققوا هدفهم بفتح قرطاجنة، طلبوا الصلح، فصالحهم أبو المهاجر بإخلاء جزيرة «شريك» التي كان الروم يتخذونها دوما مثابة لحشد جيوشهم فيها قبل مهاجمة المسلمين، وذلك لكي يتخذها أبو المهاجر قاعدة أمامية لجنوده يرتكز في عملياته العسكرية عليها، وبهذا أثبت أبو المهاجر بأنه ينظر بعيداً من الناحية العسكرية، فيفضل المواقع السوقية «الاستراتيجية» التي تفيده في الفتح على المال الذي كان بإمكانه أن يفرضه على أهل قرطاجنة مقابل إقرار الصلح بين الطرفين.

وفي رواية: أن أبا المهاجر بعث حنش بن عبد الله الصنعاني-صنعاء الشام-إلى جزيرة شريك ففتحها، وكان هدف أبي المهاجر في فتح جزيرة شريك أن يراقب الروم ويصدهم إذا هموا بالمسير إلى المسلمين بسهولة أثناء غزوه للبلاد، لأن بإمكان قوة الروم المرابطة في تلك المنطقة أن تهدد بسهولة ويسر خطوط المواصلات لأبي المهاجر في حالة تغلغل قواته غرباً وجنوبا» [1].

وسار أبو المهاجر مع الساحل باتجاه الغرب لا يعترض طريقه أحد، حتى وصل «ميلة» في الجنوب الشرقي لبجاية وتبعد عنها بحوالي خمسين ميلا، فوجدها مستعدة للقتال، وكان فيها طائفة من البربر والروم قد تحصنوا فيها، فنازلها أبو المهاجر وفتحها، وغنم ما فيها واستقر فيها، كانت «ميلة» تتوسط المغربين الأدنى والأوسط، فهي أحسن مكان يراقب أبو المهاجر منه أمور البربر والروم في تلك الأصقاع، فجعل أبو المهاجر ميلة مقره وأقام فيها سنتين، وكان خلال هذه المدة يتصل بالبربر وينشر فيهم الدين، ويريهم حقيقة الإسلام.

وكانت الزعامة في المغربين الأوسط والأقصى لقبيلة أوربة لكثرة عددها وغناها وحضارتها ومناعة موقعها، وكان رئيسها كسيلة بن لمزم الأوربي، وكان كسيلة قوي

---

(١) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٣٩).

الشخصية ذكي الفؤاد، غيورا على وطنه، وكان البربر يحبونه ويجلونه، وكان نصرانياً متمسكا بدينه، ورأى كسيلة أبا المهاجر في ميلة فعلم أنه لابد أن يسير لافتتاح المغرب الأوسط والأقصى، فذهب في المغربين الأوسط والأقصى يدعو البربر لمكافحة المسلمين والاستعداد لحربهم، وإجلائهم عن البلاد، واستطاع كسيلة أن يجمع جيشا من البربر والروم، فسمع أبو المهاجر بجمعه، فسار إليه.

وكان كسيلة قد عسكر بتلمسان، فقصده أبو المهاجر، والتقى الجيشان هناك، فدارت المعركة حامية بينهم، فانتصر المسلمون، وأسر كسيلة، فحمل إلى أبي المهاجر، فأحسن إليه أبو المهاجر وقربه، وعامله معاملة الملوك، وتمكن أبو المهاجر من البلاد وظفر بكسيلة، فأظفر الإسلام فاستبقاه أبو المهاجر واستخلصه، وانتهى إلى العيون المعروفة بعيون أبي المهاجر، فهو أول أمير للمسلمين وطئت خيله المغرب الأوسط، صالح أبو المهاجر بربر إفريقية وفيهم كسيلة الأوربي، وصالح عجم إفريقية، ثم رجع إلى القيروان وأقام بها [١].

المطلب الثاني

استشهاده

لقد ذكر في كتب التاريخ أن عقبة بن نافع بعد رجوعه إلى ولاية إفريقية مرة ثانية، وإزاحة أبي المهاجر عنها، قرر مواصلة الفتح من حيث توقف أبو المهاجر، وكانت آخر محطة توقف فيها أبو المهاجر أثناء حملته المباركة مدينة طنجة التي قد أسر رئيسها كسيلة، فأراد عقبة رضي الله عنه التوجه إليه بجيشه إلا أن أبا المهاجر أخبره بأن أهالي طنجة قد أسلموا، وأن قائدهم كسيلة معنا، ليس هناك عدو لنا، إلا أن عقبة رضي الله عنه كان يخشى ارتداد كسيلة وأهله، ونظرا لتجربته الطويلة مع أهالي إفريقية في نقضهم للعهود وخيانتهم للمواثيق، لذلك أعد السير بعقبة نحو طنجة وما حولها.

يقول اللواء محمود شيت خطاب بهذا الصدد: «فلما انتهى إلى ثغر إفريقية وهي طبنة أذن لمن معه من أصحابه أن يتفرقوا، وقدموا للقيروان فوجا صوب فوج ثقة منه بما نال من معظم الأرض، وأنه لم يبق أحد يخشاه، ومال عقبة بخيل يسيرة يريد «تهودة» وكان معه حوالي ثلاثمائة فارس، فلما رآه الروم في قلة طمعوا، فأغلقوا الحصن وشتموه، وهو

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١٣٩-١٤١).

يدعوهم إلى الإسلام فلم يقبلوا منهم وبعث الروم إلى «كسيلة» الذي كان في عسكر عقبة مضمرا للغدر، فلما أرسل إليه الروم أظهر ما كان يضمره وجمع أهله وبني عمه وقصد عقبة، فقال أبو المهاجر: عاجله قبل أن يقوي جمعه، وكان أبو المهاجر موثقا في الحديد مع عقبة، فزحف عقبة على كسيلة، فتنحى كسيلة عن طريقه ليكثر جمعه، فلما رأى أبو المهاجر ذلك تمثل بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن ترتدي الخيل بالقنا وأترك مشدودا عليَّ وثاقيا

إذا قمت عناني الحديد وأغلقت مصارع دوني قد تصم المناديا

فبلغ عقبة ذلك، فأطلقه وقال له: الحق بالقيروان وقم بأمر المسلمين، وأنا أغتنم الشهادة فلم يفعل ذلك، وقال: وأنا أيضاً أريد الشهادة وكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم، وتقدموا إلى البربر وقاتلوهم، فقتل المسلمون جميعهم ومعهم عقبة، وقتل معه زهاء ثلاثمائة من كبار الصحابة والتابعين في أرض الزاب بـ «تهودة».

وهكذا كان استشهاد أبي المهاجر-رحمه الله-سنة ثلاث وستين هجرية (٦٨٣م) في معركة تهودة، وقبره إلى الآن جاثم على أرض مدينة الزاب، معلما من معالم البطولة والتضحية في سبيل هذا الدين العظيم الذي رفع الناس من وشائج الطين، وروابط الدماء إلى قمم الروابط والوشائج... وشيجة الدين وروابطه، فرحم الله أبا المهاجر، الذي هجر الأوطان، والإخوان والأحباب والمال والأنساب، في سبيل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، في سماء الشمال الأفريقي، وغرسها في أرضية قلوب العباد في تلك البلاد، فأبو المهاجر ما فتئ يبذل فيها الغالي والنفيس حتى سقاها أخيراً بدمه الزكي، ودماء إخوانه الطيبين الأبرار، فهل يا ترى يعي أبناء هذه الشعوب أحفاد المجاهدين المتقين معاني كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ وهل يسعون لنشرها؟ هل يقدمون في سبيلها الغالي والنفيس، كما فعل أسلافهم من المجاهدين والعلماء من قبل؟!.

* * *

المبحث الثاني
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان أبو المهاجر رحمه الله يتحلى بصفات ومميزات لا تجدها إلا عند السادة والقادة الصالحين، مما جعلته يصف في مصف قادة الفتح الإسلامي البارزين، ومن تلك الصفات القيادية التي كان يتحلى بها، والمبادئ العسكرية التي استخدمها في حروبه الجهادية وفتوحاته الإسلامية ما يلي:

المطلب الأول
أهم صفاته القيادية

فقد كان يتحلى بتقوى الله، والتوكل عليه، والفزع إليه مخلصاً وفيا شهما غيورا، وكان يمتاز بالحكمة وبعد النظر والتعامل مع الأحداث بسياسة حكيمة، وكان محبا لرجاله ناصحا لهم محبوباً لديهم، حسن السيرة، عفيفا شجاعا سخيا، بعيد النظر، صحيح القرارات والخطط.

ويقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «لقد كان أبو المهاجر من أولئك القادة الذين يقاتلون بسيوفهم وعقولهم، ويقاتل بسيفه عندما لا يجد مفرا من ذلك، ويقاتل بعقله فيعامل الناس بالحسنى وبالسياسة الحكيمة وبالمنطق السليم، وبالعقيدة البناءة المنشأ.

لقد جعل أبو المهاجر رأس سلاحه في حربه تقوى الله، والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته بالتأييد والنصر، وكان محبا لرجاله محبوباً منهم، يثق بهم ويثقون به» [١].

المطلب الثاني
أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية

لا ريب أن المدة التي عاشها أبو المهاجر في ساحات الفداء والعمل الجهادي، قد اكسبته خبرة حربية، وعقلية استراتيجية، وكفاءة سياسية، فقد طبق خلال عمله في ساحات الفداء مبادئ حروب المدن، والعصابات، كمبدأ الحصار، والمباغتة والتعرض،

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٤٧، ١٤٨).

وتحشيد القوة، والاقتصاد في الجهود، والتعاون، والالتفات، والمرونة، والمحافظة على المعنويات وتأمين طرق المواصلات واختيار المقصد وإدامته.

يقول اللواء الركن محمود شيت خطاب معترفا بأن أبا المهاجر كان قائدا حربيا بدرجة امتياز: «كان كامل العقل، طويل التجربة، بصيرا بتدبير الحرب ومواضعها، ومواضع الفرص والحيل والمكائد، حسن التعبئة، وحسن السيرة، عفيفا صارما حذرا، متيقظا شجاعا سخيا، بعيد النظر، وصحيح القرارات والخطط.

وعند تطبيق أعمال أبي المهاجر العسكرية على مبادئ الحرب، نجد أنه طبق مبدأ «اختيار المقصد وإدامته»، فهو لم ينس أن هدفه نشر الإسلام لجعل الفتح مستداما، فهو داعية أولاً وقائد ثانيًا، وأنه طبق مبدأ «التعرض» فكانت معاركه كلها تعرضية، وأنه طبق مبدأ «تحشيد القوة» قبل البدء بحركاته، فاستفاد من كل مقاتل مسلم، ولم يبق في القيروان إلا الشيوخ والنساء، وأنه طبق مبدأ «الاقتصاد بالجهود» فلم يفرط بقواته دون مبرر، وأنه طبق مبدأ «الأمن» فلم يستطع العدو مباغتة قواته في أية معركة، وأنه طبق مبدأ «التعاون» فوحد جهود رجاله لإحراز النصر، وأنه طبق مبدأ «الأمور الإدارية» بشكل ملحوظ، لقد كان أبو المهاجر قائدا ممتازا» [(١)].

ويقول في موضع آخر: «ما فعله أبو المهاجر في مصالحة أهل قرطاجنة بغرض إخلاء جزيرة شريك التي يتخذها الروم قاعدة متقدمة لحركاتهم ضد المسلمين، حتى يحرم الروم من تلك الحيوية، وحتى يستفيد منها المسلمون كقاعدة متقدمة لهم في حركاتهم ضد الروم، لقد فضل أبو المهاجر جزيرة شريك الموقع السوقي الاستراتيجي على المال والغنائم، وهذا دون شك، قرار عسكري في منتهى الأهمية، وله دلالته الواضحة على ما كان يتمتع به أبو المهاجر من بعد النظر، وتفكير عسكري سليم» [(٢)].

ويقول أيضاً: «وفي أيام قيادته في إفريقية عانى أبو المهاجر في إفريقية حرب الحصار لقرطاجنة فأجبر أهلها على طلب الصلح والرضوخ إلى شروط أبي المهاجر، وهذا النوع من الحروب يتميز القائد الذي يعاينها بالضبط الشديد والصبر الجميل، كما عانى حروب

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٤٨).

(٢) المرجع السابق: (١ / ١٤٦).

الميدان حول تلمسان، وناهض جيوشا كثيفة للبربر، وهذا النوع من الحروب، يتميز القائد الذي يعاينها بالشجاعة والإقدام، وبالقابلية على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة، وبالحرص على جميع المعلومات عن العدو، وعن أرض المعركة وبالكفاية الممتازة في إدارة المعركة التعبوية»[١].

فرحم الله أبا المهاجر رحمة واسعة، وأدخله فسيح جناته، فقد هاجر، وثابر وصابر ورابط، وأوذي، وجاهد، واستشهد في سبيل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، وأن يكون الدين كله لله.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

* * *

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٤٧).

المبحث الثالث

زهير بن قيس البلوي رضي الله عنه

إن زهير بن قيس البلوى رضي الله عنه يعتبر من قيادات فتح الشمال الأفريقي إذ إنه كان صاحب لواء فتح مدينة تونس القديمة، وقاطع دابر فلول الروم والبربر الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، الذين تحصنوا في بعض الحصون حول مدينة قرطاجنة القديمة.

المطلب الأول

اسمه، ونسبه

هو: زهير بن قيس البلوى يكنى أبا شداد، يقال له صحبة، وجزم بعضهم بصحبته، فقال: «هو من الصحابة» شهد فتح مصر، وكان فتحها سنة عشرين هجرية ومعنى ذلك أن زهيرا ولد في أيام الرسول ﷺ وهو صحابي المولد.

روي زهير عن جماعة من الصحابة، وروي عنه جماعة من التابعين، وقد عده بعضهم من الصحابة [1] الذين شهدوا فتح مصر، لذلك نال زهير شرف الصحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول القائد، إذ من الواضح أنه كان صغيراً على عهد النبي ﷺ [2].

المطلب الثاني

جهاده

١- شهد زهير فتح مصر تحت لواء عمرو بن العاص، وغزا إفريقية ووليها، وفي سنة اثنتين وستين هجرية رد يزيد بن معاوية عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية، فاستخلف على القيروان زهيرا، وترك معه جندا تعدادهم خمسة آلاف رجل مع الذراري والأموال لإعمار القيروان والمحافظة عليها من الغزاة.

٢- ولما استشهد عقبة بن نافع الفهري في تهودة سنة ثلاث وستين هجرية قصد كسيلة بن لمزم القيروان في جمع كثير من الروم والبربر، فعزم زهير على القتال، فخالفه حنش الصنعائي وعاد إلى مصر فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى العودة معهم، فصار

---

(١) انظر، أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢ / ١١٥).

(٢) انظر: قادة فتح بلاد المغرب (١ / ١٠٥).

إلى برقة وأقام بها، وقد زحف كسيلة البرنسي إلى القيروان سنة أربع وستين هجرية، وانتزعها من يد المسلمين في المحرم، فعظم البلاء على المسلمين، فقام زهير بن قيس خطيبا في الناس فقال: «يا معشر المسلمين، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة، وقد من الله عليهم بالشهادة، فاسلكوا سبيلهم يفتح الله لكم دون ذلك».

فقال حنش الصنعاني: «لا والله ما نقبل قولك، ولا لك علينا ولاية، ولا عمل أفضل من النجاة بهذه العصابة من المسلمين إلى مشرقهم» ثم قال: «يا معشر المسلمين! من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبعني» فاتبعه الناس ولم يبق مع زهير إلا أهل بيته، فنهض في إثره ولحق بقصره ببرقة، فأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان.

وأقبل كسيلة البرنسي بعساكره، فلما قرب من القيروان، خرج من كان بها من المسلمين، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله، لعظيم ما اجتمع معه من البربر والروم، فأمن كسيلة من بقي في القيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر إفريقية والمغرب كله، وعلى من فيه من المسلمين، إلى أن ولي الخلافة عبد الملك بن مروان. ولم يقم بالقيروان من المسلمين إلا أصحاب الذراري والأثقال، فأمنهم كسيلة وثبت قدمه بالقيروان، واستمر أميرا على البربر ومن بقي بها من المسلمين وأضرم المغرب ناراً، وفشت الردة في البربر، إلى أن استقل عبد الملك بالخلافة وأذهب آثار الفتنة من المشرق، فالتفت إلى المغرب لإعادة الفتح الإسلامي المجيد.

ولما استقل عبد الملك بن مروان بالخلافة بعد قضائه على الفتنة الداخلية، كان زهير مرابطا في برقة منذ استشهاد عقبة بن نافع الفهري، فذكر عند عبد الملك من بالقيروان من المسلمين وأشار عليه أصحابه، بإنفاذ الجيوش إلى إفريقية لاستنقاذهم من يد «كسيلة»، وأن يعز الإسلام بها كما كان في أيام عقبة، فقال لهم عبد الملك: من للأمر مثل عقبة؟ فاتفق رأيهم ورأي المسلمين على زهير، وكان من رؤساء العابدين، وأشراف المجاهدين، فوجه إليه عبد الملك، وأمره بالخروج على أعنة الخيل فيمن معه من المسلمين لغزو إفريقية، فسر ذلك زهيرا وسارع إلى الجهاد.

ولكن زهيرًا كتب إلى عبد الملك يعلمه بكثرة الروم والبربر، وبقلة من معه من الرجال والأموال، فأرسل عبد الملك إلى أشراف المسلمين ليحشدوا إليه الناس من الشام وأفرغ عليهم

أموال مصر، فسارع الناس إلى الجهاد واجتمع منهم خلق عظيم، فأمرهم أن يلحقوا بزهير، فلما وصلوا إليه خرج بهم إلى إفريقية، فلما دنا من القيروان نزل بقرية يقال لها «قلشانة»، وذلك في سنة تسع وستين هجرية، فبلغ ذلك كسيلة وكان في خلق عظيم من الروم والبربر، فدعا كبارهم وأشرافهم وشاورهم وقال لهم: أرى أن ننزل بـ «ممس» لئلا يركبنا من بالقيروان فنهلك، ولأن بالقيروان خلقا كثيرًا من المسلمين ولهم علينا عهدا فلا نغدر بهم، نخاف إن قاتلنا زهيرا أن يثب هؤلاء وراءنا، فإذا نزلنا «ممس» أمناهم وقاتلنا زهيرا، فإن ظفروا بنا تعلقنا بالجبال ونجينا، كما أن الماء بـ «ممس» كثير، فأجابوه إلى ذلك، ورحل إلى «ممس» فبلغ ذلك زهيرا، فلم يدخل القيروان بل أقام ظاهرها ثلاثة أيام حتى أراح واستراح.

وفي اليوم الرابع زحف زهير في آلاف من المقاتلة، وجمع له كسيلة قبيلة البرانس وسائر البربر ولقيه بممس من نواحي القيروان، وأشرف زهير على عسكر كسيلة في آخر النهار، فأمر الناس بالنزول، فلما أصبح زحف إليه، وأقبل كسيلة ومن معه، والتحم الفريقان، فنزل الضر وكثر القتلى في الجانبيين حتى يئس الناس من الحياة، ولم يزل كذلك حتى انهزم كسيلة وقتل، ومضى الناس في طلب البربر والروم، فلحقوا كثيرًا منهم وقتلوهم، وجدُّوا في طلبهم إلى وادي ملوية -واد بطنجة بالمغرب-، وفتحت «شقبنارية» وقلاع أخرى، وفتحت مدينة تونس، وفي هذه الواقعة ذل البربر وفنت فرسانهم، ورجالهم وخضدت شوكتهم، وقتل رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وفزع أهل إفريقية واشتد خوفهم، فلجأوا إلى الحصون والقلاع، واضمحل أمر الروم فلم يعد لهم شأن يذكر، وخاف البربر من زهير والمسلمين خوفاً شديداً، وكسرت شوكة «أوربة» من بينهم، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى وملكوا مدينة «وليلى» وكانت فيما بين فاس ومكناسة، ولم يكن لهم بعد هذه الواقعة ذكر.

وعاد زهير إلى القيروان، فرأى إفريقية ملكاً عظيماً، فأبى أن يقيم بها وقال: إني ما قدمت إلا للجهاد، وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان من رؤساء العابدين وكبراء الزاهدين، فترك القيروان آمنة، انصرف عنها، وأقام بها كثير من أصحابه فترك القيروان آمنة، لخلو البلاد من عدو ذي شوكة، ورحل في جمع كثير إلى مصر، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة، فأمكنهم مما يريدون فخرجوا إليها في مراكب كثيرة وقوة عظيمة من

القسطنطينية ونهبوا، ووافق ذلك قدوم عسكر زهير، فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً بأن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم، وأشرف على الروم، فإذا هم في خلق عظيم، فلم يقدر على الرجوع، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا، والروم يدخلون المراكب، فنادي أصحابه: النزول، فنزلوا، وكان أكثرهم من التابعين، ونزل الروم إليهم، وتلقوهم بعدد عظيم، فتلاحم القتال وتكاثرت عليهم الروم فقتل زهير وأشرف من كانوا معه من العرب، ولم ينج منهم أحد، وعاد الروم بما غنموا إلى القسطنطينية [١].

المطلب الثالث

استشهاده

لقد كان زهير ﷺ من رؤساء العابدين، وأشرف المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين، شهد فتح مصر سنة عشرين هجرية، وشارك في معارك عقبة بن نافع ﷺ، وقام باسترداد إفريقية من كسيلة وقتله، ثم بعد نهايته من استرداد إفريقية بلغته معلومات خطيرة، فحواها تحشد الروم من قسطنطينية وصقلية على شواطئ برقة، ومنهم من نزل إلى برقة وقد أخذوا السبي والأموال من المسلمين.

فتوجه لتوه ناحية برقة، فلما أشرف من مرتفعات برقة على الروم ورآهم ماذا يفعلون بسبي المسلمين لم يكن له بد من خوض هذه المعركة، وأن يبذل الغالي والنفيس في شواطئ درنة، شحات، فأكرمه الله بالشهادة وثلة ممن معه في تلك المعركة، ودفنوا في مدينة درنة وقبورهم مازالت موجودة حتى الآن وتسمى مقبرة الصحابة، وكان ذلك سنة ست وسبعين هجرية، فرضي الله عنهم وأدخلهم فسيح جناته، ورحم الله زهيرا حقاً، إنه كان مجاهدا من المهد إلى اللحد.

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية وتطبيقاته الحربية

اهم صفاته القيادية:

لقد امتاز بصفات قيادية عدة منها: الشجاعة، والإقدام، والذكاء، والصبر، والنجدة،

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١٥٠-١٥٧).

والشهامة، والورع، والتقوى، والزهد، وكان يحب رجاله ويحبونه، ويثق بهم، وكان ذا تجربة طويلة عملية في الحروب، مارسها منذ قدر على حمل السلاح حتى يوم استشهاده.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «كان زهير من رؤساء العابدين وأشرف المجاهدين، صاحب فضل ودين، وكان من العباد المخبتين، وكان من العلماء المتفقهين»(١).

ويقول في موضع آخر: «لقد كان زهير من رجالات السلف الصالح: شجاعة، وبطولة، وإيمانا وورعا... نشأ زهير في بيئة مخلصة تتسم بالشجاعة والإقدام، وترعرع في أيام الجهاد الأولى، وفي العهد الذهبي للفتح الإسلامي» (٢).

تطبيقاته الحربية:

لقد طبق زهير في معاركه مبادئ حربية كثيرة منها: التحشد، والأمور الإدارية، وحماية خطوط المواصلات، وجمع المعلومات، والعمليات الاستطلاعية، والتعرض.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب بعد حديثه عن طلب زهير من عبد الملك يسأله الإمداد بالرجال والأموال: «فأرسل عبد الملك إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام، وأفرغ عليهم أموال مصر، وبذلك طبق زهير مبدأي التحشد والأمور الإدارية على أحسن وجه» (٣).

ويقول في موضع آخر: «لست أشك أن حامية منطقة برقة التي خلفها زهير وراءه لحماية تلك المنطقة من الغرب، ولحماية خطوط مواصلاته، لا يمكن أن تكون في ظلام دامس بعيدة عن الأحداث لا تهتم بالحصول على المعلومات عن نيات العدو المتربص، فلابد أن يكون له مصادر مختلفة مهمتها الحصول على المعلومات عن العدو من البربر في مختلف الأماكن والأصقاع» (٤).

اخيراً:

رضي الله عنه الصحابي الجليل، والمجاهد من المهد إلى اللحد، الذي أعاد إفريقية إلى حظيرة الإسلام، وقدم نفسه في سبيل إنقاذ أعراض المسلمين وديارهم، المجاهد الشهيد، زهير بن قيس البلوى.

---

(١) قادة فتح بلاد المغرب: (١ / ١٦٣).
(٢) المرجع السابق: (١ / ١٦٣).
(٣) المرجع السابق: (١ / ١٦٥).
(٤) المرجع السابق: (١ / ١٦٧).

المبحث الرابع
حسان بن نعمان الأزدي الغساني

بعد أن استقر ملك عبد الملك بن مروان، التفت إلى الشمال الأفريقي وأوضاعه العسكرية والسياسية، فرأى أن يندب لتحقيق أهدافه السياسية والعسكرية في تلك المنطقة حسان بن النعمان، فكتب له بقيادة الحملة على الشمال الأفريقي، فمن هو حسان بن النعمان؟

المطلب الأول
نسبه وأيامه الأولى

هو حسان بن النعمان بن عدي بن مغيث بن عمرو بن مزيقياء بن عامر ماء السماء بن الأزد، أهله الغساسنة ملوك الشام الذين كانوا موالين للامبراطورية البيزنطية قبل الفتح الإسلامي، فأسلم بعضهم وبقي بعضهم نصرانياً، فنشأ وترعرع في بيت عريق له ماض مجيد في القيادة والحكم، انتقل جده عمرو بن مزيقياء الذي كان من ملوك اليمن إلى أرض الشام، فكان من أولاده وأحفاده ملوك بني عسان.

كان حسان من التابعين، وقد حدث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكانت له مكانة مرموقة عند بني أمية وعند الناس، حتى أطلق عليه لقب: الشيخ الأمين [(١)].

المطلب الثاني
جهـــاده

١- لما بلغ عبد الملك بن مروان مقتل زهير بن قيس البلوي، وأصحابه اشتد عليه وعلى المسلمين ذلك، وكانت المصيبة بزهير وأصحابه مثل المصيبة بعقبة بن نافع الفهري وأصحابه، وسأل أشراف المسلمين عبد الملك بن مروان أن ينظر إلى أهل إفريقية، ويؤمّنهم من عدوهم ويبعث الجيوش إليهم، فقال عبد الملك.

«ما أعلم أحداً أكفأ بإفريقية من «حسان بن النعمان الغساني» ولما قتل عبد الله بن

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤ / ١٤٠).

الزبير سنة ثلاث وسبعين هجرية أصبح عبد الملك بموقف يساعده على إرسال الجيوش إلى إفريقية، إذ اجتمع المسلمون عليه، فجهز جيشا كبيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان، وسيرهم إليها في سنة أربع وسبعين هجرية، وقيل: بعد سنة ٧٦هـ.

٢- ودأب حسان على إنجاز استحضارات جيشه الذي بلغ تعداده أربعين ألفاً أقامه أولاً في مصر مدة لم يحدث، وكتب إليه عبد الملك يأمره بالنهوض إلى إفريقية ويقول له: «إني أطلقت يدك في أموال مصر، فأعط من معك ومن ورد عليك، وأعط الناس واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه».

٣- ومضي حسان في جيشه الكبير، حتى نزل طرابلس الغرب، فاجتمع إليه من كان بها، ومن كان خرج معه من إفريقية وطرابلس، فأرسل مقدمة جيشه إلى إفريقية، وعليها محمد بن أبي بكير، وهلال بن ثروان اللواتي وزهير بن قيس، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة، وهذا يدل على أنه اجتاز برقة وطرابلس دون أن يلقي مقاومة، وأن جيشه ازداد عدده بالتحاق سكان تلك المنطقة من المسلمين به، وأنه لاقى مقاومات طفيفة في طريقه من طرابلس إلى القيروان من الحاميات الرومية المتفرقة في المدن الواقعة على طريق جيش حسان، ففتح البلاد وأصاب غنائم كثيرة، وكان تولى هلال بن ثروان اللواتي، وهو أول بربري مسلم تسند إليه قيادة قوة من المسلمين، مما يدل على أن المسلمين كسبوا لأنفسهم أنصارا من أهل البلاد، يدلونهم في مسيرتهم وينصرونهم، ويقاتلون معهم جنباً إلى جنب.

٤- وما كاد حسان ينجز استحضارات جيشه من كل الوجوه، إلا وسأل أهل إفريقية: من أعظم الملوك بها قدرا؟ فقالوا: صاحب قرطاجنة «دارا» ملك إفريقية، وقرطاجنة هي المدينة العظمى، قريعة رومة وضرتها وإحدى عجائب الدنيا، وكان يومئذ بها جموع الروم لا تحصى، ولم يكن أهلها المسلمون قط حاربوها وفتحوها عنوة، بل كانوا يحاصرونها ويفرضون على أهلها مالاً أو بلادا مجاورة كجزيرة شريك.

فلما وصل حسان إلى قرطاجنة رأى بها من الروم والبربر مالاً يحصى كثرة، فقتل منهم عدداً كثيرًا، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب، فركبوا مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى الأندلس، ففتحها عنوة، فسلبها وغنم ما فيها وأرسل إلى ما حولها من العمال، فاجتمعوا مسرعين، فأمرهم بهدم قرطاجنة وقطع القناة عنها.

وانصرف حسان عن قرطاجنة عائداً إلى القيروان، فعلم أهل بواديها وأقاليمها بهروب ملك قرطاجنة عنها، فبدروا إليها فدخلوها، ورحل إليها حسان ونزل عليها فحاصرها حصارا شديداً حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلا ذريعا وسباهم، وأرسل لمن حوله فاجتمعوا إليه مسارعين خوفاً من عظيم سطوته وشدة بأسه، فلما أتوه ولم يبق منهم أحد، أمرهم بتخريب قرطاجنة وهدمها، فخربوها حتى صارت كأمس الغابر.

والظاهر أنه هدم بعض أسوارها لكي لا يحتمي بها المدافعون مرة أخرى، وقطع القناة عنها لكي يحرم المدافعين عنها من المياه العذبة، وهذان العاملان نفذهما في فتحه الأول لقرطاجنة، ومن إجرائه هذا يبدو أنه استهدف من تخريب تلك المرافق في قرطاجنة الناحية العسكرية، الحيوية فقط، حتى يحرم الروم وغيرهم من اللجوء إليها أو الدفاع عنها نهائياً، ولكنه لم يقم بتدمير مرافقها الحيوية كافة، لأن الأحداث المقبلة تدل بوضوح على أن المسلمين لم يخربوها تماماً، وإنما بقيت على درجة كبيرة من المنعة، حتى إن الروم تحصنوا بها مرة أخرى بعد ذلك بسنوات، وهذا ما يفهم من قول النويري: «فهدم المسلمون ما أمكن منها» (١).

وتنبه حسان بعد هذا الحادث إلى أن الروم مازالوا على شيء من القوة والكثرة في نواح كثيرة من المناطق المحيطة بقرطاجنة، وأنه مازالت هناك مدائن وحصون يجتمعون بها بعد أن انقطع رجاؤهم من قرطاجنة نفسها، فقد بلغه أن الروم والبربر قد اجتمعوا في «صطفورة» و «بنزرت» وهما مدينتان، فسار إليهم وقاتلهم ولقي منه شدة وقوة، ولكن المسلمين صبروا فانهزم الروم، وكثر القتل فيهم ففتح المسلمون تلك البلاد، ولم يترك حسان موضعا في تلك البلاد إلا وطأه، وخاف أهل إفريقية خوفاً شديداً، ولجأ المنهزمون من الروم إلى مدينة «باجة» فتحصنوا بها وتحصن البربر بمدينة «بونة» (٢)، فعاد حسان إلى القيروان لأن الجراح قد كثرت في أصحابه، فأقام بها حتى صحوا.

لقد كانت معركة قرطاجنة الأولى هي التي أدت إلى هروب القوة الضاربة للروم إلى الأندلس، وإلى صقلية، وإلى المناطق المحيطة بقرطاجنة، وأما المعركة الثانية ومعركة

---

(١) نهاية الأرب، (ص ٧٤ ب) نقلا عن قادة فتح المغرب (١ / ١٨٠).

(٢) بونة: مدينة حصينة بإفريقية تقع على البحر، انظر: معجم البلدان (٢ / ٣٠٩).

«صطفورة»، و «بنزرت»، فهي التي أدت إلى تشتيت فلول قوات الروم، وبعض حلفائهم البربر وكانت تلك المعارك من معارك استثمار الفوز، وطهر حسان منطقة قرطاجنة من قوات الروم الباقية ومن حلفائهم، وكان قرار حسان في الإقدام على المعركة الحاسمة قرارا صائبا؛ لأن تلك القوات لو تركت وشأنها لزاد عددها ولوجدت موطئ قدم ورأس جسر يهيئ للروم العودة مرة أخرى إلى قرطاجنة وما حولها من القسطنطينية أو من صقلية، أو من الأندلس، فيستعيدون ما خسروا من مدن ومناطق أخرى، ويجبرون المسلمين مرة أخرى على خوض معركة كبيرة لا يمكن معرفة نتائجها ولا تؤدي إلى خسائر فادحة في الأرواح والموارد، كما تؤدي إلى مضاعفات أخرى قد تعرقل ترسيخ أقدام الفتح الإسلامي في إفريقية وتؤخر إنجاز الفتح الأفريقي.

وكان قراره في العودة إلى القيروان، وإقامته فيها حتى برئت جراح أصحابه [(١)]، وأراح بها أياماً، أكمل تدابير جيشه الإدارية، كان قراره هذا صائبا، لأنه كان لابد للجرحى أن يشفوا من جراحهم، ولابد للجيش من راحة بعدما نال من رجاله طول القتال، ولابد للقضايا الإدارية من معالجة وإعداد، وبذلك أصبح جيشه حاضراً للقتال مرة أخرى.

٥- وسأل حسان أهل القيروان عمن بقي من أعظم ملوك إفريقية ليسير إليه فيبيده أو يسلم، فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها: الكاهنة، وجميع من بإفريقية من الروم خائفون منها، وجميع البربر مطيعون لها، فإن قتلتها دان ذلك المغرب كله، ولم يبق لك فيه مضاه ولا معاند، وكانت هذه الكاهنة تخبر البربر بأشياء من الغيب، ولهذا سميت الكاهنة، كانت بربرية [(٢)]، وقد اجتمع إليها البربر بعد قتل كسيلة، وهي إذ ذاك ملكة «جراوة» من قبائل البربر الكبيرة، وهي يومئذ أعظم ملوك البربر، بل هي ملكة البربر

---

(١) انظر: رياض النفوس للمالكي (١ / ٣٢).

(٢) قلت: «الكهنة هم الذين يأخذون عن مسترقي السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرين وأما بعد مبعث النبي ﷺ فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشهب وكانت ومازالت الشياطين من الجن تخبر أولياءها من الإنس، والإسلام حرم ذلك، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨] وإخبار الجن الإنس فيه كذب وزور واختلاف، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه لما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» (رواه أبو داود)، هكذا يا أخي الحبيب كانت الشعوب والقبائل والأمم قبل مجيء الإسلام في تيه وضلال وركام من التصورات الباطلة.

دون منازع، وكان لهذه الكاهنة بنون ثلاثة ورثوا رئاسة قومهم عن سلفهم، وربوا في حجرها، فاستبدت عليهم واعتزت على قومها بهم، ولما كان لها من الكهانة، فانتهت إليها رئاستهم ووقفوا عند إشارتها.

وعزم حسان على قصدها، فخرج إليها بجيوشه، ولما بلغ موضعا يقال له: «مجانة» [1] نزل بها، وكانت قلعة لم تفتح، فتحصن بها الروم، فمضى حسان وتركهم، وبلغ الكاهنة أمره فزحفت من جبل «أوراس» في عدد لا يحصى، فنزلت في مدينة «باغية» [2] فأخرجت من بها وهدمتها، لأنها ظنت أن حسان يريد حصنها ليحصن به منها، وأقبل حسان حين بلغه الخبر إلى وادي «مكناسة» [3]، فقيل له: إنها قد أقبلت في عدد لا يحصى، فقال: دلوني على ماء يسع العسكر الذي أنا فيه، فمالوا إلى نهر «نيني» [4] فنزل عليه، وزحفت إليه الكاهنة حتى أتت أسفل النهر فنزلت عليه، ودنا الطرفان من بعضهما، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار، وأبى أن يقاتلها بالليل، وبات الفريقان على مصافهم، فما أصبحوا حتى زحف بعضهم على بعض، فاقتتلوا قتالا شديداً، وعظم البلاء فظن المسلمون أنه فناء، فانهزم حسان بعد بلاء عظيم، وقتل من المسلمين خلق كثير، فسمى ذلك اليوم يوم البلاء، وسمى النهر الذي التقوا عليه: نهر البلاء، فاتبعته الكاهنة بمن معها، حتى خرج من حد «قابس» فأسلم إفريقية ومضى على وجهه، وأسرت من أصحابه ثمانين رجلاً منهم خالد بن يزيد العبسي، وكان رجلاً مذكورا، فأحسنت إسارهم، إلا خالد بن يزيد، وكان أذكر من كان مع حسان فحبسته عندها، ثم عمدت إلى دقيق شعير مقلو فأمرت فلت بزيت، والبربر تسمى ذلك «البسيسة»، وقالت لخالد: ما رأيت في الرجال أجمل منك وأشجع وأنا أريد أن أرضعك فتكون أخا لولدي، فعمدت إلى دقيق الشعير الملتوت بزيت، وجعلته على ثدييها، ودعت ولديها، وقالت: كلا معه على ثديي، ففعلا، فقالت: قد صرتم إخوة، وكانت الكاهنة من جماعة البربر لها رضاع إذا فعلوا يتوارثون بينهم [5].

---

(١) مجانة: بلد إفريقية بينها وبين القيروان خمس مراحل. انظر: التفاصيل في معجم البلدان (٧ / ٣٨٦).

(٢) باغية: مدينة كبيرة بين مجانة وقسطنطينة، انظر: معجم البلدان.

(٣) مكناسة: مدينة بالمغرب في بلاد البربر، تبعد عن مراكش أربع عشرة مرحلة من الشرق.

(٤) نيني: نهر في إفريقية، انظر: معجم البلدان (٨ / ٢٦٩).

(٥) هذه الصورة من الرضاع لا يعرفها الإسلام، ويشترط أن يكون الرضاع دون الحولين ويتحقق معه وصول لبن حقيقي إلى جوف الرضيع مما يعتبر إرضاعا، وقد اختلف الفقهاء في عدد الرضعات، وأميل إلى كونه بخمس رضعات مشبعات فما أكثر.

كما يبدو أن الإحسان إلى الأسرى كان من تقاليد البربر العريقة، حيث أنهم دأبوا على الإحسان إلى الأسرى في معاركهم السابقة، فكيف لا تحسن إليهم الكاهنة بعد معركة نيني؟ وقد يكون لتقرب خالد بن يزيد منها أثر كبير على إحسانها هذا، فمن المحتمل جد أن خالدا بذل جهوده بعد أن أصبح أسيرا عند الكاهنة لإنقاذ إخوانه الأسرى، فكان له ما أراد.

واكتفت الكاهنة بهزيمة المسلمين في جبل أوراس، ثم تتبعت حسان حتى أخرجته من حدود إفريقية، ولم تسر إلى القيروان فتقضي على المسلمين فيها وتسيطر على هذا البلد كما فعل «كسيلة» من قبل؟

لقد استخلف حسان أبا صالح على إفريقية، وقد كانت القيروان عامرة بالمسلمين، فلماذا لم تقض عليهم الكاهنة وتقض على عاصمة المسلمين في إفريقية مدينة القيروان؟

يبدو أن الكاهنة لم تكن ترجو شيئاً أكثر من خلاص منازل قبيلتها وملك أبنائها في أوراس، فاكتفت بإبعاد القوة التي كانت تهدد سلامة الأوراس وسكانها [1]، وما دام المسلمون الذين في القيروان ضعفاء مسالمين، فلا خطر على الكاهنة منهم، كما أن تهديد الكاهنة للقيروان بالدمار، وسكانها غير المحاربين بالفناء، لا يخلو من إثارة البربر المسلمين على الكاهنة مما يؤدي إلى خلق المتاعب والمشكلات لها دون مبرر.

مهما يكن من شيء، فقد بقيت القيروان على حالها لم تمسها الكاهنة بسوء، فبقي من بها من المسلمين يقوم بأمرهم أبو صالح، ولم تحفل الكاهنة لهم، وإنما عادت إلى «الأوراس» وبهذا لا نخطئ إذا وصفنا حركة الكاهنة بأنها لم تكن أكثر من ثورة محلية في ناحية من نواحي البلاد لا انتقاص تام، وكان حسان يفهم هذه الحركة هذا الفهم، ولهذا أقام في طرابلس ينتظر المدد وينظم أموره هناك [2].

٦- طفق حسان يرفق في سيره طمعاً فيمن نجا من أصحابه أن يلحقوا به، وذلك أثناء انسحابه من معركة نيني، مما يدل على أن المسلمين الذين استقروا في القيروان كانوا

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، (ص ٢٤٩).
(٢) المرجع السابق، (ص ٢٤٩)، نقلا عن قادة المغرب (١ / ١٨٦).

غير محاربين، فلما فصل من قابس كتب إليه أمير المؤمنين: «لقد بلغني أمرك وما لقيت وما لقي المسلمون، فانظر حيث لقيت كتابي هذا، فأقم ولا تبرح حتى يأتيك أمري» فلقيه الكتاب وهو نازل لمكان يقال له اليوم: قصور حسان، فبني هناك قصرا لنفسه ونزل قصورا من حيز برقة فسميت قصور حسان، وكانت «أنطابلس» و «لوبية» و «مراقية» إلى حد «أجدابية» من عمل حسان، فأقام بعمل برقة خمس سنوات [(١)].

وتوافدت على حسان فرسان المسلمين ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان، فدعا حسان عند ذاك برجل يثق به ويبعثه إلى خالد بن يزيد، فأتاه فقال له: إن حسان يقول لك: ما يمنعك من الكتابة إلينا؟ ويعث حسان مع هذا الرجل بكتاب يستعلم من خالد الأمور، فكتب خالد في ظهر كتاب حسان: «إن البربر متفرقون، لا نظام لهم ولا رأي عندهم، فاطوا المراحل وجد في السير» وجعل الكتاب في خبزة وجعلها زادا للرجل ووجهه إلى حسان، وكان خالد قد انضج الخبز فاحترق الكتاب بالنار، فقال له حسان: «ارجع إليه»، وعاد الرجل إلى خالد، فكتب إلى حسان بما كتب أولاً وأودعه قربوس [(٢)] السرج حفره ووضع الكتاب وأطبق عليه حتى استوى وخفي مكانه [(٣)].

يجدر بنا أن نتوقف قليلاً هنا، فقد بذل حسان قصارى جهوده لاستطلاع أمر الكاهنة، فاستطاع أن يحصل على معلومات قيمة عن تفرق البربر فلا نظام لهم، ولا رأي عندهم، كما أن تدابير الكتمان التي اتخذها خالد بلغت حد الروعة والإتقان، فهو يخفي رسالة إلى حسان تارة في الخبز الذي عمل على إنضاجه حتى يستوي وخفي مكانه، ولن يستطيع ضابط استخبارات ممتاز محترف في الوقت الحاضر أن يتخذ تدابير أكثر حذرا وأدق مما فعله خالد في تدابيره تلك، وبذلك استطاع أن يوصل إلى حسان علم ما يحتاج إليه [(٤)].

٧- ملكت الكاهنة المغرب كله خمس سنوات، فلما رأت إبطاء المسلمين عنها قالت للبربر: إن المسلمين إنما يطلبون من أفريقية المدائن والذهب والفضة، ونحن إنما نريد منها المزارع والمراعي! فلا أرى لكم إلا خراب كلها، حتى ييأس منها المسلمون، فلا يكون لهم

---

(١) انظر: ابن الأثير (٤ / ١٤٣). (٢) القربوس: حنو السرج.

(٣) انظر: فتوح مصر والمغرب، لابن عبد الحكم، (ص ٢٧٠).

(٤) المصدر نفسه نقلا عن قادة فتح بلاد المغرب العربي (١ / ١٨٨).

رجوع إلى آخر الدهر! فوجهت قومها إلى كل ناحية يقطعون الشجر، ويهدمون الحصون، فذكروا أن أفريقية كانت ظلا واحداً من طرابلس إلى «طنجة» وقرى متصلة، ومدائن منتظمة، حتى لم يكن في أقاليم الدنيا أكثر خيرات، ولا أوصل بركات، ولا أكثر مدائن وحصونا من إقليم أفريقية والمغرب... وخرج يومئذ من النصارى والأفارقة خلق كثير مستغيثين مما نزل بهم من الكاهنة، فتفرقوا على الأندلس وسائر الجزائر البحرية.

لقد أضر هذا العمل التخريبي بقضية الكاهنة ضرراً عظيماً، لأنه إذا كان قد وجد من أهل البلاد من يؤيدها في مناهضة العرب وطردهم من البلاد، فليس فيهم من يقف مكتوف الأيدي إزاء التخريب الذريع الذي اختارته الكاهنة للبلاد على يديها، وأخذوا يعارضون الكاهنة ويناجزونها، فاضطر الأمر بيدها، وانقلب أمر البلاد من سيء إلى أسوأ.

هكذا تضعضع سلطان الكاهنة في بلادها: إدارة سيئة، وظلم للناس، وتخريب للبلاد، وحكم مرتجل لا هدف له ولا غاية.

وقد أخطأت الكاهنة في تقديرها لأهداف المسلمين من الفتح، فقد كان هدفهم استكمال فتح البلاد ونشر الإسلام في ربوعها، فلم تكن همتهم منصرفة إلى المدائن والمزارع، وإنما إلى أهل البلاد أنفسهم، ولهذا لم يكن لعمل الكاهنة التخريبي أثر في نفس حسان ولا في سياسته، ولم تجن الكاهنة من أعمالها إلا سخط أهل البلاد عليها وتركهم إياها وميلهم إلى جانب المسلمين.

٨- هذه أخبار الكاهنة... فماذا عن الروم وحركاتهم في أفريقية بعد هزيمة حسان أمام الكاهنة؟ وفي أثناء بقائه متحفزا في صور من أرض برقة وجد الروم في خروج حسان من أفريقية فرصة سانحة لاستعادتها وبسط سلطانهم عليها من جديد، وكان الامبراطور الجديد - لينتيوس- الذي خلف جستنيان الثاني (سنة ٧٤ هـ/ ٦٩٥م) قد أهمه سقوط قرطاجنة في يد العرب وتخريب حسان لها، إذ لم يجد تسليم هذا الجزء الكبير من الامبراطورية - دون مقاومة - أمراً سهلاً على نفسه، كما يقول ديل، فما كادت أخبار هزيمة حسان على نهر نيني ترد إليه، حتى عجل بالعمل فقد أعد حملة كبيرة لأفريقية، ويبدو أنه بذل في إعدادها جهدا عظيماً، لأنه تخير لقيادتها قائدا من أشهر قواد

الدولة وأقدرهم هو البطريق يوحنا وأعد أسطولا كبيراً لنقل الجند إلى أفريقية.

وظهر الأسطول البيزنطي في مياه قرطاجنة في (سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م) وتمكن من الاستيلاء على المدينة، وضرب المسلمين الذين كانوا فيها «الذين على رأسهم أبو صالح» وقسا في معاملة من وقع تحت يده من المسلمين قسوة زائدة، حتى إنه كان ليقتل الكفار بيده -كما يقول تيوفانس ونقفور- فلما تم له ذلك، اكتفى بها وأراح في قرطاجنة طيلة شتاء هذه السنة، ولم يكلف نفسه عناء الشروع في عمل آخر [١].

٩- بهاتين الحركتين: حركة الكاهنة، وحركة البطريق يوحنا، تم انتقاص أفريقية على المسلمين، وخرجت من يدهم جملة، ولم يبق في طاعتهم شبر واحد من الأرض مما يلي قابس غرباً، وكان التقاسم بين البطريق والكاهنة سهلاً لا اختلاف فيه، أقامت هي في الجنوب في السهل الداخلي، بينما اهتم يوحنا بأن يعيد الرباط الذي يمتد من «سوسة» إلى «شقبنارية».

كان حسان في شغل شاغل لإعداد جيشه وتنظيمه وتسليحه، وإكمال قضاياه الإدارية لاستعادة أفريقية، وتوطيد أركان الإسلام في ربوعها، بينما كانت الكاهنة وكان الروم في الجهة الثانية يثيرون التذمر ويغرسون الأحقاد ويشيعون الفوضى، كل ذلك يسر لحسان استعادة فتح أفريقية وتحقيق أهداف المسلمين في أرجائها.

١٠- أقام حسان خمس سنوات على مقربة من سرت في المكان المسمى: قصور حسان، يلح على عبد الملك بن مروان لإرسال الإمدادات إليه، فلماذا تأخر عبد الملك طيلة هذه المدة عن تلبية طلبات حسان الملحة المشروعة؟

كان عبد الملك في هذه الفترة بالذات مشغولا بمكافحة الفتن الداخلية... وهكذا مرت هذه الفترة الحافلة: ثورات داخلية لابد من تحشيد الجيوش للقضاء عليها، وغزوات للروم في (سنة سبع وسبعين هجرية وثمانين هجرية)، هذه الغزوات ضرورية لأمن الدولة الإسلامية، وكل ذلك حتى لا يهاجم الروم دار الإسلام، لأن هذا الهجوم هو أنجح وسائل الدفاع كما تنص عليها نظم الحروب... وطاعون ذريع في أرض الشام لا يبقى ولا يذر...

---

(١) انظر: فتح العرب للمغرب (٢٥٤)، نقلا عن قادة فتح المغرب العربي (١ / ١٩١).

كل ذلك منع عبد الملك بن مروان من تلبية طلبات حسان الملحة لتدعيمه بالإمدادات العسكرية من أجل استعادة فتح أفريقية وقطع دابر الروم والبربر فيها.

١١- سير عبد الملك إلى حسان الجنود والأموال، وتوافدت عليه فرسان المسلمين ورجاله، حتى إذا اكتملت استحضاراته للقتال وتهيئة جيشه مادياً ومعنوياً، أمره عبد الملك بالمسير إلى أفريقية وقتال الكاهنة، فدخل حسان إليها أواخر سنة إحدى وثمانين هجرية، وبلغ الكاهنة خبره، فرحلت من جبال الأوراس في خلق عظيم، ولما اقترب حسان من الكاهنة، خرجت ناشرة من شعرها، فقالت: يا بني، انظروا ماذا ترون في السماء؟ فقالوا: نرى شيئًا من سحاب أحمر، فقالت: لا وإلهي، لكنها وهج خيول العرب، ثم قالت لخالد بن يزيد: إني إنما تبنيتك لمثل هذا اليوم، أنا مقتولة، أوصيك بأخويك هذين خيراً، فانطلق فخذ لهما أمانا! فانطلق خالد فلقي حسانا فأخبره خبرها، وأخذ لابنيها الأمان..... ثم التحم القتال واشتدت الحرب والنزال، فانهزمت الكاهنة، فاتبعها حسان حتى قتلها.

كانت هذه المعركة بين المسلمين وبين الكاهنة وجيشها في سنة اثنتين وثمانين هجرية (٧٠١م)، وبعد مقتل الكاهنة أخلد البربر إلى الطاعة، واطمأنت نفوس أكثرهم إلى الإسلام [(١)]، وبذلك قضى المسلمون على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ولم تبق أمام المسلمين غير مقاومة طفيفة من بعض قبائل البربر.

١٢- وعاد حسان إلى القيروان بعدما حسن إسلام البربر، وطاعتهم، وذلك في (شهر رمضان سنة اثنتين وثمانين هجرية) [(٢)]، ليريح جيشه وليكمل نواقص قواته الإدارية، فلما استراح جيشا وأنجز حسان استحضاراته اتجه إلى شمال القيروان إذ ما زالت هناك بقاع يحكمها الروم وقلاع يسيطر عليها البربر، وكانت جبال زغوان في شمالي القيروان وفي جنوب قرطاجنة لا تزال موطنا لمقاومة البربر والروم، ولعل قربها من قرطاجنة جعلها الخط الدفاعي الأول عن تلك المدينة، فأرسل إليها حسان مولاه أبا صالح فنازلها ثلاثة أيام دون جدوى، فأسرع إليها حسان بنفسه ففتحها صلحا.

---

(١) انظر: الفتح العربي في ليبيا، (ص ١٣٩٠).

(٢) البيان المغرب (١ / ٢٩)، نقلا عن قادة المغرب (١ / ١٩٨).

ولم يبق على حسان إلا استعادة وفتح قرطاجنة، وكان يوحنا ورجاله من الروم قد حصنوها وأعادوا ما تهدم من أسوارها، وكانوا يرقبون حركات حسان، فسار إليهم، فتحصنوا بها، وحاصرهم حسان فنشبت معركة طاحنة بين الطرفين انهزم في أعقابها يوحنا هزيمة شنيعة، فالتجأ إلى قرطاجنة محتميا بها، وانهزم الأسطول البيزنطي في موقعة كبيرة سقطت بعدها قرطاجنة في يد حسان، فأدرك اليأس البطريق يوحنا، فجمع أجناده وتولى بيزنطة، ليعود منها مرة أخرى بعدة قوى، ولكنه كان واهما لأن الظروف لم تسمح له بعد ذلك بالعودة إلى قرطاجنة قط.

كانت للروم سفن بباب النساء، فحملوا نساءهم وأولادهم ليلا، وأسلموا المدينة ولم يبق بها إلا الملك المسمى بمرياف وأهله وولده، فكتب إلى حسان: «هل لك أن تعاهدني في أهلي وولدي وأشرط لنفسي ما شئته من المنازل وأسلم لك المدينة؟».

ولم يكن للمسلمين علم بفرار الروم منها، فأجابه حسان إلى ذلك، فاشترط الأرض المسماة بمرياف، هي إذ ذاك قرى كثيرة، ثم أمكنه من المدينة فلم يجد فيها غيره، وغير أهله وولده، فوفى له حسان بما أعطاه من العهد، وأقام مرياف مالكاً لهذه الأرض، وهذه الناحية بمرياف في تونس [١].

ولما فتح حسان قرطاجنة أرسل أسطوله إلى الجزر المتصلة بساحل إفريقية ففتحها، وكان قد استمد عبد الملك بن مروان، فأمده بأسطول تحت قيادة عبد الملك بن قطن، فطهر الجزر التي كانت مكمنا للأعداء، كما بعث إلى فاس خيلا ففتحها، وبهذا خلصت إفريقية لحسان، ولم تعد هناك قوة تعارضه أو تنتقص من إمارته على البلاد، نعم، بقيت بضع نواح لم يصل إليها المسلمون بعد، وبعض قبائل لم تعلم بمقدمهم، ولكن ذلك لا يمنع من القول بأن الفتح الحربي قد تم، وأن واجب حسان الآن هو الاهتمام بنواح أخرى في تلك البلاد لنشر الإسلام، وتقرير أمور البلاد، وخراجها وشئونها وما إلى ذلك، أدرك حسان بثاقب فكره، وبعد نظره، أن استعادة فتح قرطاجنة لا يمنع الروم من الإغارة عليها بحرا مرة أخرى ولا تحصن فيها من جديد ما لم ينشئ ميناء جديداً، ويكون له أسطول بحري قوي، ولم يلبث حسان أن وقع اختياره على ترشيش، فبدأ يحصن المدينة من جديد،

---

(١) انظر: المسالك والممالك للبكري، (ص ٣٧) نقلا عن قادة فتح المغرب (١ / ١٩٩).

ويبدو أن مدينة ترشيش كان قد اضمحل أمرها، حيث بدأ المسلمون يعيدون بناءها ولم يبق منها إلا دير يقيم فيه بعض الرهبان، قد كان العرب يسمعون أصوات بعض الرهبان طوال الليل في صلواتهم ليستأنسوا بهم، فقالوا: هذه البقعة تونس، وقيل: إن المسلمين سموها تونس لجمالها، ولما تدخله من الأنس والبهجة على القلوب، وبهذا استطاع حسان أن ينشىء مدينة ثانية بإفريقية، وإذا كانت القيروان قد أصبحت من يوم أنشئت محرسا بريا ومعسكرا بحريا وميناء جديداً للبلاد يقوم مقام قرطاجنة.

وبقيام هذه المدينة، حيل بين الروم وبين إفريقية، فلم يعودوا يستطيعون النزول إلى أرضها، فأمن المسلمون شرهم وأصبح وجودهم منصرفا إلى تنظيم البلاد تمهيدا للإسلام، دون أن يزعجهم الروم بهجماتهم المفاجئة بين الحين والحين.

المطلب الثالث

إصلاحاته

أولاً: في سنة اثنتين وثمانين:

استقامت إفريقية لحسان فدون الدواوين، وصالح على الخراج، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية من البربر، ثم أوعز إليه عبد الملك بن مروان باتخاذ دار الصناعة لإنشاء الآلات البحرية حرصاً على مراسم الجهاد، ونزل موضع القيروان، وبنى مسجد جماعتها، وخطط مدينة تونس، وبدأ بنيانها، وحفر قناة تصل بحيرة تونس بالبحر.

تلك إصلاحات مهمة جداً، منها إدارية مثل بناء تونس وحفر قنواتها وبناء مسجد القيروان، ومنها إصلاحات عسكرية، كتجنيد جيش البربر، ومنها إنشاء أسطول بحري إسلامي.

ثانيًا: تدوين الدواوين والإصلاحات الإدارية:

دون حسان الدواوين، وأقام لكل وظيفة من وظائف الدولة الكبرى ديوانا فيه الكتبة والرؤساء والمسئولون، ونظم الجيش وقسمهم على الثغور وفرض لهم العطاء من بيت المال، وأقام العلم على النواحي الإدارية من خراج وزكاة وجند وما إلى ذلك مما كان

في غير إفريقية من بلاد المسلمين إذ ذاك، وأقام حسان المساجد في المدن والقرى، وأقام فيها الفقهاء للصلاة والوعظ والإرشاد والفتوى في المسائل الدينية، وأقام المدارس الابتدائية بجانب كل مسجد لتعليم أبناء المسلمين دينهم، وتحفيظهم القرآن الكريم، ويطبع على ألسنتهم بلغته، واختار حنش بن عبد الله الصنعاني عاملاً على الزكاة، وفرض حسان الجزية والخراج على من أقام على دينه من النصارى، وعين القضاة للنواحي، وأقام الحراس في النُّهُج والطرقات لحفظ الأمن، وقسم الأراضي بين قبائل البربر، فعين لكل قبيلة خطتها، وألزم كل قبيلة زراعة أرضها ودفع زكاتها لبيت مال المسلمين.

وقد عد حسان أرض البربر وبلادهم مفتوحة صلحا، لذلك أقر الأرض في أيدي البربر وجعلها لهم، واعتنى حسان بالمدن والقرى فمهد الطرق للسابلة، وأصلح القنوات للري، وجدد بناء مسجد القيروان ووسعه.

واعتنى بالقاعدة المتقدمة البحرية التي أنشأها في إفريقية، وأنشأ مرفأها «الميناء» ودار الصناعة، ولم يكن لأهل المغرب أي لغة يتفاهمون بها كلهم، وطريقة يكتبون بها ما يريدون كتابته، ولما كانت العربية هي لغة القرآن والإسلام فقد بدأوا يقبلون عليها ويتعلمونها، فجد حسان كل الجد في تعليم العربية للبربر، لأنها أصل الدين.

وضرب حسان السكة للمغرب دنانير وفلوسا، كان الناس يتعاملون بسكة القوط والبيزنطيين، وهي تحمل رسم ملوكهم وشعارات دولهم، وكان حسان قد قضى على الروم سياسيًا وعسكريًا، ويقى لهم سبب ديني يربط الطوائف النصرانية من الروم الأفريقيين ببيزنطة وهي العلاقات الكنيسية، فقطعها خوفاً من أن يتذرع بها البيزنطيون ويتصلون بالمغرب، فوصل الكنيسة القرطاجنية بالكنيسة المرقصية الأرثوذكسية في مصر وقطعها عن الكنيسة الكاثولكية في روما وبيزنطة [(١)].

---

(١) قلت: ولأهل الذمة حقوق وعليهم واجبات، بيننا وبينهم عقد يعرف بعقد أهل الذمة، وهو تأمين من أجاب المسلمين إلى دفع الجزية من الكفار وتعهد للمسلمين بالتزام أحكام الشريعة الإسلامية في الحدود كالقتل والسرقة والعرض، ويتولى عقد الذمة الإمام أو نائبه من أمراء الأجناد فقط، أما غيرهم فليس له حق في ذلك، بخلاف الإجارة والتأمين، فإنه لكل مسلم ذكرًا أو أنثى أن يجير ويؤمن، وقد أجارت أم هانئ بنت أبي طالب رجلاً من المشركين يوم الفتح فأتت الرسولﷺ فذكرت له ذلك فقال: «قد أجَرْنا من أجَرْتِ، وأمَّنا من أمَّنت يا أم هانئ» . ولأهل الذمة على المسلمين حفظ أرواحهم وأموالهم وأعراضهم، وعدم أذيتهم، ما وفوا بعهدهم ولم ينكثوه، لقولهﷺ : «من آذى ذميا فأنا خصمه يوم القيامة» فإن هم نكثوا عهدهم=

ثالثًا: مؤسس ولاية المغرب:

بهذا اكتملت الأسباب لتكون المغرب بلادا إسلامية صرفة يحكمها عامل خليفة المسلمين ويدين أهلها بالإسلام، ويتخذون العربية لغة.

وسواء أكان السبب الأكبر في ذلك هو بساطة العقيدة الإسلامية أو لم يكن، فإن المغرب الإسلامي القديم اختفى بأديانه ومذاهبه المختلفة، وحضارته الهالكة، وحل محله المغرب، أمة واحدة ذات دين واحد ولغة واحدة وحضارة واحدة، ووجهة واحدة، وكان لحسان أثر بالغ في ذلك..... ولقد كان حسان بحق المؤسس الأول لولاية المغرب الإسلامي العربي [١].

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان حسان قائدا عبقريا قام في حملته على إفريقية والشمال الأفريقي بعدة أعمال تنم عن شخصيته القيادية، فقد قضى على قوة الروم، وفتَّت قوة البربر وفتح قرطاجنة عاصمة الروم في إفريقية، وضيق الخناق على قوات الروم حتى قواتها الضاربة، ثم قاتل البربر وقضى على الكاهنة، ثم بذل قصارى جهده لنشر الإسلام بين البربر، فأصبح بين صفوفه اثنا عشر ألفاً من المقاتلين الشجعان بدلاً من أن يكون هؤلاء في صفوف أعدائه، فما هي صفات هذا القائد العبقري الفذ، ومبادئه الاستراتيجية التي طبقها في حملته الجهادية؟

= ونقضوه بارتكاب ما من شأنه نقض العهد حلت دماؤهم، دون نسائهم وأموالهم، وألا يؤخذ المرء بذنب غيره، وينقض عهد الذمة بأمور منها: الامتناع عن بذل الجزية، وعدم التزامهم بأحكام الشرع التي كانت شرطاً في العقد، وتعديهم على المسلمين بقتل، أو قطع طريق، أو تجسس، أو إيواء جاسوس للعدو، أو زنى بمسلمة، وينقض العهد أيضاً: بأن يذكروا الله ورسوله أو كتابه بسوء، أما الخراج الذي ضربه حسان على البربر فهو: ما يضرب على الأراضي التي فتحها المسلمون عنوة، فإن الإمام مخير عند احتلاله (فتحه) أرضاً بالقوة بين أن يقسمها بين المقاتلين وبين أن يوقفها على المسلمين، ويضرب على من هي تحت يده من مسلم وذمي خراجا سنوياً ينفق بعد جبايته في صالح المسلمين العام، كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتحه من أرض الشام، والعراق، ومصر، ولو صالح الإمام العدو على خراج معين من أرضه، ثم أسلم أهل تلك الأرض، فإن الخراج يسقط عنهم لمجرد إسلامهم بخلاف ما فتح عنوة، فإنه وإن أسلم أهله فيما بعد، يستمر مضروبا على تلك الأرض.

(١) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٧٢، ٢١٥).

أهم صفاته القيادية:

لقد كان حسان رجلاً عاقلاً رزينا مخلصاً وفيا، صادقاً، نقيا، ورعا، أميناً حتى كان يسمى: الشيخ الأمين، وكان يتمتع بصفة بعد النظر، واستخدام العقل في محل العقل، والسيف في محل السيف، شجاعا، مقداما، شهما، ذكيا فطنا متيقظا، له القدرة على إعطاء القرارات السريعة الصحيحة.

أهم مبادئه الحربية:

مبدأ جمع المعلومات عن العدو، مبدأ اختيار المقصد وإدامته، مبدأ التعرض، مبدأ المباغتة، مبدأ تحشيد القوات، مبدأ الاقتصاد بالجهود، مبدأ إدامة المعنويات، مبدأ الأمور الإدارية [(١)].

المطلب الخامس
استشهاده

لقد مكث حسان أميرا على إفريقية قرابة اثنتي عشرة سنة، قائدا، مقاتلا، عبقريا، وسياسيا ماهرا، حتى تم عزله في ولاية عبد العزيز بن مروان أخي عبد الملك خليفة المسلمين لولاية مصر، وكان ذلك سنة خمس وثمانين هجريا، وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فاستشهد في تلك الغزوة.

يقول الأستاذ محمود شيت خطاب: «وقد لزم حسان بيته بعد عزله، ثم غزا بلاد الروم فمات هناك.... وفي رواية: أنه توفى سنة ثمانين هجرية غازيا في أرض الروم» [(٢)].

ولكن هل بعد استشهاده ينسى التاريخ هذا القائد البطل، والسياسي العبقري وما سطره بعرقه ودمه من فتوحات في سبيل نشر هذا الدين القويم؟ أليس يذكر التاريخ له أنه: «خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد الروم وقضى على آمالهم نهائياً في البقاء في إفريقية، ويذكر له أنه خاض معركة حاسمة من الدرجة الأولى ضد البربر، فأصبحوا بعدها مع المسلمين لا عليهم، ويذكر له أنه فتح قرطاجنة فحرم الروم من

---

(١) قادة فتح المغرب: (١ / ٢١٨، ٢١٩).

(٢) المرجع السابق: (١/ ٢٠٥).

عاصمتهم التي كانت في نفس الوقت القاعدة الأمنية لهم في إفريقية.

ويذكر له أنه فتح مدينة فاس، ويذكر له أنه نشر في ربوع إفريقية الإسلام بين البربر، ويذكر له أنه أنجز إصلاحات حيوية في إفريقية، كانت ولا تزال الجذور العريقة لبقاء هذه البلاد إسلامية، ويذكر له، أنه جعل الفتح الإسلامي في إفريقية فتحا «مستداما» صمد أمام الغزو العسكري الغربي، وأمام الغزو الفكري الغربي، وتحمل من أجل الحفاظ على عقيدته وإسلامه كثيرًا من التضحيات بالأرواح والأموال، رضي الله عن التابعي الجليل، السياسي المحنك، الإداري الحازم، الداعية الحصيف، البطل الشجاع، المفكر الفذ، القائد الفاتح، حسان بن النعمان الغساني»[1].

صدق قول الشاعر إذ يقول:

على قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تأتِي العزائم ... وتأتِي على قَدْرِ الكِرَامِ المكَارمُ

وتعظُم في عين الصَغِير صغارها ... وتصْغُر في عَيْنِ العَظِيم العظائمُ

* * *

(١) قادة فتح المغرب (١ / ٢٢٠).

المبحث الخامس

موســـى بن نصيــر اللخمي

تولى موسى بن نصير رحمه الله، منصب والي إفريقية والمغرب سنة اثنتين وثمانين هجرية بعد عزل القائد العبقري حسان بن النعمان عن ولاية تلك المنطقة.

المطلب الأول

اسمه ونسبه وميلاده ونشأته

اسمه ونسبه:

«هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد، ويكنى أبا عبد الرحمن من بني لخم، ويقال له: إنه مولى لخم، وقيل: إنه من أراشة من بلى، ويذكر أولاده أنه من بكر بن وائل، وغيرهم يقول: إنه مولى.

إنه عربي، أبوه نصير كان اسمه نصرا فصغر، كان من بين سبايا «عين التمر» الذين سباهم خالد بن الوليد المخزومي سنة اثنتي عشرة هجرية، فقد وجد خالد أربعين غلاماً يتعلمون الإنجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم، وقال: ما أنتم؟ فقالوا: رهبان، منهم نصير أبو موسى بن نصير، وكان نصير ينسب إلى بني «يشكر»، فقسمهم خالد في أهل البلاد، فأصل موسى من عين التمر، وقد أعتق نصيرا بعض بني أمية، فرجع إلى الشام، ثم أصبح على حرس معاوية وعلى جيوشه، وكانت منزلته عنده مكينة» [١].

ميلاده ونشأته:

«ولد موسى سنة تسع عشرة هجرية (٦٤٠م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقربة يقال لها «كفر متري» ونشأ في بيت له صلة مباشرة بالجندية، قريباً من قادة الفتح الإسلامي، وقادة الفكر الإسلامي في الشام دار الخلافة بتماس شديد بمعاوية بن أبي سفيان، ومن حوله من قادة الفتح والفكر، بكنف أبيه نصير الذي كان يمتاز بالجرأة والصراحة والورع، فكان لكل ذلك أثره البالغ في حياة موسى قائدا وإنسانا» [٢].

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤ / ٤٩٦).
(٢) قادة فتح بلاد المغرب (١ / ٢٢١، ٢٢٢).

وعندما اشتد عوده، وظهرت عليه بوادر النجابة والحيوية، وأكسبه الزمان تجربة وعلما، ولاه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أيام خلافته البحر، فغزا قبرص وبني هناك حصونا مثل «الماعوصة» و «بانس» وغير ذلك من الحصون التي بناها في «قبرص» وكان نائب معاوية عليها، وكان معاوية قد فتح «قبرص» سنة ثمان وعشرين هجرية، وفي سنة أربع وستين شهد موسى معركة «مرج راهط» مع الضحاك بن قيس الفهري الذي كان يدعو سراً إلى عبد الله بن الزبير ثم دعا إلى نفسه، فلما قتل الضحاك وانتصر عليه مروان بن الحكم، لجأ موسى إلى عبد العزيز بن مروان، فحماه وأنقد حياته من خطر داهم، وبذلك ابتدأت الصلة الوثيقة بين عبد العزيز بن مروان وموسى بن نصير، ثم أصبح بعد ذلك وزيرا ومستشارا لوالي مصر عبد العزيز بن مروان، ولما تولى عبد الملك الخلافة عمل موسى مساعدا لأخيه بشر بن مروان على الكوفة والبصرة، ثم تولى أمور العراق، ثم عزل، وجاء الحجاج فخاف موسى بن نصير منه، فذهب إلى عبد العزيز بن مروان الذي أصلح ما وقع من جفوة بين موسى بن نصير وعبد الملك بن مروان.

المطلب الثاني

جهاده في البـــر

بعد أن عزل عبد العزيز بن مروان والي مصر حسان بن النعمان وإلى إفريقية ولي مكانه موسى بن نصير، وكان ذلك في أواخر سنة خمس وثمانين هجرية أو في أوائل سنة ست وثمانين هجرية.

أولاً: عندما توافدت الجيوش، قام موسى بن نصير خطيبا، فكان مما قاله: «وإنما أنا رجل كأحدكم، فمن رأى مني حسنة، فليحمد الله، وليحض على مثلها، ومن رأى مني سيئة، فلينكرها، فإني أخطئ كما تخطئون، وأصيب كما تصيبون، وقد أمر الأمير أكرمه الله لكم بعطاياكم وتضعيفها ثلاثاً، فخذوها هنيئا مريئا، من كانت له حاجة فليرفعها إلينا، وله عندنا قضاؤها على ما عز وهان، ومع المواساة إن شاء الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله»، وهكذا أنجز موسى قبل أن يدخل إفريقية، حشد جيشه وأكمل استحضاراته الإدارية، وساوى نفسه برجاله، وأعطاهم ما يستحقون من أعطيات وضاعفها لهم ثلاثاً، وفتح بابه على مصراعيه لتلبية احتياجاتهم كلها، لقد بدأ موسى بداية موفقة جداً في

تحمل مسئوليته الجسيمة.

ثانيًا: سار موسى متوجهاً إلى المغرب، وكان الأمن هناك غير مستتب، فلما وصل إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان بن النعمان على إفريقية، وجد أن البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فجمع الناس وألقى فيهم خطاباً بين فيه بوضوح الخطوط العريضة لسياسته العامة في الفتح، قتال العدو القريب أولاً، حتى إذا انتهى من أمره تغلغل بعيداً بالتدريج لقتال العدو البعيد.

ثالثًا: تنفيذا لهذه الخطة العسكرية، بدأ باستعادة جبل «زغوان»، وما حوله، وبينه وبين القيروان مسيرة يوم كامل، وبنواحي زغوان قبائل من البربر، فبعث إليهم موسى خمسمائة فارس، فاستعاد فتح زغوان وسبى، فكان ذلك السبي أول سبي دخل القيروان، كما وجه ابنه عبد الله بن موسى إلى بعض نواحي إفريقية فأتى بسبي كثير، ثم وجه ابنه مروان فأتى كذلك بسبي كثير، واستطاع موسى بن نصير أن يقضي على جيوب المقاومة في إفريقية وخضعت له قبائل البربر، وجعل من منطقة القيروان حولها قاعدة أمنية ينطلق منها وهو آمن على خطوط مواصلاته، لتنفيذ خططه في الفتح متغلغلا في المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وبعد أن تم لموسى إخضاع المغرب الأوسط من صحراء درعة إلى السوس الأقصى إلى بلاد المصامدة، تطلع موسى نحو طنجة التي كانت تخضع للأمير الرومي يليان «جوليان» منذ أيام عقبة بن نافع.

رابعًا: خرج موسى من القيروان لفتح طنجة، وجعل على مقدمته مولاه طارق ابن زياد، فلم يزل يقاتل ويفتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة وهي قصبة بلادهم وأهم مدائنهم، فلما دنا موسى من طنجة بث السرايا، فانتهت خيله إلى السوس الأدنى فوطئهم وسباهم، وأدوا إليه الطاعة، وولى عليهم واليا فأحسن فيهم السيرة، وحاصر موسى طنجة حتى افتتحها ونزلها، وهو أول من نزلها واختط فيها للمسلمين، فأسلم أهلها وخطها موسى قيروانا للمسلمين، وسار موسى إلى مدائن على شط البحر فيها عمال لصاحب الأندلس، قد غلوا عليها وعلى ما حولها، ورأس ذلك المدائن «سبتة» وعليها يليان «جوليان» فقاتله موسى، فألقاه في نجدة وعدة وقوة فلم يطقه، فرجع إلى مدينة طنجة وأقام هناك بمن معه، وأخذ في الغارات على من حولهم والتضييق عليهم، والسفن

تختلف إليهم بالميرة والإمداد من الأندلس من قبل ملكها غيطشة، فهم يذبون عن سبتة ذبا شديداً ويحمون بلادهم حماية تامة وكانت سبتة مدينة حصينة قريبة من الأندلس، مما ساعد على صمودها بوجه المسلمين الفاتحين.

وكان بطنجة من البربر بطون البتر والبرانس من لم يكن دخل في الطاعة، فوضع موسى على ساحل طنجة حامية للرباط مؤلفة من ألف وسبعمائة رجل عليهم ابنه مروان، ولكن مروان انصرف وخلف على جيشه طارق بن زياد، وبذلك تم فتح المغرب الأقصى إلا إقليم سبتة، وانتشر الإسلام فيه، عاد موسى إلى القيروان بعد أن استعمل على طنجة وأعمالها مولاه طارق بن زياد، وترك عنده تسعة عشر ألفاً من البربر بالأسلحة والعدة الكاملة، وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم، وترك موسى عندهم خلقا يسيراً من العرب ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام.

المطلب الثالث

جهاده في البحر

(١) مهد موسى لجهاده في البحر بالاهتمام بعمران مدينة تونس وتوسيع دار الصناعة بها، وشق القناة التي توصل بين الميناء «رادس» وبين المدينة على طول أثنى عشر ميلا حتى أقحمه دار الصناعة، صارت مشتى المراكب إذا هبت الأنواء بالرياح، حيث أمر بصناعة مائة مركب.

(٢) أمر موسى بالتأهب لركوب البحر، وأعلمهم أنه راكب بنفسه، فرغب الناس وتسارعوا فلم يبق شريف ممن كان معه إلا وقد ركب الفلك، فعقد موسى لواء هذه الغزوة لابنه عبد الله بن موسى بن نصير، وولاه عليهم وأمرهم وأمره، ثم أمره أن يتوجه إلى هدفه. إنما أراد موسى بما أشار من مسيره، أن يركب أهل الجلد، والنكاية والشرف، فسميت هذه الغزوة غزوة الأشراف، وسار عبد الله بن موسى بن نصير في مركبه، وكانت تلك الغزوة أول غزوة غزيت في بحر إفريقية «البحر الأبيض المتوسط» فأصاب في غزوته تلك صقلية، افتتح مدينة فيها، فبلغ سهم الرجل مائة دينار ذهبا، وكان المسلمون ما بين الألف إلى التسعمائة، ثم انصرف قافلا سالما، وكان ذلك في سنة خمس وثمانين هجرية.

(٣) وبعث موسى عياش بن أخيل على مراكب أهل إفريقية، فشتا في البحر، وأصاب مدينة يقال لها: «سرقوسة» ثم قفل في سنة ست وثمانين هجرية، وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد بعث عطاء بن أبي نافع الهذلي في مراكب أهل مصر إلى «سردانية» فارسي بـ «سوسة» فأخرج إليه موسى ما يحتاجه من الأمور الإدارية «الأرزاق، وسلاح، وتجهيزات» وكتب إليه: إن ركوب البحر قد فات في هذا الوقت وفي هذا العام، فلا تغرر نفسك، فإنك في «تشرين الآخر» فالزم مكانك حتى يتيسر ركوب البحر، فلم يكترث عطاء بنصيحة موسى، وشحن مراكبه ثم رفع متوجهاً إلى هدفه،وفي سردانية غنم المسلمون غنائم ضخمة، ثم انصرف قافلا فأصابته ريح عاصف، فغرق عطاء وأصحابه.

وفي سنة تسع وثمانين هجرية عقد موسى لعبد الله بن مرة على بحر إفريقية فأصاب «سردانية» وفتح مدائن، فبلغ سبيها ثلاثة آلاف رأس سوى الذهب والفضة والمواد الأخرى، وفي سنة تسع وثمانين هجرية جهز موسى ولده عبد الله فافتتح جزيرتي «ميورقة» و «منورقة» وهما جزيرتان في البحر بين صقلية وجزيرة الأندلس.

المطلب الرابع

جهاده في الأندلس

(١) كان فتح الأندلس نتيجة طبيعية لتمام فتح المغرب، لأن الأندلس هو الجناح الغربي للمغرب، ولأن الأندلس كان المجال الحيوي للفتح الإسلامي بعد إنجاز فتح المغرب الأفريقي، واستقرار الفتح فيه بانتشار الإسلام، وبوجود القوة الضاربة في جانب المسلمين، ولم يستعص على موسى غير مدينة سبتة لمناعتها ووصول الإمدادات إليها من أسبانيا القوطية عن طريق البحر، وكان يحكمها من قبل القوط في إسبانيا حاكم اسمه جوليان، ويسميه المسلمون يليان أو يوليان، وقد اختلفت المصادر في شخصية يوليان هذا، فبعضها يذكر أنه قوطي، وبعضها يزعم أنه روسي، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة... وبدأت حركة استقلالية في أطراف البلاد ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس.

(٢) غزوة طريف:

وكان موسى يتوق إلى فتح الأندلس، وكان عامله على طنجة هو طارق بن زياد

يتطلع إلى الأندلس أيضاً، وبينما كان موسى يرقب الفرص لتحقيق هذا الأمنية، إذ جاءته رسالة من «يليان» يعرض فيها تسليم معقله «سبتة» ويدعوه إلى فتح إسبانيا، وجرت بينهما المفاوضة في هذا المشروع الخطير، وهنا تختلف الرواية في هذا الاتصال، فيقال إن موسى ويليان اتصلا بالمراسلة، وقيل: إنهما اتصلا بالمقابلة الشخصية، وإن يليان هذا استدعى موسى إلى سبتة وهناك جرت المفاوضات بينهما، وقيل: إنهما اجتمعا في سفينة في البحر، وعلى أي حال فقد استجاب موسى لدعوة يليان، وكان هدف يليان الانتقام من لذريق الذي اعتدى على ابنته، وكذلك الوفاء لغيطشة صديقه الوفي الملك السابق قبل لذريق.

واهتم موسى بمشروعه اهتماما كبيراً فكتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر هذا المشروع، فكتب إليه الوليد بأن يختبرها بالسرايا، وألا يغرر بالمسلمين، فبعث موسى رجلاً من البربر يسمى طريفا، ويكنى بأبي زرعة، في مائة فارس وأربعمائة راجل، فجاز في أربعة مراكب حتى نزل ساحل البحر في الأندلس فيما يحاذي طنجة، وهو المعروف اليوم بـ «جزيرة طريف»، سميت باسمه لنزوله هناك، فأغار منها على ما يليها إلى جهة الجزيرة الخضراء، وأصاب سبايا ومالا كثيرًا، ورجع سالما.

(٣) فتح طارق:

وفي رجب سنة اثنتين وتسعين الهجرية (أبريل ٧١١م) جهز موسى جيشا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثي، فعبر البحر من سبته بجيشه تباعاً في سفن يليان، ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التي لا تزال تحمل اسمه حتى اليوم، أعني «جبل طارق»، وتوالت انتصارات طارق، ففتح مدينة قرطاجنة الجزيرة، ثم زحف غرباً وفتح المنطقة المحيطة بقرطاجنة، وأقام قاعدة حربية في موضع يقابل «الجزيرة الخضراء»، وعليه أقيمت هذه المدينة فيما بعد، وبعد معارك محلية أكمل المسلمون فتح الجزيرة الخضراء وسيطروا على المجاز إلى الأندلس، فزحف لذريق لصد المسلمين، فكتب طارق إلى موسى بأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به، فأرسل إليه موسى مددا من خمسة آلاف من المسلمين وعلى رأسهم طريف بن مالك، وأغلبهم من الفرسان، وبهم كملت عدة من مع طارق اثنى عشر ألفاً.... التقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ رمضان

سنة اثنتين وتسعين هجرية (١٩ تموز-يوليو سنة ٧١١م) على وادي «برباط» أو وادي «لكة» قرب مدينة «شذونة»، واستمرت المعركة ما يقرب من ثمانية أيام، وانتهت بهزيمة القوط هزيمة ساحقة، كانت هذه المعركة هي المعركة الحاسمة التي فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

أحدث انتصار طارق في وادي «لكة» دويا هائلا في المشرق والمغرب، وتسامع الناس مع أهل بر العدوة بالفتح على يد طارق بالأندلس وسعة الغنائم فيه، فأقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب، فلحقوا بطارق.

وبدأ طارق يجني ثمار جهده وانتصاره في وادي لكة ففتح «شذونة» عنوة، ثم مضى إلى «المدور» ثم عطف على «قرمونة»، ثم اتجه إلى إشبيلية فصالحه أهلها على الجزية، ومنها زحف إلى «إستجة» وكانت تؤلف المركز الأول للمقاومة، إذ كانت فلول القوط قد تجمعت هناك، فظفر طارق بصاحب المدينة وأرغمه على الصلح وفرض عليه الجزية.

وفرق طارق جيشه من «إستجة» فبعث مغيثا الرومي مولى الوليد بن عبد الملك إلى قرطبة في سبعمائة فارس، وبعث جيشا آخر إلى «مالقة»، كما بعث جيشا ثالثا إلى «ألبيرة» أما هو فسار إلى كورة «جيان» بمعظم جنوده في طريقه إلى «طليطلة» وعبر طارق الوادي الكبير فدخل «طليطلة» سنة ٩٣ هجرية دون مقاومة تذكر.

لقد تغلغل طارق تغلغلا عميقا في أنحاء الأندلس، بشكل لا يتناسب مع ما لديه من قوات، فماذا كان رد فعل موسى بن نصير القائد العام بالمغرب كله، والمسئول الأول تجاه القائد الأعلى في الشام [١].

(٤) خطبة طارق الشهيرة:

«أيها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، وليس والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه، وأسلحته وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات لكن إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم

---

(١) قائد فتح المغرب (١/ ٢٤٠، ٢٥١).

ولم تنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العافية من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقت به إليكم مدينته الحصينة، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أمرًا أنا عنه بنجوة، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النكوص، إلا وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم فيه بأوفى من حظي. وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عزبانا، رضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا، ثقة منه باريحيتكم للطعان، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، وليكون غنيمة خالصة لكم من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالى ولي أنجدكم على ما يكون لكم ذكرًا في الدارين، واعلموا إني أول مجيب إلى ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعوزكم بطل عاقل تسندون أموركم إليه، وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلفوني في هزيمتي هذه واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يخذلون» (١).

قلت: تضاربت الأقوال في صحة نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فقد ذهب المؤرخ الشامي شوقي أبو خليل إلى إثباتها، وعلق على هذه الخطبة فقال: يحلو لبعض المعاصرين التحذلق فقالوا: طارق بربري.. فلا يعقل مطلقًا أن يخطب خطبة محبوكة فصيحة مثل هذه الخطبة الرائعة، التي وازن فيها في ترغيب ساحر أخاذ بين الدين والدنيا.

فأي موجب للشك في نسبة هذه الخطبة لطارق، وطارق اشتهر في قومه بالفصاحة.. ماذا يفيد الارتياب في أمر تتشابه دلائل عديدة في مراجعنا وبشكل صريح، علمًا أن الأدلة لا تتكامل على نقضه. ففي نفح الطيب، وصف لطارق يقول: «إن طارقا كان حسن الكلام، ينظم ما يجوز كتبه».. علمًا أن والد طارق «زياد» أسلم منذ أيام عقبة بن نافع.. لذلك شب طارق في بيت مسلم، لقنه تعاليم الإسلام، أبوه من ناحية، وموسى من ناحية ثانية.

---

(١) نفح الطيب (١/ ٢٢٥).

عجبًا للأجانب شرقيهم وغربيهم، إن وجدوا في تاريخهم قصة أو قولاً أو حادثة تنهض بجيلهم، وتثبت في نفوس النشء روحا وتربطهم بأمتهم وذاتيتهم، صححوها وإن لم يروا إلا مرجعا واحدًا من مراجعهم، بل قد يختلقون أحداثا، وينسجون قصصا يلصقونها برجالاتهم لما في ذلك من مصلحة للجيل وفائدة لنشء، وخير الأمة، وعجبا لنا.. ما بالنا؟! مراجعنا تذكر أن طارق كان حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، وترعرع في بيت مسلم يتلى فيه قرآن كريم، ثم يأتينا من يقول: ما أظن، وكان اجتيازه البحر في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين هجرية (٧١٠ م) [١].

المطلب الخامس

طارق بن زياد في سطور

اسمه ونسبه:

أورد ابن عذاري المركشي، صاحب «البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب» نسب طارق بن زياد فقال: «هو طارق بن زياد بن عبد الله بن لغو بن ورقجوم بن نير عضن بن وهاص بن يطوفت بن نفزاو.. فهو نضري» [٢].

وفي دائرة معارف الشعب جاء: «وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله -أصل طارق- فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسا همذانيا، وذهب فريق آخر ومنهم الحميدي صاحب جذوة المقتبس إلى أنه كان بربريا من إفريقية، ومن قبيلة نفزة البربرية، وأنه لم يكن بربري الأصل، وإنما كان ينتسب إلى الصدقة» [٣].

وذهب شوقي أبو خليل إلى أنه: «كان بربري الأصل.. فقد قيل: إنه طويل القامة، ضخم الهامة، أشقر اللون، وتنطبق هذه الصفات على عنصر «البربر»، إن الأدلة الصادقة تؤكد نسبة طارق إلى البربر.

قلت: وإخواننا المسلمون من البرابرة أبطال وشجعان تربوا في أحضان القرآن، وأشربت قلوبهم تعاليمه، وأصبحوا أصحاب رسالة خالدة صنعت منهم الأبطال على مر

---

(١) قادة فتح العرب (١/ ٢١٤).
(٢) البيان المغرب (١/ ٤٣).
(٣) دائرة معارف الشعب (٢/ ٢٣٧).

العصور والأزمان، فهم إلى الإسلام منتسبون وبه يعتزون، وما تقوم به المنظمات النصرانية واليهودية، والدول الغربية من إحياء النعرات البربرية والعربية في أوطاننا ما هي إلا هباء منثورا، وستتحطم جهودهم على صخرة الإسلام الخالدة، والأيام كفيلة بذلك.

إن إخواننا البرابرة عندما أكرمهم الله بالإسلام قدموا كل ما يملكون في سبيل عقيدتهم ودينهم، بل نستطيع أن نقول إن الجيوش الإسلامية الضاربة التي اصطدمت بالإسبان اعتمدت بعد الله على إخواننا البرابرة الذين اندفعوا خلف طارق في سبيل هذا الدين ونشره للعالمين، إن هذه العقيدة صهرت المتتسبين إليها عربا وعجما في بوتقة الإسلام العظيمة، أي بربري يستطيع أن يقول ما قيل في الخطبة، وهل من الضروري أن يكون جده عنترة أو زهير بن أبي سلمى، أو عمرو ابن كلثوم حتى يقول ما قيل في الخطبة؟ هات طفلا من الصين أو من أواسط أفريقية، أو من صحراء نيفادا، وأنشئه على تلاوة وحفظ القرآن، كما نشأ طارق لخرج خطيبا مصقعا حسن الكلام ينظم ما يجوز كتبه، فما بالنا نشكك في خطبة طارق؟! [1].

ويقول شوقي أبو خليل أيضًا: إنني مازلت أتذكر أيام الطفولة، أيام الصف الرابع الابتدائي عندما كانت هذه الخطبة ضمن برنامج القراءة، تعلوها صورة خيالية لطارق يخطب في الجموع، والسفن تحترق في المضيق، مازلت أذكر شعورنا عندما شرح المعلم لنا فتح الأندلس، وقصة حرق السفن والخطبة، لقد عشنا لحظات كأننا ننظر إلى الحادثة تقع أمامنا، ومازلت أحفظ قسما من الخطبة حتى يومنا هذا، وإن لم يكن حفظها غيبًا، وما رددت كلماتها إلا وشعرت بعزة وبروح معنوية تدب في النفس، مع كبرياء القلب، وفخر بتاريخ إسلامي مجيد [2].

مناقشة إحراق السفن:

وشك آخر يذكره كثيرون، عما اشتهر عن إحراق طارق لسفنه، ولحن نذكر في هذا الصدد ثلاث نقاط تدعونا للتفكير مليا قبل رفضنا فكرة الإحراق.

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد (٤٥، ٤٦).

(٢) المصدر نفسه (٤٤، ٤٥).

يقول شوقي أبو خليل:

(١) لم تتضافر الأدلة على تدعيم الشك أو ترجيحه والعكس صحيح، تتضافر الأدلة على تدعيم الإحراق.

(٢) وفي رواية ابن حبان، الموصوف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس وأفصح الناس بالتكلم فيه، وأحسنهم تنسيقا له، عندما ذكر المدد الذي أرسله موسى لطارق، قال: «وكان عمل من السفن عدة» أي جاء المدد على سفن غير السفن التي أقلت طارقا وجنده إلى أرض الأندلس.. وهذا يؤيد الإحراق، وإلا فلا معنى لعبارة تحشر حشرًا يشعها من وصف بأنه صاحب لواء التاريخ في الأندلس وأفصح الناس بالتكلم فيه!!!

إن عبارة «وكان عمل من السفن عدة» عبارة تستدرك جوابًا لمن يسأل: لقد أحرقت السفن، فكيف نقل المدد؟ فيأتينا الجواب واضحًا: «وكان عمل من السفن عدة». وتاريخ غزوات العرب، أوضح أن موسى بن نصير، قد اهتم ببناء السفن والأساطيل على طول ساحل المغرب، ومن جبل طارق وحتى طرابلس الغرب، وبصريح العبارة، جاء في نفح الطيب: «وكان موسى منذ وجه طارقا لوجهه، قد أخذ في عمل السفن حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددا، كملت بهم عدة من معه اثنى عشرة ألفًا» وهذا جواب جلي واضح، لمن يسأل: ومن أين جاء موسى بالسفن وقد أحرق طارق السفن التي كانت معه؟! وقبل المعركة أرسل لذريق من يستطلع أمر المسلمين، فعاد من استطلع ليقول لذريع: «فقد جاءك منهم من لا يريد إلا الموت، أو إصابة ما تحت قدميك، قد حرقوا مراكبهم إياسا لأنفسهم من التعلق بها».

(٣) صفحات من التاريخ العربي والإسلامي، تحمل أحداثا مماثلة في الإحراق، لقد أحرق القائد الفارسي سفنه باليمن في نصرة سيف بن ذي يزن، وأحرق المسلمون سفنهم في صقلية ثانية، وفي كريت «أقريطش» مرة ثالثة في مستهل القرن الثالث الهجري [١].

قلت: ومع احترامي للقول المائل إلى الإحراق إلا أن بث الشجاعة في النفوس له طرق عدة، كما يمكن أن ترجع السفن إلى قواعدها سالمة، وينقطع

---

(١) فاتح الأندلس طارق بن زياد (٤٥، ٤٦).

أمل المجاهدين في الرجوع من حيث جاءوا.

(٤) بين موسى وطارق:

بلغت موسى أخبار فتوحات طارق فغضب موسى لعصيان طارق لأوامره، فقد أمره موسى ألا يتعدى قرطبة على قول، أو موضع هزيمة لذريق -في وادي لكة- على قول آخر، فسارع موسى إلى عبور المجاز ودخول الأندلس، وقيل: إنما جاز موسى باستدعاء من طارق إياه، فقد كتب طارق إلى موسى: «فإن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث.. الغوث» فلما أتاه الكتاب نادى الناس واجتمع العسكر.. فاستخلف عبد الله بن موسى على إفريقية وطنجة والسوس، وكتب ساعة قدم عليه كتاب طارق إلى مروان بن موسى ابنه يأمره بالمسير، فسار مروان بمن معه، حتى أتى المجاز، فأجاز بمن زحف معه في جموعه، لقد كان نزول موسى إلى الأندلس لسبب حربي، وهو تدعيم الفتح وترصينه، حتى يحول دون وقوع كارثة أكيدة على المسلمين من جراء تغلغل طارق في الأندلس تغلغلا لا يتناسب مع ما لديه من رجال.

أما ما تواتر في كتب التاريخ العربي من أن موسى ما كاد يسمع بأخبار الفتح حتى أكل الحسد قلبه، وفي أن ينال هو الآخر نصيبه من شرف الفتح، وأنه أساء معاملة طارق وضربه بالسوط فليس بصحيح، إذ لا يعقل أن يصدر مثل ذلك من تابعي جليل وفاتح عظيم كموسى، ثم إن طارقا كان مولى موسى، يعمل بأوامره وينفذها نصًا وروحا، وكان يكتب إليه أخبار الفتح أولاً بأول، فلو أن موسى حسد طارقا أو أساء الظن به لاستطاع إزاحته من طريقه، وذلك بعزله واستدعائه إلى القيروان، ولا يستطيع طارق مخالفة أوامر موسى في شيء.

إن كل الدلائل تشير إلى أن طارقا كان مثالاً للطاعة والنظام، فقد بعث بأولاد غيطشة إلى مولاه موسى عندما وصلوا إلى طليطلة وقالوا له: أنت أمير نفسك أم على رأسك أمير؟ فقال طارق: بل على رأسي أمير وفوق ذلك الأمير أمير عظيم، وهذا يدل على منتهى الضبط وتقدير المسئولية والالتزام بسلسلة المراجع، ولعل أوضح دليل على أن موسى قدم الأندلس لمعونة طارق لا لتأديبه، وأن موسى قدم الأندلس لأغراض عسكرية بحتة، أن موسى لم يذهب للقاء طارق بعد نزول أرض الأندلس وإنما انصرف إلى

فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح، وذلك لحماية جناح طارق الأيسر من جهة، ولتدعيم قواعد الفتح المتقدمة في الأندلس ولتشتيت قوات العدو بإشغالها في جبهات عديدة بقوات المسلمين الضاربة، فلما تم له ذلك سار موسى إلى طارق ولقيه في طليبرة على مقربة من طليطلة، وحين التقيا قال موسى لطارق: «يا طارق إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس، فاستبحه هنيئا مريئا» فقال طارق: «أيها الأمير! والله لا أرجع عن قصدي هذا، ما لم أنته إلى البحر المحيط أخوض فيه بفرسي»، ولم يزل طارق يفتح ومعه موسى إلى أن بلغ جليقية وهي علىَ ساحل البحر المحيط.

وكان عبور موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١٢ م) من طنجة على رأس جيش قوامه ثمانية عشر ألفًا من قريش والعرب ووجوه الناس.. ولقد كان ترصين قواعد الفتح المتقدمة وتأمين خطوط ومواصلات الفتح وحماية الجناح الأيسر الغربي لمنطقة فتح طارق، الأهداف الحيوية الأولى التي حققها موسى بعد إنزال قواته الأندلس.

فتح إشبيلية:

وتحرك بقوته نحو إشبيلية، وكانت من أعظم قواعد الأندلس، وأتقنها بنيانا وأكثرها آثارًا، وكانت دار ملك قبل غلبة القوطيين على الأندلس.

فتح ماردة:

وكانت ماردة أيضًا دار مملكة لبعض ملوك الأندلس في سالف الدهر، وهي ذات عز ومنعة، وفيها آثار وقصور ومصانع وكنائس جليلة القدرة فائقة الوصف، فحاصرها أيضًا، وكان أهلها في منعة شديدة وبأس عظيم، فنالوا من المسلمين دفعات وردوهم، وعمل موسى دبابة دب المسلمون تحتها إلى برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبونها، وقتل في هذا البرج كثير من المسلمين، فسمى ذلك الموضع «برج الشهداء»، واستمر موسى محاصرا لماردة، ودخلها صلحا سنة أربع وتسعين الهجرية.

فتح إشبيلية ثانية:

وحين كان موسى محاصرا «ماردة»، ثار عجم إشبيلية وتمردوا وقاموا على من فيها

من المسلمين، فلما أن فتح ماردة وجه عبد العزيز بن موسى في جيش إلى إشبيلية ففتحها وقتل أهلها، ولم يغادر عبد العزيز بن موسى إشبيلية إلا بعد أن ترك في إشبيلية وباجة ولبلة حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط، وكانت حامية باجة قوية بقيادة قائد عربي معروف هو عبد الجبار قائد ميسرة موسى، وجد بني زهرة أحد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن.

مقتل لذريق:

لقد أدرك موسى أن مراكز المقاومة القوطية وعلى رأسها لذريق بدأت تتجمع في منطقة الجزء الشمالي من غرب الأندلس بالذات لعرقلة مسيره، والإفادة من وعورة المنطقة ظنا منهم أن المسلمين لن يستطيعوا الوصول إليها، فقدر موسى موقف عدوه تقديرا صائبا، لذلك استدعى طارقا ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة حيث التقى بطارق في موضع يقال له: تايد أو تايتر وهو نهر في المنطقة، وخرج طارق معظما، ونزل بين يديه، فعاتبه موسى على مخالفته لرأيه في سرعته لاقتحام الأندلس من الوسط، فاعتذر إليه طارق واستلطفه حتى رضي عنه موسى.

اتبع موسى وطارق الطريق الروماني القديم الممتد من ماردة إلى سلمنقة، ومضى في فج منسوب إليه بحذاء نهر، سمي منذ ذلك الحين بوادي موسى، وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة قد سنحت للهجوم على المسلمين، وانقضوا على جيش موسى من ناحية، يسميها بعض المؤرخين من المسلمين «السواقي»، وهي «سيجويلادي لوس نيخورس» بالقرب من بلدة تماس، وهناك وقعت المعركة الحاسمة الثانية في سنة أربع وتسعين هجرية (٧١٢ م)، وفي هذا المعركة لقي لذريق حتفه على يد مروان بن موسى بن نصير وهزم القوط هزيمة نكراء.

فتح طليطلة ثانية:

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الموقعة الحاسمة، قد شجع نفرا من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها، ووثبوا، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد، ودخولها دخول الظافر،

وفي طليطلة سلم طارق إلى موسى الكنوز التي غنمها من الكنائس وغيرها عند فتحه طليطلة لأول مرة، فأقام بها موسى طوال فصل الشتاء من سنة أربع وتسعين هجرية يدبر أمرها، ثم ضرب عملة ذهبية وأخرى برونزية، لصرف رواتب الجند، وذلك بدل السكة القوطية لطليطلة، ثم بعث موسى برسولين إلى الوليد بن عبد الملك، ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح، وكان رجلاً صالحًا في نحو الثمانين من عمره، ومغيث الرومي، فاتح قرطبة، ومولى الوليد بن عبد الملك فلما دخل وفد موسى إلى الوليد، قال علي بن رباح: «يا أمير المؤمنين: تركت موسى بن نصير في الأندلس، وقد أظهره الله ونصره، وفتح على يديه ما لم يفتح على يد أحد، وقد أوفدني إلى أمير المؤمنين في نفر من وجوه من معه، بفتح من فتوحه، ثم دفع إليه الكتاب من عند موسى، فقرأه الوليد فلما أتى على آخره خر ساجدًا».

فتح شمال الأندلس:

ولما انقضى فصل الشتاء واطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد، عزم على متابعة الفتح فأخذ يستعد للسير نحو الشمال، لإكمال فتح شبه جزيرة الأندلس، فجمع جيوشه، وأكمل أمورها الإدارية، ثم زحف بها نحو «سرقسطة» الواقعة على الضفة اليمنى من نهر أبرة، وكان طارق على مقدمته، وسار موسى خلفه في جيوشه فارتقى إلى الثغر الأعلى، وافتتح سرقسطة وأعمالها، وأوغل في البلاد وطارق أمامه لا يمران بموضع إلا فتح عليهما، وأغنمهما الله تعالى ما فيه، وقد ألقى الله الرعب في قلوب العدو، فلم يعارضهما أحد، إلا بطلب الصلح، وموسى يجيء على أثر طارق في ذلك كله، ويكمل ابتداءه، ويوثق للناس ما عاهدهم عليه، ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رغُب أسقفها «بنسو» ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة، وذخائرهم الموروثة، وقرروا الهجرة منَ البلد والفرار بهذه الذخائر، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم، وعدلوا عن مغادرة المدينة، وفتحت المدينة البيضاء «سرقسطة» أبوابها للمسلمين سنة أربع وتسعين للهجرة، ولم يكد المسلمون يستقرون في هذا البلد، حتى قام التابعي حنش بن عبد الله الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجدًا جامعًا وظل قرونا

متوالية منارا للإسلام وأهله في هذه النواحي.

وبعد فتح سرقسطة فتح موسى «وشقة» و «لاردة» و «طركونة».. وحين أوغل موسى وجاوز سرقسطة، واشتد ذلك على الناس وقالوا: أين تذهب بنا؟!، حسبنا ما بأيدينا، وكان موسى قام حين دخل إفريقية وذكر عقبة بن نافع: لقد كان غرر بنفسه حين توغل في بلد العدو عن يمينه وعن شماله وامامه وخلفه، أما كان معه رجل رشيد؟! فسمعه حنش الصنعاني، فلما بلغ موسى ذلك المبلغ من التغلغل عمقا في الفتح، قام حنش فأخذ بعنانه، ثم قال: «أيها الأمير، إني سمعتك وأنت تذكر عقبة بن نافع تقول: لقد غرر بنفسه وبمن معه، أما كان معه رجل رشيد؟! وأنا رشيدك اليوم، أين تذهب؟ تريد أن تخرج من الدنيا؟! أو تلتمس أكثر مما آتاك الله -عز وجل- وأعرض مما فتح الله عليك دوخ لك، إني سمعت من الناس ما لم تسمع، وقد ملأوا أيديهم وأحبوا الدعة، فضحك موسى ثم قال: أرشدك الله وأكثر في المسلمين من أمثالك، ثم انصرف قافلا إلى الأندلس وهو يقول: أما والله لو انقادوا إليّ لقدتهم إلى رومية «روما»، ثم يفتحها الله على يديّ إن شاء الله» [1].

ولكن موسى استطاع أن يعيد إلى الجنود نشاطهم وحماستهم للفتح وبينما كان يعد العدة لفتح جليقية، إذ أتاه مغيث الرومي رسول الوليد بن عبد الملك يأمره بالخروج من الأندلس وأن يكف عن التوسع في البلاد، وأن يشخص إلى دمشق، فساءه ذلك وقطع به عن إرادته، إذ لم يكن في الأندلس بلد، لم تدخله العرب إلى وقته غير جليقية، فكان شديد الحرص على اقتحامها، ولكن قدوم مغيث لم يصرف موسى عن المضي في إتمام هذه الغزوة، التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة، فبذل جهده للبقاء في الأندلس بعض الوقت ريثما يتم فتح جليقية.

ولاطف مغيثا -من أجل ذلك- وسأله إمهاله، إلى أن ينفذ عزمه على

---

(١) قلت: وهذه هي العلاقة بين القيادة والجنود في الجيوش الإسلامية، مبنية على التناصح والتعاون على البر والتقوى، والسمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، ما دامت القيادة تقود الجنود إلى مرضاة الله، والقيادة تسمع للنصح ما دام فيه حق وإرشاد.

الدخول إلى جليقية، وللمسير معه في البلاد أيامًا، يكون شريكه في الأجر والغنيمة، ففعل مغيث ومشى معه.. فلما اطمأن موسى إلى ذلك، بادر إلى السير شمالاً لفتح قشتالة القديمة تأمينا للحدود الشمالية لإقليم طليطلة.. سار موسى بنفسه على الضفة الشرقية لنهر إبرة في إقليم قشتالة، فأطاعه معظم من مرَّ بهم من رؤساء هذه الناحية.. وهكذا وصلت جيوش موسى حتى البحر المحيط، فاطمأن إلى أنه فتح شبه الجزيرة كلها، لذلك شعر أنه لم يعد هناك معنى للاسترسال في الفتح.. ولما انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي، كان لابد أن يعود، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأسا، فقد كان مغيث الرومي رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد بن عبد الملك معجلاً عليه، لا يريده أن يتمهل إذ أن رسولاً آخر من الوليد يكنى أبا نصر بعثه إلى موسى بعدما استبطأه في القفول.

عودة موسى وطارق إلى المشرق:

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر خمس وتسعين هجرية «منتصف صيف ٧١٤ م» وكان مغيث الرومي قد خف للقائه، فالتقيا بنواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائدًا من اشترقه، وساروا جميعًا إلى إشبيلية حيث ركبوا البحر، وقد اختار موسى إشبيلية عاصمة للأندلس، واستخلف عليها ابنه عبد العزيز وترك معه حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهري وزيرا معينًا، وترك معه العساكر ووجوه القبائل ومن يقوم بحماية البلاد وسد الثغور وجهاد العدو، واستخلف موسى ابنه عبد العزيز على إفريقية، وابنه مروان على «طنجة» و «السوس»، ومر في طريق عودته بـ «القيروان» ثم قدم مصر سنة خمس وتسعين «كانون الأول - ديسمبر ٧١٤ م» ثم ذهب إلى فلسطين وبلغ دمشق سنة ست وتسعين هجرية.

لما قدم موسى على الوليد قبل وفاته بأربعين يومًا وهذا ما نرجحه ومعه غنائم ضخمة يعجز عنها الوصف، ولكن الظاهر أن قلب الوليد كان متغيرًا على موسى، فلم يحسن لقاء موسى، ثم لم يلبث الوليد أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضبًا على موسى، لهذا كان طبيعيًا ألا ينتظر موسى خيرًا كثيرًا وأن يدرك

أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر [١].

وقد نسب المؤرخون إلى سليمان بن عبد الملك أنه أساء معاملة موسى بن نصير وأبقاه في حر الشمس حتى كاد يغمى عليه من شدة التعب والجهد والحر، وأن سليمان حبسه، وأمر بتقصي حسابه، فأغرمه مغرما عظيمًا، وما نسبه المؤرخون لا يصح، لأن سليمان ترك أولاد موسى ولاة على إفريقية، ولأن موسى كان أثيرا على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان، وصاحب الأمر في دولته ولأن عمر بن عبد العزيز كان من أقرب المقربين إلى سليمان، ومن المستحيل أن يرضى عمر بن عبد العزيز عن مثل تلك التصرفات دون أن يقول كلمته لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، ولأن سيرة سليمان - الذي وصفه المؤرخون بأنه مفتاح الخير- وأطلق الأسرى، وخلى السجون وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن عبد العزيز- لا تستقيم مع اتهامه بالتنكيل بموسى وهو شيخ كبير له ماض ناصع مجيد في خدمة المسلمين.

لقد كان موقف سليمان من موسى موقفا سليمًا، وحقائق التاريخ تعلو دائمًا على المبالغات المدسوسة عن قصد أو عن غير قصد، ولكن لماذا عزل الوليد بن عبد الملك موسى عن إفريقية والأندلس، وأقر سليمان هذا العزل؟ التأويل ولماذا استدعي الوليد موسى من ساحات القتال على عجل، ولم يمهله حتى يحقق نياته التوسعية في الفتح؟

أسباب استدعاء موسى إلى دمشق وعزله:

يبدو أن الوليد ومن بعده سليمان، اعتقدا أن موسى غرر بالمسلمين، وأنه عرضهم للمهالك، بتغلغله إلى حدود بعيدة في الأندلس، كما أنهما خشيا من طموح موسى في التغلغل إلى بلاد أبعد من الأندلس، فيقود المسلمين إلى رومية، وأن موسى: «أجمع أن يأتي المشرق من ناحية القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام دروبه، ودروب الأندلس، ويخوض إليه ما بينها من أمم الأعاجم النصرانية، مجاهدا فيهم، مستلحما لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة»، فنما هذا الخبر إلى الوليد، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن

---

(١) قلت: من خلال دراستي لسيرة موسى بن نصير، لاحظت أنه محسود وله أعداء، وهم الذين أوغروا قلبي الوليد وسليمان عليه ، ثم إن مجده وعزه إنما يكون في طاعة ربه، وحرصه على نشر دينه، وبحثه عن الشهادة في سبيله : ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦].

ما هم به موسى، غرر بالمسلمين إن لم يرجع وكتب له بذلك عهده، ففت ذلك في عزم موسى، وقفل عن الأندلس، بعدما أنزل المرابطة والحامية بثغورها، أنزل ابنه عبد العزيز لسدها وجهاد عدوها، والظاهر أن الخلفاء لم يكونوا مطمئنين على المسلمين في الأندلس حتى بعد الوليد وسليمان، فقد فكر عمر بن عبد العزيز في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها، إذ خشي تغلب العدو عليهم، فإذا كان هذا ما يعتقده عمر بن عبد العزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين هجرية، فلماذا نلوم الوليد وقد استدعى موسى سنة خمس وتسعين هجرية، والفتح كان في أوله، والأندلس بعيدة عن دار الخلافة.

لقد كان طموح موسى، في التوسع بالفتح سببًا واضحًا لاستدعائه إلى دار دمشق، وهذا السبب -فيما أرى- من الأسباب الجوهرية التي جعلت الوليد يستدعيه. وهناك سبب آخر وهو أن خصوم موسى دسوا عليه عند الخلفاء، أنه يفكر بالاستقلال عن الخلافة، وزينوا له ذلك بأساليبهم، وكان موسى بوسعه أن يستقل عن الخلافة، ولكن إيمانه العميق بتعاليم الإسلام، وتمسكه والتزامه بها، جعله لا يفكر بذلك، حتى إن المهلب بن أبي صفرة سأله عن ذلك، فقال موسى: «والله لو أردت ذلك ما نالوا من أطرافي طرفًا، ولكنني آثرت الله ورسوله، ولم نر الخروج عن الطاعة والجماعة».

المطلب السادس

أهم صفاته القيادية، ومبادئه الحربية

كان موسى إداريا حازما، استطاع السيطرة على منطقة ولايته في إفريقية والمغرب والأندلس، سيطرة كاملة بناءة منشأة بكل كفاية وجدارة، وقد أعانته عقليته الجبارة على التفكير العميق في تطوير البلاد التي تحت نفوذه، وكان من أولئك الولاة الذين يفكرون بما يعملون، ويعرفون ما يريدون، وينفذون ما يخططون.

لقد كان من مزايا موسى أنه: كان النصر في ركابه، والحزم في قراراته، والخلق الكريم من مزاياه، والحق رائده، والعدل سيرته، والكرم هدفه، والمواهب السامية خصاله، كان عاقلاً شجاعا كريمًا، وقد بذل جهودا عظيمة لنشر الإسلام في إفريقية والمغرب، وترك رجالا من الدعاة ليعلموا البربر القرآن وفرائض الإسلام، وفي سنة خمس وثمانين هجرية تم إسلام أهل المغرب الأقصى، وحولوا المعابد التي كان بناها المشركون

إلى القبلة، جعلوا المنابر في مساجد الجماعات فاستأمن البربر إليه وأطاعوه، وبهذه الخطة العملية الرائعة استطاع موسى أن ينشر الإسلام في ربوع المغرب، وبذلك أشاع الانسجام الفكري بين العرب والبربر، بغرس تعاليم الإسلام في نفوس البربر، فأصبحوا مع العرب قوة موحدة هائلة، وجدت لها متنفسا في فتح الأندلس، فربط موسى بهذا الفتح مصير الفاتحين من العرب المسلمين وإخوانهم البربر المسلمين، وجعلهم يدافعون عن عقيدة واحدة بقيادة واحدة، لتحقيق هدف واحد هو: إعلاء كلمة الله ونشر دينه في الأرض حتى تكون كلمة الله هي العليا.

ومن اعمال موسى الإدارية:

ضرب أول عملة إسلامية في الأندلس، ومن أعماله الإدارية التي تتسم بالطابع العسكري أيضًا تحسينه «دار الصناعة» التي كانت بتونس، والتي أسسها حسان بن النعمان حيث استطاع موسى بن نصير أن يسورها، ويجري البحر إليها مسيرة اثني عشر ميلا، حتى أقحمه دار الصناعة، ثم أمر بصناعة مائة مركب، فأصبح بإمكان هذه الدار إنشاء المراكب وتدريب البحارة وتصليح السفن، مما سهل على موسى جهاده البحري وفتح الأندلس.

ومن أعماله الإدارية الخالدة:

نشره اللغة العربية بين البربر، وذلك بإرسال المعلمين، والاختلاط الشديد بين العرب والبربر، كما أن إقبال البربر على الإسلام أدى إلى إقبالهم على تعلم اللغة العربية وانتشارها بينهم، مما كان له أكبر الأثر على عروبة المغرب، كما أن اتجاه موسى العملي إلى عدم التفرقة بين العرب المسلمين والبربر المسلمين، في إسناد المناصب إلى الأكفاء منهم، جعل من البربر المسلمين سندا قويًا للعرب المسلمين، وجعل منهم فاتحين، يسيرون جنبًا إلى جنب مع إخوانهم العرب المسلمين، ولعل تولية طارق بن زياد، وهو بربري، أخطر المناصب القيادية هو خير دليل على عدم تفرقة موسى بين المسلمين من بربر وعرب، وأن الكفاءة وحدها هي التي كانت تقدم وتؤخر في نظر موسى، ما جعل البربر يبذلون قصارى جهدهم في الفتح، سواء كان ذلك في ساحات إفريقية والمغرب، أو في ساحات الأندلس أو جزائر البحر الأبيض المتوسط، لقد كان موسى رجل دولة، بكل ما في الكلمة من معان.

أهم مبادئه الحربية الاستراتيجية:

إنه كان عرف مزايا الأمم التي قاتلها، فيحارب تلك الأمم على هدى وبصيرة، ولأنه كان يعرف مزايا الخيل وما يستفاد منها في الحروب وما لا يستفاد، ومن مزاياه الحربية تجربته الطويلة في معاناة الحروب، وأنه كان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة في الحرب، ومن مزاياه أسلوبه الفذ في معالجة الحصون والمدن المنيعة، فقد كان ماهرا في الحصار، وفي قتال المدن، وعنايته الكبيرة بحماية المواصلات، وتفريق قوات العدو لضربها متفرقة على انفراد، كان يطبق مبدأ اختيار المقصد وإدامته، ومبدأ التعرض، ومبدأ المباغتة، ومبدأ الأمن، ومبدأ تحشيد القوة، ومبدأ المرونة، ومبدأ إدامة المعنويات، ومبدأ الأمور الإدارية[١].

المطلب السابع

وفاتــــه

فقد توالت المصائب على الشيخ المجاهد البطل موسى بن نصير، بعد وصوله إلى دمشق سنة ست وتسعين هجرية (٧١٤ م)، ولعل من أعظم ما أصابه، مقتل ابنه عبد العزيز في الأندلس، وفي سنة سبع وتسعين هجرية حج بالناس سليمان بن عبد الملك، فأمر موسى بالشخوص والحج معه فذكر موسى لسليمان أنه ضعيف، فأمر له سليمان بثلاثين نجيبا موقورة، وبحجرة من حجره، فحج سليمان، وحج معه موسى، وتوفي موسى في وادي القرى، سنة سبع وتسعين هجرية، وكان عمره حينها ثمانيا وسبعين سنة قمرية، لأنه ولد سنة سبع عشرة هجرية كما مرَّ بنا، وصلى عليه مسلمة بن عبد الملك.

وهكذا أغمض البطل عينيه إلى يوم القيامة، ولكن التاريخ لم يغمض عينيه عن مآثره الخالدة، ذلك لأنه كان قد جمع من خلال ما أعانه الله سبحانه به على ما بنى له من المجد المشيد، والذكر الشهير المخلد، الذي لا يبليه الليل والنهار، ولا يعفى جديده بلى الأعصار.

فعلى الأجيال الصاعدة أن تذكر لموسى أنه فتح المغرب الأقصى واستعاد فتح

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٤/ ٤٩٦).

المغرب الأوسط، وأنه رصن الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي، وأنه فتح الأندلس وقسما من جنوب فرنسا، وأنه كان من أعظم قادة الفتح الإسلامي، رضي الله عن التابعي الجليل، الإداري الحازم، البطل المغوار، القوي الأمين، القائد الفاتح، موسى بن نصير اللخمي [١].

ولابد أن نذكر أن موسى -رحمه الله- كان يُقْرَن بخالد بن الوليد رضي الله عنه، حيث لم ينهزم له جيش ولم يُفَل له سيف، وكان الخلفاء يعرفون له فضله وكفاءته، ولم يشكوا في إخلاصه وولائه.. وما تغيَّر عليه الوليد أو سليمان ابنا عبد الملك.. أما الوليد فقد وشى بعض الحاقدين على موسى عند الوليد، أنه لم يذكره في دعاء صلاة الاستسقاء، فغضب الوليد من الواشي وقال له: وهل أذكر في مقام يذكر فيه الله، إن عدت لذلك ضربت عنقك.

وأما سليمان فقد جهز موسى وأراد صحبته في موسم الحج تكريما له. وتوفي موسى بالمدينة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام، وكان رحمه الله قد دعا أن يتوفاه الله شهيدا، أو بأرض المدينة، فاستجاب الله له.



(١) راجع: قادة فتح المغرب العربي (١/ ٢٢١ - ٣٠٩).

المبحث السادس

عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي

إن عبد الله بن الزبير ابن أبيه، فاتح صبراتة، وسوسة، ويعتبر من أبرز قيادات فتح ليبيا في زمن الفتح المبارك، فمن هو هذا القائد، وما أهم أعماله الجهادية، وصفاته القيادية؟، كل ذلك سوف نتناوله في هذه العجالة بشيء من الإيجاز.

المطلب الأول

اسمه، ونسبه، وميلاده

اسمه، ونسبه:

هو عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد القرشي الأسدي، فأبوه أحد العشرة المبشرين بالجنة، فهو ابن حواري رسول الله ﷺ، وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وجدته لأبيه صفية بنت عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد أم المؤمنين، وخالته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنهم أجمعين.

ميلاده:

هاجرت أمه أسماء بنت أبي بكر من مكة وهي حامل به، فولدته بـ «قباء» في السنة الأولى من الهجرة، فهو أول مولود في الإسلام من المهاجرين بالمدينة، فحنكه رسول الله ﷺ بتمرة لاكها في فيه ثم حنكه بها، فكان ريق رسول الله ﷺ أول شيء دخل جوفه، ثم دعا له وبارك عليه، وأذن أبو بكر الصديق في أذنه حين ولد.

أيامه الأولى:

أحضره أبوه الزبير إلى رسول الله ﷺ ليبايعه وعمره سبع سنين أو ثماني سنين، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلا تبسم ثم بايعه.

. لقد نشأ عبد الله في بيت كريم الآباء والأمهات والعمات والخالات، في محيط كله نور وهدى، وجهاد، وفداء، قريبًا من رسول الله ﷺ، وهكذا نشأ في محيط مناسب، ليكون بطلا مسددا، فنال شرف الصُحبة ولم ينل شرف الجهاد تحت لواء الرسول ﷺ القائد لصغر سنه.

المطلب الثاني
جهـــاده

١- شهد عبد الله معركة اليرموك الحاسمة بين المسلمين والروم مع أبيه، فلما انهـزم الروم يوم اليرموك جعل يجهز على جرحاهم وشهد خطبة عمر بـ «الجابية».

وشهد ابن الزبير فتح مصر، وكان أحد الشهود على وثيقة الصلح بين المسلمين وبين أهل مصر، وذلك سنة عشرين هجرية، وشهد مع عمرو بن العاص فتح ليبيا، فلما انتهى عمرو من فتح طرابلس أمر الخيل بالإسراع إلى صبراتة لفتحهـا، وبقـي هـو في طـرابلس للإشراف على أمورها، وأسرعت الخيل بقيادة عبد الله بن الزبير، فصبحوها مـن ليلـتهم على غرة، فوجدوا أبواب السور مفتوحة وأهلها مشغولون بإخراج الحيوانات للمرعـي، فاقتحموها عليهم بالقوة وأوقعوا فيهم القتل حتى استسلموا، ومن فر منهم ركب البحر هاربا إلى صقلية، وهدم المسلمون سورها خوفًا من تحصن الروم بها مـرة ثانيـة، وغنمـوا كل ما فيها وكان شيئًا كثيرًا، وأرسلوا إلى عمرو بن العاص في طرابلس، يخبرونه بمـا فـتح الله عليهم فحضر إلى صبراته.

٢- وشهد عبد الله فتح «إفريقية» أيام عثمان بن عفان تحت لواء عبد الله بـن سـعد بن أبي السرح، وكان الفتح على يديه، فقد سيره عثمان في جماعة إلى «إفريقية» سنة ست وعشرين هجرية ليأتيه بأخبار الفتح، فسار مجدا حتى وصـل إلى المسـلمين هنـاك، وأقـام معهم ولما وصل كثر الصياح والتكبير من المسلمين، وسمع «جرجير» يقـول: «مـن قتـل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي» فحضـر ابـن الـزبير إلى عبـد الله بـن سعد وقال له: «تأمر مناديا ينادي: من يأتي برأس جرجير نفلته مائة ألف وزوجتـه ابنتـه واستعملته على بلاده» فركب الرعب قلب «جرجير».

ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد: «إن أمرنا يطول مع هـؤلاء وهـم في أمداد متصلة ببلاد هي لهم، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم، وقد رأيـت أن نـترك غدًا جماعة صالحة مع أبطال المسـلمين في خيـامهم متـأهبين، نقاتـل نحـن الـروم في بـاقي المعسكر إلى أن يضجروا ويملوا، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون، ركب من كـان

في الخيام من المسلمين ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون، ونقصدهم على غرة، فلعل الله ينصرنا عليهم»، فأحضر ابن سعد جماعة من أعيان الصحابة، واستشارهم فوافقوه على ذلك.

وفي صباح الغد، نفذ سعد خطة ابن الزبير هذه، فأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم -وخيولهم عندهم مسرجة- ومضى الباقون فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدًا، فلما أذن بالظهر وهم الروم بالانصراف على العادة، لم يتركهم ابن الزبير وألح عليهم حتى أتعبهم.. عند ذلك أخذ ابن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين وقصد الروم، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم حتى غشيهم المسلمون.

ونظر عبد الله فرأى «جرجير» وقد خرج من عسكره على برذون أشهب ومعه جاريتان تظلانه بريش الطواويس، وبينه وبين عسكره أرض بيضاء ليس فيها أحد، فاختار ثلاثين فارسا من المسلمين، وأخذهم معه.. ثم انطلق إلى الوجه الذي فيه «جرجير»، وخرج صامدا له، وما يظن جرجير وأصحابه، إلا أن ابن الزبير رسول إليه حتى وصل إليه، ودنا منه، فعرف الشر، فثنى برذونه موليا، ولكن ابن الزبير أدركه فطعنه وأذاقه السيف وحز رأسه ونصبه في رمحه وكبر.. فحمل المسلمون من الوجه الآخر وانهزم الروم بعد أن قتل ابن الزبير «جرجير»، فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة، وأخذت ابنة «جرجير» سبية، فنفلها عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير، وكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.

ولما أراد ابن أبي السرح أن يبشر عثمان بالفتح قال لابن الزبير:

«أنت أولى بهذا» فأرسله إلى عثمان بشيرا، فأخبره بما فتح الله عليه، فأمره عثمان أن يخطب، فلما خطب قال عثمان: «كأنه أبو بكر» لقد كان فتح «إفريقية» على يديه.

٣- وتولى حرب «إفريقية» معاوية بن حديج السكوني بعد عبد الله بن سعد ابن أبي السرح، فكان ابن الزبير ساعده الأيمن في مهمته الشاقة، فقد كان ابن الزبير مع ابن حديج في جهاده، حين وجهه معاوية بن أبي سفيان في جيش كثيف، تعداده عشرة آلاف

رجل وفتح قمونية، وبث السرايا في البلاد، وبعث عبد الله بن الزبير إلى «سوسة» ففتحها وكان ذلك سنة خمس وأربعين هجرية.

٤- وحضر عبد الله بن الزبير إلى الشام لغزو «القسطنطينية» أيام معاوية بن أبي سفيان فشهد حصارها وذلك سنة تسع وأربعين وقيل سنة خمسين.

المطلب الثالث

موقفه من الأحداث السياسية

لقد كان ابن الزبير أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه أحد المقربين إليه، فلما حاصره أهل الأمصار، دافع عنه دفاعا مستميتا في يوم «الدار»، فقد استخلفه عثمان على «الدار» قائدا للمدافعين عن عثمان، فكان هو الذي يقاتل بالصامدين دفاعا عنه، فيخرج الكتيبة، ويباشر القتال بنفسه، فجرح بضعة عشر جرحا غائرا وكان يقول: «جرحت بضعة عشر جرحا، وإني لأضع اليوم يدي على بعض تلك الجراحات، فأرجو أن تكون خير أعمالي» كما كان يقول ابن الزبير... وفي ذلك يقول عبد الرحمن بن أرطأة الجسري يمدحه ويلوم رجلاً:

فلو كنت مثل ابن الحواري لم ترم	وجالدت يوم الدار إذ عظم الخطب
ولكن عبد الله طاعن دونه	وضارب يوم الدار أذكره الضرب

لقد كان عبد الله يدين بالطاعة للخليفة القائم ما دام هذا الخليفة على الحق، وكان يربأ بنفسه أن يشارك أهل الفتن في إثارتها بقلبه أو لسانه أو سيفه.

وبعد مقتل عثمان بن عفان، شهد معركة «الجمل» وفيه بضع وأربعون جراحة، وأعطت عائشة رضي الله عنها الذي بشرها بأنه لم يمت عشرة آلاف، ثم سجدت شكرًا لله، ولم يكن أحد أحب إليها بعد رسول الله ﷺ وبعد أبيها من ابن الزبير، وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له، وأوصت له بحجرتها.

واعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، كما اعتزل غيره من كبار الصحابة، وهذا يدل على شدة تعلقه بوحدة كلمة المسلمين، وابتعاده عن إراقة دمائهم، ولست أرى في اشتراك عبد الله في معركة الجمل

دليلاً عكسيًا لكراهية سفك دماء المسلمين، إذ كان ملتاعا من قتل عثمان، وكان لا يريد عقوق والدته وخالته عائشة أم المؤمنين، يرى أن لرأيها في المطالبة بدم عثمان والحث على معاقبة قاتليه وزنًا، لابد من احترامه وأخذه بعين الاعتبار.

قلت: والموقف الصحيح من الحرب التي وقعت بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم، هو الإمساك عما شجر بينهم، إلا فيما يليق بهم، رضي الله عنهم لما يسببه الكلام في ذلك من توليد العداوة والحقد والبغض لأحد الطرفين، وذلك من أعظم الذنوب، وقبل أن أذكر أقوال السلف، فيما شجر بين الصحابة أقدم بعض النصوص التي فيها إشارة إلى ما وقع بين الصحابة من الاقتتال، وبما وصفوا به فيها، وتلك النصوص هي:

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالإصلاح بين المؤمنين إذا ما جرى بينهم قتال، لأنهم إخوة، وهذا الاقتتال لا يخرجهم عن وصف الإيمان، حيث سماهم الله عز وجل مؤمنين وأمر بالإصلاح بينهم، فإذا كان حصل اقتتال بين عموم المؤمنين ولم يخرجهم ذلك من الإيمان، فأصحاب رسول الله ﷺ الذين اقتتلوا في موقعة الجمل وبعدها، أول من يدخل في اسم الإيمان الذي ذكر في هذه الآية، فهم لا يزالون عند ربهم مؤمنين إيمانًا حقيقيًا، ولم يؤثر ما حصل بينهم من شجار في إيمانهم بحال، لأنه كان عن اجتهاد [(١)].

٢- روى الإمام أحمد والبخاري ومسلم رحمهم الله عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان وتكون بينهما مقتلة عظيمة ودعواهما واحدة» فالمراد بالفئتين جماعة علي ومعاوية، والمراد بالدعوة الإسلام على الراجح، وقيل: المراد اعتقاد كل منهما الحق.

٣- روى الإمام أحمد ومسلم: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين تقتلهم أولى الطائفتين». والفرقة المشار إليها

(١) انظر: العواصم من القواصم، لابن العربي، (ص ١٦٩- ١٧٠).

في الحديث هي ما كان من الاختلاف بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وقد وصف ﷺ الطائفتين معًا، بأنهما مسلمتان وأنهما متعلقتان بالحق، والحديث علم من أعلام النبوة، إذ وقع الأمر طبق ما أخبر به الرسول ﷺ، وفيه الحكم بالإسلام على الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة والجهلة الطغام من تكفيرهم أهل الشام، وفيه أن أصحاب على أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن عليا هو المصيب وإن كان معاوية مجتهدًا وهو مأجور إن شاء الله، ولكن عليا هو الإمام فله أجران كما ثبت في صحيح البخاري من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا اجتهد فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

٤- وروى البخاري بإسناده إلى أبي بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب جاء الحسن فقال النبي ﷺ: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين»، ففي هذا الحديث رد واضح على الخوارج، الذين كفروا عليًا ومن معه، ومعاوية ومن معه بما تضمنه الحديث من الشهادة للجميع بالإسلام، لذا كان سفيان ابن عيينة يقول: «قوله: فئتين من المسلمين تعجبنا جدًا» قال البيهقي: «وإنما عجبهم لأن النبي ﷺ سماهما جميعًا مسلمين، وهذا خبر من رسول الله ﷺ لما كان من الحسن بن علي بعد وفاة على في تسليمه الأمر إلى معاوية بن أبي سفيان».

روى ابن سعد بإسناده إلى محمد بن علي -المعروف بابن الحنفية- قال: قال علي: إني لأرجو أن أكون وطلحة والزبير من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]، كما شهد رضي الله عنه بالحسنى للقتلى من الفريقين في موقعة صفين، فقد روى ابن أبي شيبة بإسناده إلى يزيد بن الأصم قال: سئل على عن قتلى صفين فقال: «قتلانا في الجنة وقتلاهم في الجنة». فالواجب على المسلم أن يسلك في اعتقاده فيما حصل بين الصحابة الكرام رضي الله عنهم، مسلك الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، وهو الإمساك عما حصل بينهم رضي الله عنهم، ولا يخوض فيه إلا بما هو أليق بمقامهم.

قال الشاعر:

دع ما جرى بين الصحابة في الوغي ... بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم وكلاهما في الحشر مرحومان

عودة إلى ابن الزبير رضي الله عنه: اعتزل ابن الزبير حروب علي بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان.. وبايع معاوية بعد انتهاء الفتنة الكبرى، وعادت الوحدة الشاملة إلى صفوف المسلمين، وكان معاوية بن أبي سفيان إذا لقيه قال: «مرحبًا بابن عمة رسول الله وبابن حواري رسول الله ﷺ»، ويأمر له بمائة ألف.

وسمع معاوية رضي الله عنه رجلاً يقول:

ابن رقاش ماجد سميدع يأتي فيعطي عن يد أو يمنع

فقال: «ذاك عبد الله بن الزبير» ودخل على معاوية وعنده جماعة فيهم مروان ابن الحكم، وسعيد بن العاص، فأوسع له معاوية عن سريره، فلما انصرف عبد الله أقبل مروان على معاوية وقال له: «لله درك من رئيس قبيلة يضع الكبير ولا يدني إلا صغيرًا، فقال معاوية: نفس عصام سودت عصاما».

خلافة ابن الزبير رضي الله عنهما [١]:

١- لما مات معاوية بن أبي سفيان سنة ستين هجرية، امتنع ابن الزبير عن الدخول في طاعة يزيد بن معاوية، ولما توفى يزيد بن معاوية أوصى بالخلافة لابنه معاوية فبايعه أهل الشام، ولم يمض على خلافته عشرون يومًا وقيل: ثلاثة أشهر حتى مات، وكان ابن الزبير قد دعا لنفسه في مكة، وجاءته بيعة معظم الأقطار، فأرسل وُلاته إليها، وقد اعتبره الذهبي وابن كثير أميرًا للمؤمنين، وقال الذهبي: بويع له بالخلافة عند موت يزيد سنة أربع وستين هجرية، وحكم على الحجاز، واليمن، ومصر، والعراق، وخراسان، وبعض الشام، ولم يتوثق به الأمر، ومن ثم لم يعده بعض العلماء في أمراء المؤمنين، وعد دولته زمن فرقة، فإن مروان غلب على الشام ثم مصر، وقام عند مصرعه ابنه عبد الملك بن مروان وقاوم ابن الزبير وقتل رحمه الله، ونقل ابن كثير أن ابن حزم اعتبره أميرا للمؤمنين آنذاك.

---

(١) خلافة ابن الزبير، نقلا من محاضرات الشيخ عبد العزيز نور ولي، الذي درس لنا تاريخ الدولة الأموية في الجامعة الإسلامية بالمدينة، ولقد أجاد في الرجوع إلى المصادر الموثوقة فاكتفيت بها.

٢- لم يكن الصراع في الشام صراعا قبليا في بداية الأمر، ولم يكن انقسام أهل الشام قيسية ويمانية نتيجة تنافس بين الطرفين، وذلك لأنه لم يكن معاوية ولا يزيد قد فضلا أحد الطرفين على الآخر بل قربا كلا الفريقين، وإنما ظهر هذا الانقسام، لأن أهل الشام كانوا من بنى كلب اليمانية، أما الفاتحون لهذه البلاد فكانوا من القيسية واليمانية، وان أهل البلاد الأصليين، لا يرغبون في انتقال الخليفة من بلد إلى آخر، لذلك رفضوا مبايعة ابن الزبير الذي كان مقره الحجاز، وبخاصة أنه رفض طلب الحصين في الانتقال إلى الشام لتتم البيعة له.

أما القيسية الذين سكنوا الشام فلم يكن يهمهم أين يكون مركز الخلافة بقدر اهتمامهم بشخصية الخليفة، وكانوا أعلم بالصحابة وأقدارهم من غيرهم، لذلك كانوا يرون أنه لا يتحقق هذا المنصب إلا لأحد صحابة رسول الله ﷺ، لذلك بايعوا ابن الزبير وعلى رأسهم الضحاك بن قيس الفهري، أما اليمانية من أهل الشام فكانوا على ولائهم لبنى أمية، ولذلك اضطرب الناس، فخرج اليمانية إلى الجابية لمبايعة شخص من بني أمية، وأما القيسية فخرجوا إلى مرج راهط، اجتمع الكلبية في الجابية ورشح ثلاثة للخلافة: مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالد بن يزيد بن معاوية، ورجحت أخيرًا كفة مروان بن الحكم، وذلك ليكون ندا لابن الزبير، سار مروان إلى مرج راهط، واستطاع الكلبية أن يستولوا على دمشق ويضعوا أيديهم على بيت المال، وبذلك أمدوا مروان بالمال والرجال ونشب القتال بين جيش الضحاك، وانتهت تلك الموقعة التي دعيت بموقعة مرج راهط، بانتصار اليمانية على القيسية، واستقر أمر مروان في الشام، ثم اتجه مروان إلى مصر لأهميتها بالنسبة للشام، واستطاع انتزاعها وطرد عامل ابن الزبير منها وأخذ بيعتها لنفسه، ولكن مروان لم يعش طويلاً فقد مات في (رمضان سنة ٦٥ هـ)، وعهد بالبيعة إلى ابنه عبد الملك من بعده.

حركة التوابين في العراق:

اتجه عبيد الله بن زياد والي العراق عاملاً عليها من قبل مروان، ليلقى فيها حركة التوابين، وهم جماعة من أهل الكوفة بقيادة الصحابي سليمان بن صرد فتنادوا بأخذ الثأر من قتلة الحسين، وندموا على تفريطهم وخذلانهم له، وقد بلغ عددهم أربعة آلاف

مقاتل، اتجهت هذه الجماعة إلى عين الوردة، ولما علم بهم عبيد الله أرسل إليه حصين بن نمير بجيش الشام الذي بلغ عدده اثنى عشر ألفًا، ولما التقى الجيشان دعا كل فريق الآخر إليه، فأما جيش الشام فدعا التوابين إلى الدخول في طاعة مروان، وأما التوابون فدعوا جيش الشام إلى تسليم قتلة الحسين، وعلى رأسهم عبيد الله بن زياد، ولما امتنع كل فريق منهما في إجابة الآخر إلى طلبه، اشتبكا في قتال مرير، انتهى بانتصار جيش الشام، ومقتل سليمان بن صرد وعدد كبير من جيشه، وعاد الباقون إلى الكوفة، ولم يطاردهم جيش الشام، وسميت تلك الموقعة بموقعة عين الوردة.

قال ابن كثير رحمه الله: لو كان هذا العزم والاجتماع، قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة، لكان أنفع له وأنصر، من اجتماع سليمان وأصحابه لنصرته بعد مقتله بأربع سنين.

حركة المختار الثقفي بالكوفة:

استغل المختار بن أبي عبيد الثقفي فشل حركة التوابين، فدعا الناس إليه زاعما أنه سيأخذ بثأر الحسين، فانضم إليه الشيعة، وكان شعاره بـ «ثارات الحسين»، كما استغل الموالى فأخذ يدعوهم إلى الانضمام إليه، زاعما أنه يريد التسوية بين العرب والفرس، ودعا لمحمد بن الحنفية الابن الثالث لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، مدعيا أن الإمامة انتقلت إليه، فانضم إليه الشيعة والفرس والسبئية، كما استطاع استمالة إبراهيم بن الأشتر النخعي.

التقى جيش المختار بقيادة إبراهيم بن الأشتر النخعي بجيش عبيد الله سنة ٦٧ هـ ودارت بينهما معركة سميت بموقعة الخاذر، انتصر فيها جيش إبراهيم وقتل فيها عدد هائل من جيش عبيد الله، كما قتل عبيد الله بن زياد نفسه، وهذه الموقعة زادت من شعبية المختار، وصار سيد الكوفة بلا منازع، أحس عبد الله بن الزبير بخطر المختار فأرسل إليه أخاه مصعبا الذي نظم جيشه، وانضم إليه المهلب بن أبي صفرة، وبدأت حقيقة المختار تنكشف لأصحابه، فبدأوا ينفضون عنه، وعلى رأس من انفض عنه قائد جيشه إبراهيم بن الأشتر، التقى المختار وجيشه مع مصعب وجيشه في موقعة هزم فيها المختار وقتل، وذلك في رمضان من سنة ٦٧ هـ.

وقد ذكر العلماء أنه المقصود بالكذاب في قوله ﷺ: «إن في ثقيف كذابًا ومبيرا»، ومما

يدل على أنه كذاب ما أخرجه الإمام أحمد عن رفاعة القتباني قال: كنت أقوم على رأس المختار، فلما تبينت كذابته هممت -وأيم الله- أن أسل سيفي فأضرب عنقه حتى ذكرت حديثًا حدثنيه عمرو بن الحمق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أمن رجلاً على نفسه فقتله أعطى لواء الغدر يوم القيامة» وفي رواية: إني دخلت على المختار فألقى لي وسادة وقال: لولا أن أخي جبريل قام عن هذه لما ألقيتها لك، قال: فأردت أن أضرب عنقه فذكرت حديثًا حدثنيه أخي عمرو بن الحمق قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما مؤمن أمن مؤمنًا على دمه فقتله فأنا من القاتل بريء» وأيضًا ما ذكره الهيثمي عن أبي إسحاق قال: قلت لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: إن المختار يزعم أنه يوحى إليه، قال: صدق ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ثورة الأشدق والقضاء عليها:

عاد عبد الملك بن مروان بعد القضاء على ثورة الأشدق [(١)] لحرب مصعب، والتقى الجيشان في دير الجاثليق، وكاتب عبد الملك قواد مصعب، يعدهم ويمنيهم إذا بايعوه، فأخفوا ذلك عن مصعب، إلا أن إبراهيم بن الأشتر، الذي أطلع مصعبا على كتاب عبد الملك وأشار عليه بقتل قواده لإخفائهم أمر الكتب التي جاءتهم، ولابد أن يكون جاءهم ما جاءه، ولكن مصعبا رفض ذلك، فأشار عليه بإبعادهم على الأقل حتى تنجلي الحرب، ولكن مصعبا رفض هذا الرأي أيضًا، واشتعلت الحرب بين الطرفين، وانخذل أصحاب مصعب عنه، وانضموا لعبد الملك، فانتصر جيش الشام، وقتل مصعب وإبراهيم وجماعته، وكافأ عبد الملك الجنود الذين انضموا إليه، ثم سار إلى الكوفة ودخلها وبايعه أهلها، ثم انتقل منها إلى البصرة فبايعه أهلها أيضًا، وتمكن عبد الملك من العراق سنة ٧١ هـ وبقي في الحجاز.

قلت: إن رأي إبراهيم بن الأشتر كان صائبا، في إبعاده قادة حرب مصعب عن سير المعركة، ولكن الله قضى أمرًا كان مفعولاً.

---

(١) هو عمرو بن سعيد الأشدق الأموي.. عينه عبد الملك بن مروان على دمشق، فثار عليه وتحصن بها وأخذ أموال بيت المال، حيث غادرها عبد الملك إلى قرقيسيا.

المطلب الرابع
وفاة عبد الله بن الزبير

أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف الثقفي لقتال ابن الزبير في ذي الحجة سنة ٧٢ هـ فحاصر مكة ورماها بالمنجنيق، فقتل بها خلق كثير، وما زال الحجاج يحث جيشه على قتال أهل مكة وأهل مكة، يخرجون إليه طالبين الأمان، ويتخلون عن ابن الزبير، حتى انفض عنه معظم أصحابه، ولم يبق معه إلا القليل، فدخل عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهم، يشكو خذلان الناس له ويستشيرها في أمر القتال.

فقالت له: أنت والله يا بني أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على الحق وتدعو إليه، فامض، فقد قتل عليه أصحابك، ولا تمكن من رقبتك، فيلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنت على حق، ولما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار، ولا أهل الدين، وإلى كم خلودك؟! القتل أحسن، فدنا منها وقبل رأسها.

وقال: هذا والله رأيي، والذي قمت به داعيًا إلى يومي هذا، ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج، إلا الغضب لله أن يستحل حرمه، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني بصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أماه، فإني مقتول من يومي هذا، فلا يشتد حزنك، وسلمي لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عملاً بفاحشة ولم يجر في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته، ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي»[1].

وخرج للقتال حتى قتل فأخذ الحجاج جسده وأمر به فصلب، وكان مقتله في جمادى الأولى (سنة ٧٣ هـ)، وبذلك دخلت الحجاز في طاعة عبد الملك، وأخذت البيعة له فيها[2].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٦٣- ٣٨٠).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٧٩).

المطلب الخامس
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان يمتاز بصفات أهلته للقيادة، ومن تلك الصفات: أنه كان شهما فصيحًا شديد البأس، ذا أنفة، له نفس شريفة وهمة عالية، وكان صواما قواما، بالحق قوالا، وللرحم وصالا، شديدًا على الفجرة، ذليلا للأتقياء والبررة، حافظًا للقرآن، مبارزا للشجعان.

وكانت له قابلية لإعطاء القرار السريع الصحيح، ذا إرادة قوية ثابتة، يتحمل المسئولية بلا تردد يعرف مبادئ الحرب، له نفس لا تتبدل في حالتي النصر والانحدار، خبير بنفسيات رجاله وقابلياته، يثق بجنوده ويبادلونه ثقة بثقة وحبا بحب، ذا شخصية قوية نافذة، له ماض ناصع مجيد.

وكان يحض على تطبيق أكثر مبادئ الحرب أهمية في حروبه، وقد ظهر عمليا بوضوح أنه طبق مبادئ: اختيار المقصد وإدامته، والتعرض، والمباغتة، وتحشيد القوة، والأمن، والمرونة، والتعاون، وإدامة المعنويات، والأمور الإدارية.

فرحم الله عبد الله بن الزبير فقد كان الساعد الأيمن لأبيه الزبير في حروبه وخدمته العامة منذ شبابه الباكر حتى قتل الزبير، وكان من أبرز قادة الفتح الإسلامي في إفريقية، وعلى يديه كان انتصار المسلمين في معركتهم الفاصلة ضد جرجير، فرضي الله عن الصحابي الجليل، التقى الورع، الخطيب البليغ، وبطل الإسلام، القائد الفاتح عبد الله بن الزبير الأسدي القرشي [١].



---

(١) انظر: قادة فتح المغرب العربي (٣/ ٤٥- ٩٥).

المبحث السابع
عبد الملك بن مروان الأموي

عبد الملك بن مروان هو فاتح المدينة الشهيرة جلولاء، كما أنه قاد الناس في معركة حاسمة في أرض بلاد الروم، الذي قال فيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «ولد الناس أبناء، وولد مروان أبا» فمن هو عبد الملك بن مروان يا ترى؟!.

المطلب الأول
اسمه، نسبه، ميلاده، نشأته، وفاته

اسمه ونسبه:

هو عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي.

أبوه: مروان بن الحكم، كاتب عثمان ورئيس ديوانه.

أمه: عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية.

ميلاده: ولد عبد الملك سنة ست وعشرين هجرية [1] (٦٤٦ م) بالمدينة في خلافة عثمان بن عفان، وشهد يوم الدار، مع أبيه وهو ابن عشر سنين، وهو أول من سمي: عبد الملك في الإسلام.

نشاته:

نشأ عبد الملك نشأة إسلامية منذ صغره، فلم يدرك لحظة في الجاهلية، وقد حفظ القرآن في سن مبكرة، وتلقى الثقافة العربية الإسلامية لغة وأدبا وعلما، فبلغ في كل ذلك شأنا بعيدًا، ويعد من الطبقة الثانية من التابعين، وكان أول ما شاهده، مجد الدولة الإسلامية وسيادتها، وتأثر بأعمال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسيرته، وتتلمذ على عثمان، فنشأ ورعا قارئا القرآن، عاملاً بتعاليمه، مكبا على العلم.

وفاته:

وفي مرض موته قيل: كيف تجدك؟ فقال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٤٦).

فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وعندما ثقل جعل يلوم نفسه ويضرب يده على رأسه وقال: وددت أني كنت اكتسب يومًا بيوم ما يفوتني، واشتغل بطاعة الله، ولما احتضر عبد الملك أمر بفتح الأبواب من قصره، فلما فتحت سمع قصارا بالوادي، فقال: ما هذا؟ فقالوا: قصار فقال: يا ليتني كنت قصارا أعيش من عمل يدي، فلما بلغ سعيد بن المسيب قوله قال: الحمد لله الذي جعلهم عند موتهم يفرون إلينا ولا نفر إليهم.

ولما اشتد مرضه قال بعض الأطباء: إن شرب الماء مات، فاشتد عطشه، فقال: يا وليد اسقني ماء، فقال: لا أعين عليك، فقال لابنته فاطمة: اسقيني ماء فمنعها الوليد، فقال: لتدعنها أو لأخلعنك لم يبق بعد هذا شيء، فسقته فاطمة، فمات ودخل عليه الوليد وابنته فاطمة عنده تبكي، فقال: كيف أمير المؤمنين؟ فقالت: هو أصلح!.

المطلب الثاني

جهاده قبل خلافته وبعدها

قبل خلافته:

شتا المسلمون بأرض الروم سنة اثنتين وأربعين هجرية، وهو أول مشتى شتوه بها، فاستعمله معاوية بن أبي سفيان على أهل المدينة، وعبد الملك يومئذ ابن ست عشرة سنة، فركب عبد الملك بالناس البحر، وغزا إفريقية تحت لواء معاوية بن حديج السكوني، مرتين مرة سنة إحدى وأربعين هجرية، والثانية: غزاها سنة خمس وأربعين هجرية، فبعثه ابن حديج إلى «جلولاء» ففتحها، وقد سار عبد الملك إلى «جلولاء» على رأس ألف رجل فحاصرها أيامًا دون جدوى، وحين أراد الانصراف وسار بهم رأى غبارا كثيفًا، فظن عبد الملك أن العدو يطارد قواته، لذلك كر راجعا فرأى سور جلولاء قد وقع، فدخلها المسلمون وغنموا ما فيها.

واختلف الناس في الغنيمة، فكتب ابن حديج في ذلك إلى معاوية بن أبي سفيان، فكتب أن العسكر ردء للسرية، فقسم ذلك بينهم، فأصاب كل رجل منهم لنفسه مائتي دينار وضرب للفرس بسهمين، ولصاحبه بسهم، فقال عبد الملك: «فأخذت لفرسي

ونفسي ستمائة دينار واشتريت بها جارية»، ما غزا بلاد المغرب مع معاوية بن حديج على بعث أهل المدينة سنة خمسين هجرية، فذكر من كفايته وغنائه ومجاهدته في تلك البلاد شيئًا كثيرًا.

بعد خلافته:

أ- في إفريقية:

بعث عبد الملك زهير بن قيس البلوي لاسترداد إفريقية من الروم وحلفائهم البربر، وذلك سنة تسع وستين هجرية، فانتصر ودخل القيروان، ولكنه قتل بعد ذلك، وبعد مقتل زهير اختار عبد الملك بن مروان قائدا قديرا هو حسان بن النعمان الغساني، فسيره إلى إفريقية، وجعل له الولاية عليها، وذلك سنة ثلاث وسبعين هجرية، ففتح قرطاجنة، وأتم تحرير الشمال الأفريقي.

ب- في بلاد الروم:

حاصر المسلمون القسطنطينية أيام معاوية بن أبي سفيان سبع سنوات، وكادوا يفتحونها، فلما نشبت الاضطرابات الداخلية بين المسلمين اضطر عبد الملك إلى عقد هدنة مع الروم لينصرف إلى معالجة الأزمات الداخلية بين المسلمين، وفي سنة ثلاث وسبعين استعاد عبد الملك بن مروان سيطرته على الدولة الإسلامية فعين أخاه محمد بن مروان واليا على الجزيرة و «أرمينية»، ليكون القائد في الجهة المتاخمة للروم، وقطع إرسال النقود التي كان يرسلها للروم، فأعلن امبراطور الروم جستنيان الثاني الحرب، وقدم بجيش كبير لغزو المسلمين، فلاقاه محمد بن مروان، ودارت بين الطرفين معركة طاحنة هزم فيها الروم هزيمة شنيعة، وكان ذلك سنة أربع وسبعين هجرية.

وبعد استقرار الأوضاع في دار الإسلام، بدأ التوغل الإسلامي في داخل الأراضي البيزنطية، فكانت الطوائف تخرج بانتظام للإغارة على هذه الأراضي بقيادة محمد بن مروان، وغيره من أمراء بني أمية، وفي سنة إحدى وثمانين هجرية، بعث عبد الملك بن مروان، عبد الله بن عبد الملك ففتح «قاليقالا» وهي إحدى مدن الروم الكبيرة، وفي سنة أربع وثمانين تمكن عبد الله بن عبد الملك من فتح مدينة أخرى رئيسة داخل دولة الروم

في آسيا الصغرى وهي مدينة «المصيفة»، وفي سنة سبع وسبعين هجرية، غزا عبد الملك بنفسه الروم، ففتح مدينة «هرقلة».

وهكذا اندفعت قوات المسلمين تفتح المعاقل وتستولي على الحصون بعد تحقيق الوحدة في عهد عبد الملك.

جـ- في المشرق:

ضم عبد الملك بن مروان سنة ثمان وسبعين هجرية خراسان وسجستان إلى أعمال الحجاج بن يوسف الثقفي، فبعث المهلب على خراسان بعد فراغه من قتال الخوارج، فاستعاد خراسان وسجستان وفتح مدنا أخرى ومناطق جديدة.

المطلب الثالث

أعماله في فترة خلافته

استقبل عبد الملك الخلافة لهلال شهر رمضان سنة خمس وستين هجرية، فكان على أرض الشام، ومصر، وكان عبد الله بن الزبير على البلاد الإسلامية الأخرى [1].

١- في طريق الوحدة:

فقد بذل عبد الملك قصارى جهده لإعادة الوحدة الشاملة إلى البلاد الإسلامية... فكان له ذلك حيث انطلق من نقطة الصفر سنة خمس وستين هجرية. حيث تولى الخلافة، وحيث كان عرشه مزعزع الأركان حتى في دمشق نفسها، وانتهى

---

(١) قلت: إن خلافة عبد الملك بن مروان تبدأ على الصحيح بعد مقتل ابن الزبير، ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري أن عبد الله بن عمر كتب إلى عبد الملك بمبايعته له، وذكر ابن حجر أن ذلك كان بعد مقتل ابن الزبير، فحتى لو لم تسلم بخلافة لعبد الملك في الفترة السابقة، لأنها أقل ما يقال عنها أنها زمن فرقة، وطرق انعقاد الخلافة تكون بالاختيار أو بالاستخلاف، كاختيار الأمة للصديق رضي الله عنه أو استخلاف الصديق للفاروق، وهناك طريق آخر تجب الطاعة بموجبه، ويحرم الخروج عليه بسببه، ولكنه ليس من الطرق الشرعية. ولا يجوز إلا للضرورة من أجل مصلحة المسلمين وحقن دمائهم، وذلك هو طريق القهر والغلبة والاستيلاء على الحكم ما دام قائماً في الناس بالشرع، فقد بايع عبد الله بن عمر عبد الملك بن مروان وبالسيف أخذ الملك وأمر له بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة نبيه.

في سنة ثلاث وسبعين هجرية إلى القمة حيث دانت له الدولة الإسلامية كلها، وأعاد الوحدة الشاملة إلى دار الإسلام.

٢- بعد الوحدة الشاملة:

أ- إشاعة الاستقرار:

قضى على الخوارج في البحرين سنة ثلاث وسبعين هجرية، وأعاد بناء الكعبة على ما كانت عليه قبل عبد الله بن الزبير، وبعث المهلب بن أبي صفرة إلى حرب الأزارقة، وانطلقت الجيوش الإسلامية للفتح، ولاستعادة المناطق التي استعادها العدو في إيران وبلاد الروم وإفريقية، وولى الحجاج سنة خمس وسبعين هجرية العراق.

وفي سنة اثنتين وثمانين هجرية ثار عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج، فاستطاع الحجاج بمساعدة عبد الملك، القضاء على أكبر ثورة داخلية، هددت كيان الدولة الإسلامية بعد الوحدة، وذلك سنة ثلاث وثمانين هجرية.

وكان من ثمرات الوحدة أن أعادت الدولة الإسلامية كامل سيطرتها على ما فتحه الخلفاء الأولون، وذلك من نهر جيحون شرقًا إلى قرطاجنة غربًا، وإلى أعمال بلاد الروم شمالاً، بعد أن كان عبد الملك يدفع الإتاوة لإمبراطورية القسطنطينية قبل الوحدة.

ب- إصدار العملة:

في سنة ست وسبعين هجرية ضرب عبد الملك الدنانير والدراهم، وهو أول من أحدث ضربها في الإسلام... وبذلك حقق عبد الملك للدولة الإسلامية استقلالها المالي.

جـ- تعريب الدواوين:

بقيت أهم دواوين الدولة الإسلامية -ومنها ديوان الخراج- وهو الذي كان يشرف على الشئون المالية للدولة -تستعمل اللغات الأجنبية، كما كانت حالها في عهود الدولة السابقة قبل ظهور الإسلام، فقام بتعريبها، وبذلك أصبحت اللغة العربية هي لغة جميع الدواوين، وكان من نتائج ذلك إبطال اللغات الأجنبية، فتحقق نصر اللغة العربية على تلك اللغات الأجنبية والأقاليم، فكان هذا من أكبر عوامل انتشار العربية بعد عامل القرآن الكريم.

المطلب الرابع
أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لا شك أن عبد الملك قبل خلافته كان يعتبر من فقهاء المدينة الأربعة المعدودين، وكان أديبا، عدوه من القلة الذين لا يلحنون، وكان سياسيًا محنكا ذكيا، وكان رجل دولة بكل ما في الكلمة من معان: يختار الرجال الأوفياء الأمناء، ويولي الأمور للمختارين من الرجال، ويرى أن قوتهم قوة له وللدولة، وضعفهم ضعف عليه وعلى الدولة، وكان يجمع ولا يفرق، ويوحد ولا يشتت، ويعدل ولا يظلم، ويصالح ولا يخاتل.

أما مميزاته في ميادين الوغي:

فإنه كان لا يستبد برأيه بل كان يستشير رجاله المقربين في كل صغيرة وكبيرة قبل أن يقدم على تنفيذ أي عمل عسكري، وكانت له موهبة فذة في اختيار الرجال المناسبين للعمل المناسب، وكان يبذل جهوده السلمية قبل خوض كل معركة وأثناءها لتجنب ويلات الحرب، وكان يحاول بكل طاقته استمالة رجال خصمه، باذلا لهم الوعود السخية والمناصب المرموقة، والمال الكثير، كان يولي ثقته الكاملة لرجاله، ويتجنب أمر تبديل رأيه فيهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، كان ذا رأي سديد، بصيرا بالحرب شجاعا بالسيف.

فرحمة الله على التابعي الجليل، الإداري الحازم، القائد الفاتح، العالم الأديب، بطل الوحدة، ورجل الدولة، عبد الملك بن مروان الأموي [(١)].



(١) راجع كتاب قادة فتح المغرب (٢/ ٩٥- ١٥٢).

المبحث الثامن
رويفع بن ثابت الأنصاري

رويفع الصحابي الجليل رضي الله عنه فاتح جزيرة جربة في تونس الخضراء، الذي عاش حياة الجهاد حتى استشهد في سبيل الله، وقد اعتزل الأحداث السياسية، ولم يشارك فيها، لا بلسانه ولا بسيفه، حتى انكشفت الغمة، وعادت الوحدة الشاملة إلى المسلمين، فمن هذا الصحابي، وكيف كانت حياته الجهادية؟.

المطلب الأول
اسمه ونسبه

هو رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة الأنصاري، من بني مالك بن النجار كان صحابيًا، روى عن النبي ﷺ وروى عنه جماعة من التابعين، ولكننا لا نعرف متى أسلم ولا عن جهاده تحت لواء الرسول القائد، فقد نال رويفع شرف الصحبة ولكنه لم ينل شرف الجهاد تحت لواء النبي ﷺ.

المطلب الثاني
جهاده

كانت أرض الشام ميدان رويفع، فلما أنجز المسلمون فتحها سار رويفع تحت لواء عمرو بن العاص لفتح مصر، وليبيا، والنوبة، كما شهد معارك الفتح التي خاضها عبد الله بن أبي السرح لفتح إفريقية، ومعاوية بن حديج السكوني لفتح المغرب.

وفي سنة خمس وأربعين هجرية غزا معاوية بن حديج السكوني المغرب، فاستعاد فتح طرابلس الغرب، وترك فيها رويفع بن ثابت واليا عليها سنة ست وأربعين هجرية، فغزا إفريقية «تونس»، ودخلها سنة سبع وأربعين هجرية، وفتح جزيرة جربة التي كان يسكنها البربر، ثم انصرف من عامه إلى طرابلس مقر عمله.

المطلب الثالث

حيـــاته

كان رويفع صحابيًا جليلا، لم يشارك فيما حدث بين علي بن أبي طالب ومعاوية من قريب أو من بعيد، بل بقي مستقرا في مصر حتى انكشفت الغمة وعادت الوحدة الشاملة بين المسلمين.

سكن مصر واختط بها دارا، وقد ولاه معاوية بن حديج أيام معاوية بن أبي سفيان طرابلس الغرب سنة ست وأربعين هجرية، وتولى برقة لمسلمة بن مخلد، حتى كانت وفاته وهو أمير عليها من قبل مسلمة بن مخلد، سنة ست وخمسين هجرية (٦٧٦ م)، وقبره مشهور في الجبل الأخضر بـ «برقة» في مدينة البيضاء، وهو آخر من توفي من الصحابة هناك، روى عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، وكان فقيها من أصحاب الفتيا من الصحابة وكان خطيبا مفوها[١].

المطلب الرابع

أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية

لقد كان رويفع الأنصاري إداريا حازما، قويًا صادقًا، وفيا، تقيا، كريمًا، سخيا، وقد بذل قصارى جهده مجاهدا في سبيل الله في ميادين أرض الشام ومصر والشمال الأفريقي.

وقد شهد معارك كثيرة برية وبحرية، فقد سار بجيشه بحرا إلى جزيرة جربة وفتحها وقضى على فساد أهلها، الذين كانوا يفسدون في البر والبحر، فنشر فيهم الدين الحنيف وضمهم إلى البربر المسلمين.

لقد كان سلاح رويفع في حربه، تقوى الله وحده، وكثرة ذكره والاستعانة به، والتوكل عليه، والفزع إليه ومسألته النصر والتأييد والسلامة والظفر، وكان يسوس رجاله سياسة حكيمة قوامها المحبة المتبادلة والهيبة منهم له، والمحبة من بعضهم لبعض، يتفقد من أمور أصحابه، جميع ما يعود نفعه عليهم، ويتزيد محسنهم بالتكرمة، ويجعل عامة أصحابه في لين الكلمة بمنزلة الخاصة، من غير أن ينقص أحدًا من ذوي البلاء حقه وثوابه.

---

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة (٢/ ٨٨).

وكان شجاعا مقداما، كامل العقل، طويل التجربة بعيد الصوت، مأمون النقيبة، بصيرا بتدابير الحرب ومواضعها، حسن التعبئة لأصحابه في أحوال التعبئة، مدخلاً الأمن عليهم، والخوف على عدوهم، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو، حسن السيرة عفيفا صارما متيقظا سخيا.. لقد كان قائدا ممتازا.

واخيرًا:

يذكر التاريخ لرويفع الأنصاري رضي الله عنه أنه قضى حياته كلها مجاهدا، وإداريا، ورافق أعلام الفتح الإسلامي من مبدأ سيرها إلى أرض الشام، من المدينة المنورة إلى نهاية مستقرها في الشمال، ويذكر له أنه من الدعاة الأوائل، الذين نشروا الإسلام بأرض الشام، ومصر، والمغرب عامة والبربر خاصة.

ويذكر له، أنه فتح جزيرة جربة، ومات بعيدًا عن أهله، فاستقرت نفسه مطمئنة في سفوح الجبل الأخضر من أرض ليبيا في برقة، حيث لا يزال أهلها يذكرونه بالتقدير والإكبار.

إنه نسى نفسه من أجل عقيدته والمصلحة العامة العليا، فذكره الناس في أيامه ولا يزالون، رضي الله عن الصحابي الجليل، والإداري الحازم، التقي، النقي، الفارس البطل، القائد الفاتح، رويفع بن ثابت الأنصاري النجاري [١].

* * *

(١) أسد الغابة: (٢/ ١٥٣- ١٥٦).

الباب الرابع

عهد الولاة

الفصل الأول

كتاب يهدي وسيف يحمي

لقد فقه صحابة رسول الله ﷺ معاني «كتاب يهدي، وسيف يحمي»، حيث إنهم حملوا السلاح حان وقت حمل السلاح، وفتحوا الكتاب كذلك في وقته المناسب، فلم يكن هناك تعارض عندهم بين طلب العلم الشرعي وتدريسه، وبين حمل السلاح وتطبيق آيات الكتاب في أرض الواقع، لا يوجد اختلاف بين هذه وتلك، فلكل وقت فريضة، وهكذا كان حقيقة علم الصحابة رضي الله عنهم وعلى هذا الطريق سار أئمة أهل السنة والجماعة.



كتائب الدعاة المجاهدين نحو الشمال الأفريقي

إن بداية الفتح الإسلامي لشمال إفريقية كان سنة اثنتين وعشرين هجرية بقيادة الصحابي الجليل عمرو بن العاص رضي الله عنه، واستمرت بعد ذلك الحملات الجهادية على شمال إفريقية حتى كانت حملة القائد الجليل موسى بن نصير اللخمي رحمه الله حيث أكمل فتح الشمال الأفريقي عام ثمانية وثمانين هجرية.

ولقد قدم المسلمون خلال فتوحاتهم المباركة للشمال الأفريقي الألوف من الشهداء والدماء والأشلاء في ساحات الوغى والفداء، التي دامت قرابة ست وستين سنة، وكان من بين أولئك الشهداء أكابر قيادات الفتح الإسلامي منهم: (القائد عقبة بن نافع الفهري وأبو المهاجر، وزهير بن قيس البلوي) فرحم الله الجميع وأدخلهم فسيح جناته.

ولا ريب أن جيوش الفتح الإسلامي -قيادات وجنودا - كانوا يحملون الدعوة الإسلامية والعقيدة الصحيحة في شغاف قلوبهم وجوارحهم إلى تلك الشعوب والأمم حيثما نزلوا غربًا وشرقًا، فقد كانوا بالفعل يحملون المصحف والسيف (كتاب يهدي وسيف يحمي) إذ إنهم كانوا دعاة بالدرجة الأولى، ومجاهدين بالدرجة الثانية، لأن هناك تلازمًا بين العلم والسيف، فالسيف لا يرفع إلا بعلم، والعلم لا يتحقق في حقيقة الناس إلا بالسيف والقوة (بعثت بين يدي الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده ولا يشرك به..)[(١)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك:

«وأما العلم بالكتاب والحكمة فهو على الكفاية، لا يجب على كل أحد بعينه أن يكون عالمًا بالكتاب: لفظه ومعناه، عالمًا بالحكمة، بل وجوب ذلك أسبق، وأوكد من وجوب الجهاد، فإنه أصل الجهاد، ولولاه لم يعرفوا علام يقاتلون، ولهذا كان قيام الرسول والمؤمنين بذلك قبل قيامهم بالجهاد، فالجهاد سنام الدين وفرعه وتمامه، وهذا أصله وأساسه وعموده ورأسه»[(٢)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: (٢/ ٩٢) وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٢) مجموعة الفتاوى، لابن تيمية (١٥، ٣٩).

وهكذا سارت الدعوة الإسلامية جنبًا لجنب مع فتوحات المسلمين، يحملها إلى العالم قادة ربانيون وعلماء مصلحون وجنود فاتحون، رهبان بالليل وفرسان بالنهار، حتى أصبحت أغلب معالم هذه الجيوش في تلك البلاد المفتوحة، إحياء الأمة بالقرآن والسنة، ونشر الدعوة واستفاضة البيان في أوساط العباد وفي ربوع البلاد، والتمكين لشرع الله حتى يحكم العباد والبلاد في تلك الأصقاع، وبل قد يصدق على تلك الجيوش تسميتها بجيوش الفقهاء والمحدثين والقراء أكثر من تسميتها بجيوش عسكرية بحتة، حيث إنهم كانوا لا هم لهم إلا تبليغ دعوة الله سبحانه واستفاضة بيانه إلى الناس أجمعين، وبسط سيادة القرآن والسنة في جميع مناشط العباد والبلاد.

وهكذا اندمجت جيوش الفقهاء والمحدثين والدعاة مع إخوانهم في الدين من البربر وغيرهم من سكان شمال إفريقية، حيث تراهم حينا في تعليمهم أصول دينهم وفروعه، وحينا آخر في تربيتهم على كيفية تطبيق مبادئه في أرض الواقع، وحينا في إعدادهم كدعاة وقادة لحمل العبء معهم، حتى أصبحوا كالرجل الواحد والجسد الواحد: (إذا اشتكى منه عضو اشتكى معه سائر الجسد)، فالأهداف أصبحت متحدة والوسائل مشتركة، والمقاصد واحدة، وزالت بفضل الله تلك الفوارق التي تكون عادة بين الفاتحين وأهل البلاد الأصليين، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا: (لا فرق بين عربي وعجمي إلا بتقوى الله).

لقد اكتمل فتح هذه المنطقة عسكريا سنة ثمان وثمانين هجرية بقيادة موسى بن نصير رحمه الله، وما أن استقرت الأوضاع السياسية، وتقسم الولاة والأمراء التي أخذت قرابة عشر سنوات من قيادة المنطقة حتى كان عهد الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز الذي تولى إدارة سدة الخلافة عام تسعة وتسعين هجرية، حيث عين إسماعيل بن عبيد الله واليا على الشمال الأفريقي وكان، يمتاز بحسن السيرة والسلوك مما جعله يؤثر في قبائل البربر تأثيرًا إيجابيًا بالغًا.

يقول صاحب كتاب فتوح مصر وأخبارها: «تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه سنة تسع وتسعين هجرية، فولى إسماعيل بن عبيد الله على حرب المغرب، وخراجه وصدقاته، في المحرم سنة مائة هجرية، وكان إسماعيل حسن السيرة، وأسلم في

زمانه جميع البربر طوعا ورغبة واقتناعا»[١].

وبتلك التقريرات الإيجابية عن قبائل البربر التي قدمت من الشمال الأفريقي إلى خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز، جعلت الخليفة عمر بن عبد العزيز يعجل باتخاذ خطة تعليمية لنشر الإسلام في الشمال الأفريقي، وكان أهم أهداف الخطة التعليمية التربوية:

الهدف الأول: اختيار علماء ربانيين اشتهروا بالعلم والفقه والدعوة والتجرد للإشراف على التربية والتعليم.

الهدف الثاني: وضع خطة بعيدة المدى لنشر تعليم اللغة العربية، ومحو الأمية في أوساط القبائل البربرية حتى يسهل بعد ذلك فهم القرآن والسنة والتعامل معهما.

الهدف الثالث: الاهتمام بربط الناس بالقرآن المجيد الذي هو حبل الله المتين، ويكون ذلك بفتح الكتاتيب وجمعيات تحفيظ القرآن وتجويده.

الهدف الرابع: البلاغ الواضح المبين لعقائد أهل السنة والجماعة.

الهدف الخامس: تعليم الناس الحلال والحرام.

وهكذا شرع خليفة المسلمين عمر بن عبد العزيز بتنفيذ هذه الخطة الواعية، بعد تقريرها وتأطرها وفق المبادئ الإسلامية والأسس الحركية، حيث تم تعيين أفضل عشرة من فقهاء التابعين ذوي الصفات المطلوبة من الناحية العلمية الأكاديمية، ومن الناحية العملية السلوكية التربوية لهذه المهمة الجهادية الصعبة.

وبعد ذلك تحركت القافلة العملية الدعوية في مهمتها الجهادية نحو الشمال الأفريقي حيث استقر بها المسير في مدينة العلم وقلعة الجهاد، مدينة القيروان عاصمة العلم في الشمال الأفريقي آنذاك، وما أن حطت القافلة رحالها، والتقطت أنفاسها من مشقة الطريق حتى طفقت ترتب أمورها، وتجهز أدواتها، وتحصى مواطن الخير، ومواقع العلم حتى تبدأ من حيث انتهى من كان قبلها من أهل العلم والفضل والجهاد، وهكذا

---

(١) فتح مصر وأخبارها (ص ٢١٣).

استمرت القافلة العلمية في تنفيذ مهمتها الجهادية في أوساط القبائل البربرية ووفق خطة استراتيجية، لنشر الإيمان وإحياء السنة وإماتة البدعة، واستفاضة العلم ورفع الجهل، وإقامة العدل، وإزالة الظلم.

وقد نجحت هذه القافلة الدعوية في مهامها الجهادية أيما نجاح، إذ استطاعت في مدة وجيزة أن تبلغ دعوة الله إلى جميع أبناء تلك الأصقاع التي شملت الشمال الأفريقي، وامتدت عبر البحر إلى الأندلس، وجنوب فرنسا، بيد أنا نقرر بأن لهذا النجاح المتفوق عوامل ساعدت على تحقيقه في فترة وجيزة، ومن أهم تلك الأسباب والعوامل ما يلي:

أولاً: الحالة السياسية آنذاك:

كانت هذه الحقبة من الزمان التي امتازت بهدوء سياسي واستقرار نسبي قد سبقها حلقات جهادية بين الكر والفر، فكانت آخر هذه الحلقات الجهادية حلقة موسى بن نصير والتي تولى بعدها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه خلافة المسلمين، فشكل عهده حلقة من حلقات الاستقرار السياسي، والاستتباب الأمني في ربوع البلاد وقلوب العباد.

ثانيًا: الحالة النفسية الفكرية:

لقد استقر في نفوس أولئك الدعاة العلماء المجاهدين من التابعين، أنه لا يستقيم أمر الفكر والدعوة إلا باستقامة القلوب، ولا تتأثر الشعوب بكلام إلا بكلام القلوب، والذي كان لعامل إخلاصهم لله، وصدقهم مع ربهم، والتزامهم بسنة الرسول ﷺ وورعهم عن حطام الدنيا الأثر البليغ في نفوس الأمازيغ البربرية.

ثالثًا: الحالة السلوكية الحركية:

إن هذا الدين ليس شعارات ترفع، ولافتات تصنع، وكلمات تسبك، وعبارات تنثر، وإنما هو ما وقر في القلب وصدقه العمل، وهكذا كانت حقيقة الحالة السلوكية الحركية لتلك القافلة العلمية الدعوية الجهادية في أوساط القبائل البربرية، العمل قبل القول؛ وبذلك تأثرت القبائل البربرية برجال القافلة الدعوية الجهادية في نواحي العقيدة السليمة، والعبادة الصحيحة، والأخلاق الرفيعة، مما ساعد على صبغ الحياة البربرية كلها بصبغة إسلامية في جانب اعتقاد الجنان، ونطق اللسان، وتطبيق الأركان ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ

أحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

رابعًا: جمال الشريعة الإسلامية:

لا شك أن حق الأمة الجهاد، وحق العلم البيان، وحق الدعوة الحكمة والتدرج، لذلك فقد أخذت هذه القافلة المباركة على عاتقها تطبيق حق الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، حيث استطاعت هذه القافلة الدعوية تطبيق حق الدعوة بالكلمة والتدرج في استيعاب القبائل البرية، وذلك بتقدير الإسلام والدعوة بسهولة ويسر، ما جعل القبائل البربرية تدخل في دين الله أفواجا وبالتدرج واهتمت ببيان الآتي:

١- بيان مقاصد الشريعة:

وذلك بتقدير نشر مبادئ رفع الحرج عن العباد في الإسلام ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]، وتأصيل مبادئ العبادات الشرعية على قواعد اليسر، ورفع الحرج والتدرج وفق القوانين السنية واعتبار المصالح البشرية.

٢- إبراز مكانة مكارم الأخلاق في الإسلام:

لا ريب أن فحوى الرسالة المحمدية -على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم- كان لإتمام مكارم الأخلاق كما قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[1] وتلك المكارم تشمل العقائد، والتصورات، والسلوكيات حيث العفة، والأمانة، والصدق، والشهامة والإحسان، والإكرام، والأخوة في الدين والإيثار، والعدل والإنصاف، وبتطبيق تلك الأخلاق الإسلامية في المنطقة المغربية أصبح ابن الكاهنة -التي حاربت الإسلام والمسلمين- بعد دخوله في الإسلام قائدا من قواد المغرب الأقصى في عهد القائد الزعيم حسان بن النعمان الذي قاسى من أمه الأمرين!!

٣- تحقيق روح العدل والإنصاف:

وكان ذلك متمثلا في رفق ولاة المسلمين بالرعية، وتطبيق المبادئ العدلية كما جاءت بها الرسالة المحمدية على القوي والضعيف، مما جعل قبائل البربر تنظر إليهم نظرة

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١) وصححه أحمد شاكر.

إعجاب وتقدير، وتسرع في الانضمام إلى صفوف هذا الدين العظيم دين الإسلام، شريعة، وعبادة، وعقيدة، حتى أصبح منهم دعاة للإسلام، وقادة للجهاد حملوا الإسلام دعوة ودولة إلى ربوع الأراضي الأندلسية، والساحات الفرنسية، والجزر الإيطالية، والمجاهل الأفريقية.

تأسيس أول جامعة إسلامية في الشمال الأفريقي:

لا شك أن أول ما ينبغي على الجيش الفاتح تحقيقه هو إيجاد مدينة يستقر بها المسلمون، وتكون محط رحال الجند، منها تنطلق سراياهم وبها يحتمون عند الخطر، ولتكون المنطلق الطبيعي لنشأة الحياة الإسلامية، وتثبيت شعائر الدين، وإقامة أحكامه في البلد المفتوح، إلا أن هذه الغاية لم تكن سهلة المنال في إفريقية، لصعوبة مراس أهلها وكثرتهم، وبعدها عن مركز الخلافة، وهذا يعني انعدام المدد المستمر، كما يعني أن اهتمام الخليفة سينصب أولا على البلاد القريبة منه، ولذلك فإن مشاكل المشرق كثيرًا ما كانت تصرف أنظار ولي الأمر عن التفكير في وضع إفريقية، ولهذه الأسباب لم يتمكن المسلمون من تأسيس مدينة القيروان إلا بعد أكثر من عشرين سنة من بداية الفتح، ولقد استهوت ناحية القيروان المسلمين منذ غزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ فإن أبا السرح قد نزل فيها مدة وضرب فسطاطه في أرضها.

كما لا يخفى أن أول من بنى مساكن للجند فيها وسماها (قيروان) هو معاوية ابن حديج سنة ٤٥ هـ، وكان ذلك عند القرن (وهو جبل قريب من القيروان)، وفي هذه الغزوة توفى الصحابي أبو زمعة البلوي، وبه سميت مقبرة القيروان بعد ذلك بالبلوية، مما يؤكد قرب المساكن التي بناها ابن حديج من موقع القيروان.

ولما قدم عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ لاحظ كثرة ارتداد البربر، لذلك قرر ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين من العرب والبربر لتحفظ عليهم دينهم، ودنياهم، فقال لأصحابه: «إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر، فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر».

فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة فيما بناه ابن حديج فلم يعجبه، فتحول عنه قليلاً وأمرهم بالبناء بعد أن استشارهم حول الموقع الذي امتاز بطيب مرعاه، وبعده عن البحر حتى لا يطرقه العدو ليلا، وكان المكان واديا كثير الشجر وتأوي إليه الوحوش والسباع فنادى فيهم عقبة بقوله: «يا أهل الوادي إنا حالون إن شاء الله، فاظعنوا»، ثلاث مرات قال (الراوي): فما رأينا حجرا ولا شجرا إلا يخرج من تحته دابة حتى هبطنا بطن الوادي، ثم قال: «انزلوا باسم الله» [1].

فنزلوا وقطعوا الأشجار، وبنى المسجد الجامع ودار الإمارة، وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات كان عقبة أثناءها يرسل السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام، وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعليم والاشتراك مع إخوانهم الفاتحين.

ولما تولى أبو المهاجر إمارة إفريقية بنى مدينة تيكروات على ميلين من مدينة القيروان، فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، فلما عاد عقبة في إمارته الثانية أعاد عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرة خمسة وعشرون صحابيًا فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو وهم يؤمنون، ومما قاله في دعائه: «اللهم املأها علمًا وفقها، وأعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلا لمن كفر بك، وأعز بها الإسلام وأهله، وادمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة» [2].

وسرعان ما اتسع بناء القيروان حتى اشتمل سورها على أربعة عشر بابا وسبعة محارس، وقسمت إلى أرباض، وحارات، وشوارع، وأزقة، وأسواق، وحمامات، وقد وصفت القيروان في كتب الجغرافيين والمؤرخين بأوصاف جليلة تنبئ بعظمتها وتدل على فضلها، ومن ذلك قول الإدريسي: «ومدينة القيروان أم الأمصار، وقاعدة الأقطار،

---

(١) تكاد المصادر تجمع على ذكر هذه الحادثة وهذه المصادر هي: تاريخ خليفة بن خياط، فتوح مصر والمغرب، فتوح البلدان، تاريخ الطبري، البداية والنهاية، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، وأول من ذكرها خليفة في تاريخه وقد نقلها عنه الحافظ ابن حجر في كتابه الإصابة وحكم على إسنادها بأنه حسن، ومع ذلك شكك في صحتها بعض المعاصرين، زاعمين أنها مجرد أسطورة أملتها الظروف التي أحاطت بتأسيس القيروان ولا يوجد مانع شرعي من حدوثها.

(٢) مدينة الحديث في القيروان، للحسين بن محمد (١/ ٤٤- ٤٨).

وكانت أعظم مدن المغرب قطرا، وأكثرها بشرا، وأيسرها أموالا، وأوسعها أحوالا، وأتقنها بناء، وأنفسها هما.. والغاب على فضلائها التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلي عن الشبهات، واجتناب المحارم والتفنن في محاسن العلم...»[1].

أهمية القيروان في نشأة الحياة العلمية بإفريقية:

لا يخفى أن مدينة القيروان تعتبر أول جامعة إسلامية في شمال إفريقية، بل أصبحت لفترة طويلة قبلة علم لكل سكان القارة الأفريقية، وسكان جنوب البحر الأبيض المتوسط، لذلك أصبحت مدينة القيروان الجامعة الإسلامية، صاحبة الرسالة العلمية، والأنشطة الدعوية يصبو إليها الناس من كل حدب وصوب، يعتكفون فيها لتحصيل العلم تفسيرا وحديثًا وفقها في أروقة هذه المدينة العلمية صاحبة الرسالة الإسلامية في القارة الأفريقية.

ولا ريب أن هنالك ثمة أسباب جعلت مدينة القيروان تحتل الصدارة العلمية في القارة الأفريقية، وهذه الأسباب تكمن في الآتي:

السبب الأول:

بإنشاء مدينة القيروان أصبحت إفريقية ولاية إسلامية جديدة، وجزءا لا يتجزأ من العالم الإسلامي، وبالتالي سيعيش المسلمون فيها حياتهم العادية، على رأسها التعليم وبث الثقافة الإسلامية، فإن القيروان مدينة رسالة، وعى أهلها تلقي مسئولية نشر الإسلام في المغرب، فكما كانت منطلق الجيوش الفاتحة، كانت كذلك منطلق الدعاة إلى الأنحاء لنشر الإسلام، وقد شعر الصحابة بهذه المكانة للقيروان منذ تأسيسها، فقد قالوا لعقبة عندما أراد تحديد قبلة الجامع: إن أهل المغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا الجامع فأجهد نفسه في تقويمه.

السبب الثاني:

لقد تم بناء الجامع وهو المدرسة الأولى في الإسلام، ولا شك أن الصحابة الذين كانوا في جيش عقبة قد جلسوا للتدريس فيه على النمط الموجود في مدن المشرق آنذاك، فقد كان مع عقبة أثناء بناء القيروان ثمانية عشر صحابيًا وقد مكثوا بها خمس سنوات كاملة، كان عملهم

---

(١) المرجع السابق، (١/ ٤٨).

فيها -ولا شك- نشر اللغة العربية وتعليم القرآن والسنة في جامع القيروان، وذلك أثناء بناء مدينة القيروان، حيث لم تكن هناك غزوات كبيرة تتطلب غيابا طويلا عن القيروان، أما في غزوة عقبة الثانية فقد كان معه خمسة وعشرون صحابيًا وسائر جيشه من التابعين، وقد انتشرت رواية الحديث النبوي الشريف في هذه الفترة، مما دعا عقبة أن يوصي أولاده ومن ورائهم جميع المسلمين بتحري حديث الثقات وعدم كتابة ما يشغلهم عن القرآن.

السبب الثالث:

لقد استقطبت القيروان أعدادا هائلة من البربر المسلمين الذين جاءوا لتعلم الدين الجديد، قال ابن خلدون عند حديثه عن عقبة: «فدخل إفريقية وانضاف إليه مسلمة البربر، فكبر جمعه ودخل أكثر البربر في الإسلام، ورسخ الدين»، ولا شك أن الفاتحين قد خصصوا لهم من يقوم بهذه المهمة.

ومن القيروان انتشر الإسلام في سائر بلاد المغرب، فقد بنى عقبة بالمغربين الأقصى والأوسط عدة مساجد لنشر الإسلام بين البربر، كما ترك أصحابه في بعض مدن المغرب الأوسط لتعليم البربر الإسلام، ومن قبله تألف أبو المهاجر كسيلة وقومه وأحسن إلى البربر، فدخلوا في دين الله أفواجا، ودعم حسان بن النعمان جهود عقبة في نشر الإسلام بين البربر، إذ خصص ثلاثة عشر فقيها من التابعين لتعليم البربر العربية والفقه ومبادئ الإسلام، وواصل موسى بن نصير هذه المهمة عندما: «أمر العرب أن يعلموا البربر القرآن وأن يفقهوهم في الدين» [1]، وترك في المغرب الأقصى سبعة وعشرين فقيها لتعليم أهله.

السبب الرابع:

كان كثير من أفراد الجيش قد صحبوا معهم زوجاتهم، ومنهم من اتخذ بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، قال أبو العرب: «روى بعض المحدثين أن عبد الله بن عمرو بن العاص لما غزا مع معاوية بن حديج كانت معه أم ولد له، فولدت له صبية وماتت، فدفنها في مقبرة قرش بباب سلم، فاتخذتها قريش مقبرة يدفنون فيها لمكان تلك الصبية» [2].

---

(١) البيان المغرب (١/ ٤٢) نقلا عن مدرسة الحديث في القيروان.

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٢).

ومن هنا كان لا بد من الاهتمام بتعليم النشء المسلم مبادئ الإسلام واللغة العربية، لذلك فقد نشأت الكتاتيب بالقيروان في وقت مبكر جدًا، فتقد روى عن غياث بن شيب أنه قال: «كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله ﷺ يمر بنا ونحن غلمة بالقيروان فيسلم علينا ونحن في الكتّاب وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه»[1]، وكان سفيان بن وهب قد دخل القيروان مرتين أولاهما سنة ٦٠ هـ، أي بعد الانتهاء من تأسيس القيروان بخمس سنوات، والثانية سنة ٧٨ هـ.

السبب الخامس:

إن الموقع الجغرافي لمدينة القيروان كان له دور كبير في إثراء الحياة العلمية وإنعاشها، فقد كانت في موقع متوسط بين الشرق والغرب يمر بها العلماء والطلبة من أهل المغرب والأندلس في ذهابهم إلى المشرق، فيسمعون علماءها، وكثير منهم يصبح أهلا للعطاء عند عودته، فيسمع منه أهلها كما فعل بقي بن مخلد المسند القرطبي (٢٠١- ٢٧٦ هـ) والمحدث دارس بن إسماعيل القاسي (٣٥٧ هـ) وغيرهما، كما كان يدخلها من كان يقصد المغرب أو الأندلس من أهل المشرق.

السبب السادس:

لقد كانت التجارة في القيروان رابحة والسلع فيها نافقة، ولذلك أمها كبار التجار من المشرق والمغرب، وكثير منهم من المحدثين والفقهاء، فكان ذلك عاملا مهما في ازدهار الحياة العلمية بالقيروان، قرأ عبد الرحمن المقري الحديث وقدم إفريقية سنة (١٥٤٦ هـ)، وكيلا لأحد التجار وسمع منه أهل القيروان، كما قدمها عبد العزيز بن يحيى المدني (٢٢٦ هـ)، وأتى معه بمسك يبيعه، وقد سمع منه محمد بن سحنون وبشر كثير من القيروان، بل من هؤلاء من تاجر بالكتب، فقد جلب أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي ولد (سنة ٢٨٨ هـ) إلى القيروان عدة أحمال من الكتب في مطلع القرن الرابع، فباع كثيرًا منها، وحمل ما تبقى منها فباعه في بلاد الأندلس.

السبب السابع:

ومما أسهم في إثراء الحياة العلمية كون القيروان آنذاك هي العاصمة السياسية، ذلك

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (٢/ ٢٥٨).

أنه كلما جاء أمير جديد اصطحب معه مجموعة من العلماء والأدباء، كما فعل يزيد بن حاتم (١٥٥- ١٧٠ هـ) ومنهم من كان يرسل في طلب العلماء والكتب النادرة من المشرق كما فعل إبراهيم بن أحمد بن الأغلب (٢٦١- ٢٨٩ هـ).

السبب الثامن:

وكان بُعد القيروان عن مركز الخلافة سببًا آخر لإثراء الفكر، إذ إنها كانت ملاذا آمنا لأولئك الذين لاحقتهم جيوش الخلافة بالمشرق وضيقت عليهم، فقد شهد آخر القرن الأول ومطلع القرن الثاني وفودا من الدعاة إلى المذهب الخارجي، كما كان بها عدد عن المعتزلة، وكان كل من هؤلاء يبث فكره في مسجد عقبة بن نافع بالقيروان حتى منعهم الإمام سحنون رحمه الله.

السبب التاسع:

كما أن القيروان اكتسبت نوعًا من الاحترام والتعظيم باعتبارها البلد الذي أسسه صحابة رسول الله ﷺ، وظهر به على أيديهم كثير من الكرامات، واستقر بها بعضهم مدة من الزمن، وهي آخر ما دخله الصحابة من بلاد المغرب، حتى وصفها أبو إسحاق الجياني بقوله: «القيروان رأس وما سواها جسد، وما قام برد الشبه والبدع إلا أهلها، ولا قاتل وقتل على إحياء السنة إلا أئمتها» [1].

وقد لهج المؤلفون القدامى بفضل القيروان على سائر بلاد المغرب في المجال العلمي، ومن ذلك ما وصفها به مقديش بأنها: «منبع الولاية والعلوم، فهي لأهل المغرب أصل كل خير، والبلاد كلها عيال عليها، فما من غصن من البلاد المغربية إلا منها علا، ولا فرع من جميع نواحيها إلا عليها ابتنى، كيف لا ومنها خرجت علوم المذاهب، وإلى أئمتها كل علم ينسب.. ولا ينكر هذا لا خاص ولا عام، ولا يزاحمها في هذا الفضل أحد على طول الأمد والأيام» [2].

«وهكذا أصبحت القيروان دار العلم بإفريقية، برز فيها كبار المحدثين، والفقهاء والقراء، رحل إليها أهل المغرب والأندلس لطلب العلم، وقد نافح أهلها عن مذاهب السلف فصارت دار السنة والجماعة بالمغرب» [3].

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٥).

(٢) حسن البيان، للشيخ محمد النيفر، (ص ١٨٩) نقلا عن مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٥).

(٣) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٥٥).

الفصل الثاني

الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان

بدأت أجيال المحدثين في القيروان بالصحابة رضي الله عنهم، فقد دخلوا إفريقية فاتحين ومعلمين، أسسوا مدينة القيروان -كما سبق- فكسبت بذلك شرفا على مدى الأزمان، وهم أول من نشر فيها علم الكتاب والسنة قولا وعملا، ومن هنا سأبدأ الحديث عمن نزل القيروان من الصحابة رضي الله عنهم وأثرهم في نشر السنة بها وبإفريقية عمومًا.

المبحث الأول

عددهم وتحقيق القول في ذلك [1]

إن مما يلاحظ الناظر في كتب تاريخ المغرب وتراجم رجاله كثرة من دخل إفريقية من الصحابة، قال ابن عذاري: «دخل إفريقية من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين الأولين ناس كثير» [2]، وقد استمر قدومهم إليها من (سنة ٢٧ هـ) إلى (سنة ٧٨ هـ)، وكان يدخلها في كل غزوة جمع غفير منهم، ويتضاءل عدده مع مرور الزمن، فقد كان عدة جيش عبد الله بن سعد سنة ٢٧ هـ عشرين ألفًا أكثرهم أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، أما عقبة بن نافع فقد صحبه في غزوته الأولى سنة ٥٠ هـ على الراجح - كما أسلفت- ثمانية عشر صحابيًا، وفي غزوته (٦٢ هـ) خمسة وعشرون صحابيًا، كما دخلها خالد بن ثابت الفهري (سنة ٥٤ هـ) أميرا ودخلها سفيان بن وهب الخولاني (سنة ٦٠ هـ)، و(سنة ٧٨ هـ) وهو آخر من دخلها من الصحابة، وعلى هذا يكون عدد من وقع التصريح بأسمائهم ضئيلا جدًا بالنسبة للعدد الحقيقي، فقد صرح أبو العرب باسم سبعة عشر منهم.

وذكر المالكي تسعة وعشرين صحابيًا، وقد عد منهم عقبة بن نافع، وهو لا صحبة

---

(١) اعتمدت في هذا الفصل على كتاب مدرسة الحديث في القيروان ، وهو أهمها، وكذلك بعض كتب التراجم.
(٢) البيان المغرب (١/ ٨).

له، وذكر الدباغ ثلاثين صحابيًا، وقد ذكر فيهم ابن عامر وهو لم يدخلها، وذكر صاحب الشجرة واحدًا وأربعين، وقد تعقبت [1] عشرة منهم، وتبين لي أن ثمانية منهم من كبار التابعين، لم تثبت لهم صحبة، وواحد لم يدخلها وواحد كرره، فتمحص له منهم واحد وثلاثون صحابيًا.

وبعد النظر في مختلف المصادر والمراجع ولم شتات هذه المسألة تحصل لدي عدد خمسة وأربعين صحابيًا ممن له رواية، أي بزيادة أربعة عشر رجلاً على أكبر عدد سبقت إليه، فتعداد الصحابة الذين نزلوا القيروان وإفريقية، وهو ما تمحص لصاحب الشجرة وقد تقدم أنه واحد وثلاثون.

وهذا عدا المخضرمين -وهم ثلاثة- ومن ولدوا على عهد الرسول ﷺ وتوفي وهم دون سن التمييز، وقد بلغ عددهم ثمانية عشر رجلاً فيما وقفت عليه بعد البحث، وهؤلاء عدادهم عند المحدثين في كبار التابعين من حيث الرواية [2].



(١) المتعقب هو الأستاذ الحسين بن محمد شواط، صاحب كتاب مدرسة الحديث في القيروان.
(٢) انظر: مدرسة الحديث (٢/ ٤٦٥).

المبحث الثاني
أثر الصحابة الرواة في نشر السنة بالقيروان وإفريقية

لقد ضنت علينا المصادر بالمعلومات المنشودة المتعلقة بالنشاط العلمي للصحابة في القيروان، وأغفلتها إغفالا تامًا، وقد قمت [1] بتتبع تراجم هؤلاء الصحابة في كتب أهل المشرق والمغرب، وكتب التاريخ العامة والخاصة، لعلي أظفر بما ينير الطريق في هذه المسألة، ولاحظت أن اهتمام المشارقة بإظهار الجانب العلمي للأفارقة والقيروانيين - وخاصة في مجال الحديث- قليل جدًا، حتى إنهم نادرًا ما يشيرون في ترجمة الصحابي إلى دخوله إفريقية، فضلا عن أن يتحدثوا عن نشاطه العلمي فيها، أما أهل القيروان فإن أغلب ما صنفوه في الحديث وفي تاريخ بلادهم وتراجم رجالها قد فقد، وأهمه مسند المحدث محمد بن سحنون (ت ٢٥٦ هـ)، وقد وصف بأنه كبير، ولعله إن وجد يسد هذه الثغرة، والذي يمكن قوله في هذه المسألة بناء على ما توافر من المادة العلمية هو:

١- إن الصحابة رضي الله عنهم عمومًا منهل علمي طبيعي لنشر سنة النبي ﷺ، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه ما استطاعوا، وقد هجروا أوطانهم وتفرقوا في الأمصار بعد وفاة الرسول ﷺ للقيام بهذه المهمة السامية، لذلك فإن قلة المادة الواردة في هذا الشأن بخصوص القيروان لا تعني عدم قيامهم بنشر السنة فيها، إنما تفسر بقلة التدوين وضياع أكثر ما دُوِّن.

٢- إن الظروف العامة لإفريقية والقيروان في فترة الفتح لم تساعد على طول استقرار الصحابة فيها، وهذا يعني عدم وجود واسطة مستقرة من الصحابة لرواية السنة، فكانوا يقدمون للغزو، وخلال ذلك ينشرون علوم الكتاب والسنة، ثم يعودون للمشرق، فلما تم الفتح النهائي واستقرت الأوضاع كان أغلب الصحابة قد توفوا، والباقون ضعفت قواهم -لكبر السن- عن القدوم إليها، لهذا كان أثرهم فيها أقل مما هو في بلاد المشرق.

٣- إن أطول فترة مكثها الصحابة في شكل جماعي بالقيروان هي الفترة التي أسسوا فيها هذه المدينة، ودامت مدة خمس سنوات (٥٠ - ٥٥ هـ) على الراجح وكان

(١) القائم بهذا الأمر هو صاحب كتاب مدرسة الحديث.

عددهم ثمانية عشر صحابيًا في غزوة عقبة الأولى، ومن الطبيعي أنهم في هذه المدة الطويلة قد قاموا برواية علوم الكتاب والسنة، ونشرها بَين من أسلم من البربر، ومن استقر في القيروان من غرب الفتح، ولا سيما ما يحتاج إليه في العبادات والمعاملات، خاصة وقد تم بناء المسجد الجامع، وبنى الناس مساجدهم ودورهم من حوله، ولم تكن هناك حروب في هذه الفترة.

٤- لقد تكرر دخول كثير من الصحابة الرواة إلى إفريقية ثم القيروان بعد تأسيسها، فقد دخلها عبد الله بن سعد مرتين (٢٧ ، ٣٣ هـ) ودخلها معاوية بن حديج ثلاث مرات (٣٤، ٤١، ٤٥ هـ) وعبد الله بن عمر مرتين (٢٧، ٤٥ هـ) وعبد الله ابن الزبير مرتين (٦٠، ٧٣ هـ) وغيرهم.

٥- ولهذا التردد على إفريقية أثر كبير في نشر الصحابة للسنة، وذلك لأن هؤلاء قد عرفوا البلاد وطباع أهلها، فهم أقدر على معرفة مداخلها وأصلح الطرق لنشر العلم بها، ولا شك أنه قد أ صبح لهم بها أصحاب وتلاميذ.

٦- إن كثيرًا من الصحابة الفاتحين قد اتخذوا بإفريقية السراري وأمهات الأولاد، كما ذكرت المصادر، فقد ولد لعبد الله بن عمر طفلة بموضع القيروان، ولجبلة بن عمرو عقب بإفريقية، كما كان لقيس بن يسار أولاد بإفريقية منهم: أبو محرز القاضي وغيرهم، ووجود عقبهم بها دليل على استمرار أمهات الأولاد فيها بعد عودة الصحابة، ولا شك أنهن سينشرن بإفريقية ما تعلمنه من الصحابة من السنة القولية والعملية.

٧- إن معظم من دخل إفريقية من الصحابة له رواية عن النبي ﷺ، بل إن منهم جماعة من المكثرين، مثل عبد الله بن عمرو له ٢٦٣ حديثًا، وابن عباس له ١٦٦ حديثًا، وابن مسعود له ٨٤٨ حديثًا، وعبد الله بن عمر له ٧٠٠ حديث، وغيرهم، ولا يمكن لهؤلاء أن يتوقفوا عن نشر العلم الغزير، فإن ذلك أصبح سجية من سجاياهم وطبعًا من طباعهم لا تكتمل حياتهم بدونه.

٨- لقد ثبتت الرواية في إفريقية عن عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ وهم:

جبلة بن عمرو الأنصاري: وحديثه عندهم عن طريق سليمان بن يسار الذي غزا معه

إفريقية سنة ٤٥ هـ واستقر فيها عند ذلك مدة وأخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره.

رويفع بن ثابت الأنصاري: حدث رويفع بإفريقية وسمع منه حنش بن عبد الله الصنعاني، الذي كان معه في فتح جزيرة جربة، وقد استقر حنش بعد ذلك في القيروان وبقي فيها إلى أن توفي سنة ١٠٠ هـ.

زياد بن الحارث الصدائي: انفرد أهل إفريقية برواية حديث الصدائي الطويل، فيخبر بإسلامه وما سمعه من النبي ﷺ، وقد ر واه عبد الرحمن بن زياد الأفريقي عن زياد بن نعيم عن الصدائي.

سفيان بن وهب الخولاني: سيأتي الحديث في ترجمته وعن طول مكثه في القيروان، وأثر ذلك في نشره للسنة، وتلاميذه القيروانيين.

عبد الله بن سعد بن أبي السرح: ذكر ابن عبد الحكم بسنده إلى عبد الله بن ربيعة، قال: صلى عبد الله بن سعد للناس بإفريقية المغرب، فلما صلى ركعتين سمعوا جلبة في المسجد، فأرعبهم ذلك وظنوا أنه العدو، فقطع الصلاة، فلما لم ير شيئًا خطب الناس، وقال: إن هذه الصلاة اختصرت، وأمر مؤذن الصلاة، ثم أعادها [1].

عبد الله بن عمر بن الخطاب: حدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية.

فضالة بن عبيد الأنصاري: حدث في إفريقية بحديثين، رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة سنة ٤٧ هـ وسمعهما منه أهل القيروان.

أبو زمعة البلوي: وبه سميت البلوية، إحدى مقابر القيروان، فيما بعد، وروى عنه أهل إفريقية أنه حين حضرته الوفاة بها، أمرهم أن يسووا قبره بالأرض.

أبو اليقظان: دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ ومنها غزا صقلية وحدث فيها بهذا الحديث: عن ابن عشانة المعافري قال: سمعت أبا اليقظان صاحب رسول الله ﷺ بصقلية يقول: أبشروا، والله لأنتم أشد حبا لرسول الله ﷺ -ولم تروه- من عامة من رآه [2].

---

(١) فتوح مصر، (ص ٢٦٢) والحديث ضعيف في سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف في حفظه.
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٢٧٩).

المبحث الثالث

كبار الصحابة أو الصحابة الرواة

(١) الحسن بن علي بن أبي طالب أبو محمد رضي الله عنهما:

دخل إفريقية سنة ٢٧ هـ مع عبد الله بن سعد، وقد صحب النبي ﷺ وحفظ عنه ثلاثة عشر حديثًا، روى له البخاري في صحيحه، وأصحاب السنن الأربعة وأحمد في مسنده.. اختلفوا في تاريخ مولده ووفاته اختلافًا كثيرًا، والأكثر على أنه ولد سنة ٣ هـ وتوفي في حدود سنة ٥٠ هـ [١].

والحسن بن على أمه فاطمة الزهراء بنت نبينا ﷺ، وقد وردت أحاديث كثيرة في بيان مناقبه رضي الله عنه، ومن هذه المناقب ما رواه البخاري بإسناده إلى أبي بكرة رضي الله عنه قال: سمعنا النبي ﷺ على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة، وإليه مرة ويقول: «ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين من المسلمين» [٢]، وهذا الحديث فيه منقبة للحسن رضي الله عنه فقد أخبر النبي ﷺ بأنه سيد، ووصفه ﷺ للفئتين بالعظيمتين كما في رواية للبخاري [٣]، لأن المسلمين كانوا يومئذ فريقين فرقة مع الحسن رضي الله عنه وفرقة مع معاوية رضي الله عنه.. وهذه معجزة عظيمة من النبي ﷺ إذ أخبر بهذا فوقع مثل ما أخبر. أصل القضية أن علي بن أبي طالب لما ضربه عبد الرحمن بن ملجم المرادي يوم الجمعة وليلة السبت وتوفي ليلة الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان، سنة أربعين من الهجرة، وبويع لابنه الحسن بالخلافة في شهر رمضان من هذه السنة، وأقام الحسن أيامًا يفكر في أمره، ثم رأى اختلاف الناس فرقة من جهته وفرقة من جهة معاوية ولا يستقيم الأمر، ورأى النظر في إصلاح المسلمين وحقن دمائهم أولى من النظر في حقه، فسلم الخلافة لمعاوية في الخامس والعشرين من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين، وقيل: من ربيع الآخر، وقيل: في غرة جمادي الأولى وكانت خلافته ستة أشهر إلا أيامًا وسمى هذا العام عام الجماعة، وهذا الذي أخبر به النبي ﷺ: «لعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين» [٤].

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٨٤).

(٢) صحيح البخاري (٢/ ٣٠٦).

(٣) صحيح البخاري (٢/ ٣٠٦).

(٤) صحيح البخاري (٢/ ٣٠٦).

فالحديث فيه علم من أعلام النبوة ومنقبة للحسن بن علي، فإنه ترك الملك لا لقلة ولا لذلة ولا لعلة، بل لرغبته فيما عند الله لما رآه من حقن دماء المسلمين، فراعى أمر الدين ومصلحة الأمة [١].

وفاته: كانت وفاته سنة خمسين من الهجرة بالمدينة المنورة [٢].

(٢) الحسين بن علي بن أبي طالب أبو عبد الله رضي الله عنهما:

هو أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي السبط الشهيد بكربلاء، ابن بنت رسول الله ﷺ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وريحانته في الدنيا، ولد بعد أخيه الحسن، وكان مولده سنة أربع للهجرة مر بلبيبا في غزوة العبادلة، له صحبة ورواية، عدد أحاديثه ثمانية، أخرج له أصحاب الكتب الستة، والإمام أحمد وغيرهم، وقد وردت أحاديث صحيحة في بيان مناقبه ومناقب أخيه الحسن، روى أبو عبد الله الحاكم بإسناده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الحسن والحسين سيدا شباب الجنة، وأبوهما خير منهما» [٣] ومن إكرام الله له ولأخيه الحسن أنهما ماتا شهيدين تكميلا لكرامتهما ورفعا لدرجتهما، أحدهما مات مسموما، والآخر مقتولا [٤].

مقتل الحسين: لما مات معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما واستخلف من بعده ابنه يزيد قام أهل الكوفة بمكاتبة الحسين بن علي رضي الله عنهما، وذكروا له أنهم في طاعته، فخرج إليهم الحسين، فسبقه عبيد الله بن زياد إلى الكوفة، فخذل غالب الناس عنه، فتأخروا رغبة ورهبة، وقتل ابن عمه مسلم بن عقيل، وكان الحسين قد قدمه قبله ليبايع الناس، فجهز إليه عسكرا فقاتلوه رضي الله عنه إلى أن قتل وجماعة من أهل بيته [٥].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ١٤٤- ١٤٥)، معالم السنن (٤/ ٣١١).
(٢) فتح الباري (١٣/ ٦٦).
(٣) انظر: صفة الصفوة (١/ ٧٦٢)، فتح الباري (٧/ ٩٥).
(٤) البداية والنهاية: (٨/ ٤٦).
(٥) انظر: الكامل لابن الأثير (٤/ ٤٦- ٩٣).

قلت: وأهل السنة يعتقدون أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوما، وأن قتله من أعظم المصائب التي وقعت في الإسلام، وهم يلتزمون بما شرعه الله عند المصائب من الاسترجاع، وإن تقادم عهد المصيبة، وما يفعله الشيعة في يوم عاشوراء ليس من الإسلام في شيء، بل هو من أمور الجاهلية التي لم يفعلها رسول الله ﷺ ولا أحد من السابقين الأولين ومن التابعين لهم بإحسان، ولا من عادة أهل البيت، ولا غيرهم، وقد شهد مقتل علي أهل بيته، وشهد مقتل الحسين من شهده من أهل بيته، وقد مرت على ذلك سنون، وهم متمسكون بسنة رسول الله في المصائب من صبر واسترجاع وحزن بدون جزع ولا تسخط على إرادة المولى.

مقتله: مات رضي الله عنه قتلا في يوم عاشوراء من شهر المحرم إحدى وستين هجرية [(١)].

(٣) عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (حبر الأمة وترجمان القرآن):

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب أبو العباس، غزا إفريقية مع ابن أبي السرح سنة (٢٧ هـ)، ومر ببرقة، وطرابلس، وهو الذي تولى قسمة الغنائم في جيش العبادلة، وغيرهم، ومن أكثر الصحابة فتوى ورواية، له (١٦٦٠ حديثًا)، أخرج له الجماعة وأحمد وغيرهم، ومن تلاميذه الذين سكنوا القيروان، حنش بن عبد الله الصنعاني [(٢)].

وابن عباس هو ابن عم رسول الله ﷺ وحبر الأمة، ومفسر كتاب الله وترجمانه، وكان يقال له: الحبر والبحر، وروى عن رسول الله ﷺ شيئًا كثيرًا، وعن جماعة من الصحابة، وأخذ عنه خلق من الصحابة، وأمم من التابعين وله مفردات ليست لغيره من الصحابة لاتساع علمه، وكثرة فقهه، وكمال عقله، وسعة فضله، ونبل أصله رضي الله عنه وأرضاه، وأمه أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية أخت ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين، وهو ولد والد العباسيين، هاجر مع أبيه قبيل الفتح فاتفق لقياهما بالنبي ﷺ بالجحفة وهو ذاهب لفتح مكة، فشهد الفتح وحنين والطائف عام ثمانية، قيل: كان فتى

---

(١) انظر: البداية والنهاية (٨/ ١٦٢).

(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٩٤).

سنة تسع وصحب النبي ﷺ ولزمه، وأخذ عنه وحفظ، وضبط الأقوال، والأفعال والأحوال، وأخذ عن الصحابة رضي الله عنهم علمًا عظيمًا مع الفهم الثاقب والبلاغة والفصاحة، والجمال والأصالة والبيان (١).

وقد وردت في بيان فضله أحاديث كثيرة صحيحة عن رسول الله ﷺ، كان في بيت ميمونة فوضعت له وضوءا من الليل قال: فقالت ميمونة زوجة النبي ﷺ وخالة ابن عباس رضي الله عنهم: يا رسول الله وضع لك هذا عبد الله بن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل» (٢).

وفاته: توفي بالطائف سنة ثمان وستين رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثواه.

(٤) عبد الله بن جعفر بن ابي طالب، ابو جعفر رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم أبو جعفر القرشي الهاشمي، وأمه أسماء بنت عميس الخثعمية، أخت ميمونة بنت الحارث لأمها، ولد بأرض الحبشة لما هاجر أبواه إليهما، وهو أول من ولد بها من المسلمين وحفظ عن النبي ﷺ وروى عنه رضي الله عنه وأرضاه، مر بليبيا في جيوش العبادلة، له خمسة وعشرون حديثًا، أخرج له أحمد وغيره، ووردت له بعض المناقب دلت على عظيم شأنه وعلو مكانه.

ومن مناقبه رضي الله عنه أنه كان من الذين شبهوا بالنبي ﷺ خُلقا وخَلقا، ودعا له ولإخوانه ودعا له خاصة أن يبارك في تجارته، فقد روى الإمام أحمد بإسناده إلى عبد الله بن جعفر أن النبي ﷺ أمهل آل جعفر ثلاثًا أن يأتيهم ثم أتاهم فقال: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم ادعوا إلي ابني أخي»، قال: فجيء بنا كأنا أفرخ، فقال: «ادعوا إلي الحلاق» فحلق رءوسنا، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، أما عبد الله فشبيه خَلقي وخُلقي»، ثم أخذ بيدي فأشالها فقال: «اللهم اخلف جعفرا في أهله وبارك لعبد الله في صفقة يمينه» «قالها ثلاث مرات».

وكان ابن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إذا سلم على عبد الله بن جعفر قال:

---

(١) انظر: عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام لناصر بن علي (١/ ٣٣٧).
(٢) انظر: المسند في الفتح الرباني (٢٢/ ٢٩٣).

«السلام عليك يا ابن ذي الجناحين» [١].

وكان ممن اشتهروا بالجود والبذل والعطاء، ذكر الذهبي أن أعرابيا قصد مروان، فقال: ما عندنا شيء، فعليك بعبد الله بن جعفر، فأتى الأعرابي عبد الله، فأنشأ يقول:

أبو جعفر من أهل بيت النبوة ... صلاتهم للمسلمين طهور

أبا جعفر ضن الأمير بماله ... وأنت على ما في يديك أمير

أبا جعفر يا ابن الشهيد الذي له ... جناحان في أعلى الجنان يطير

أبا جعفر ما مثلك اليوم أرتجي ... فلا تتركني بالفلاة أدور

أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا ... وليس لي رحيل فاعلمن بعير

فقال عبد الله: يا أعرابي سار الثقل، فعليك بالراحلة بما عليها، وإياك أن تخدع عن السيف، فإني أخذته بألف دينار [٢].

وفاته: ذكر الذهبي أقوالا في وفاته منها أنه: مات سنة ثمانين، وقيل: سنة أربع أو خمس وثمانين، وقيل: تسعين [٣].

(٥) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي أبو عبد الرحمن مر بأرض الأمل ليبيا في غزوة العبادلة، وحدث ابن عمر بإفريقية، وذلك في غزوته الثانية سنة ٤٥ هـ روى عنه ميسرة الزرودي، وهو من أهل إفريقية، كما سأله يزيد بن قاسط وهو من أهلها أيضًا وتجمع عنده بعض أهلها، فلما أرادوا أن يفارقوه طلبوا نصحا وسألوه عن بعض الأحكام، ومن هذه الأحكام ما ذكره المالكي: أن أبا سعيد المقبري استسلف بإفريقية دينارا جرجيريا من رجل على أن يعطيه منقوشا بمصر، فسأل ابن عمر عن ذلك فقال: «لولا الشرط الذي فيه لم يكن به بأس»، وعزاه المالكي إلى موطأ ابن وهب، ومدونة سحنون، وهكذا يكون أهل إفريقية قد تعلموا من هذا الصحابي مواعظ

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٥٩).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٥٩).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٥٩).

وأحكاما تفيدهم في دينهم، كما أن في سؤال أهل إفريقية له، واجتماعهم إليه، وطلبهم أن يزودهم من علمه دليلاً على أنهم كانوا حريصين على الاستفادة من وجود الصحابة بينهم، وأنهم على وعي بدور الصحابة في الرواية وتعليم أمور الدين [(١)].

علمه: عرف ابن عمر رضي الله عنهما بالعلم والفقه، وطول ملازمته النبي ﷺ وحفظ القرآن وفهم آياته وأحكامه، وعاش طويلاً فاحتاج الناس إلى علمه وفقهه، ويتحلى إلى جانب علمه النافع الغزير بالتواضع والورع والدقة، فلا يفتي، ولا يجيب عما لم يقع، واشتهر بالرواية عن رسول الله ﷺ

قال النووي: رحمه الله: «واعلم أن ابن عمر رضي الله عنهما أحد الستة الذين هم أكثر الصحابة رواية عن النبي ﷺ وهم: أبو هريرة، ثم ابن عمر، ثم أنس، وابن عباس، وجابر، وعائشة رضي الله عنهم» [(٢)]، قال رسول الله ﷺ في حقه: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل» [(٣)]، فما ترك ابن عمر قيام الليل ولا حتى في الليلة التي استشهد فيها والده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عرضت عليه الخلافة مرات عديدة، منعه الخوف من الله أن يتقلدها، وقال الذهبي: هو أحد الأعلام في العلم والعمل، وهو من أهل بيعة الرضوان، وممن كان يصلح للخلافة، فعين لذلك يوم الحكمين مع وجود مثل الإمام علي، وفاتح العراق سعد ونحوهما رضي الله عنهما، ومناقبه جمة، أثنى عليه النبي ﷺ ووصفه بالصلاح [(٤)].

وقال سعيد بن المسيب فيه يوم وفاته: وما في الأرض أحد أحب إلى أن ألقى الله عز وجل بمثل عمله منه. وكانت سنة وفاته (٧٤ هـ) [(٥)].

(٦) عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شمخ بن فار بن مخزوم الهذلي، الإمام الحبر، فقيه الأمة، أبو عبد الرحمن الهذلي المكي المهاجري البدري، حليف بني زهرة كان

---

(١) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٧٦).

(٢) تهذيب الأسماء للنووي (١/ ٢٨٠).

(٣) الطبقات لابن سعد (٤/ ١٤٧).

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٣).

(٥) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/ ٢٠٣).

من السابقين الأولين ومن النجباء العالمين، شهد بدرًا، وهاجر الهجرتين، وكان يوم اليرموك على النفل، ومناقبه غزيرة، روى علمًا كثيرًا [١].

دخل ليبيا في غزوة العبادلة مع جيش عبد الله بن أبي السرح، روى عن النبي ﷺ (٨٤٨ حديثًا) أخرج أحاديثه أصحاب الكتب الستة والإمام أحمد في مسنده، والطبراني في معجمه، ولقد حفظ سورا عديدة من القرآن من في رسول الله ﷺ وبرع في الحفظ وإتقان التلاوة، وبقي ابن مسعود ملازمًا للنبي ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال: «والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم، بكتاب الله وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحدًا يقول غير ذلك» [٢].

وطلب النبي ﷺ من ابن مسعود رضي الله عنه ذات يوم أن يقرأ عليه القرآن، فقال ابن مسعود: «أقرأ عليك وعليك أنزل؟» قال: «إني أشتهي أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَـٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] قال لي: «كف، أو أمسك» فرأيت عينيه تذرفان» [٣].

هذا الصحابي الجليل، والعالم النحرير، والعابد الزاهد والفقيه الفذ، والمجاهد الكبير كان في جيوش الفاتحين للشمال الأفريقي، ومر ببلادنا ليبيا، وكان معلما مربيا للجنود الذين معه وكذلك لإخوانه الذين دخلوا في دين الله أفواجا، كانت أقواله ومواعظه حكمًا، تحيا بها القلوب، وكان يوصى الناس في أخذ العلم، وأن يأخذوه من أكابرهم فقال في ذلك: «لا يزال بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا» [٤]، وتوفي هذا البحر الزاخر من العلوم والمعارف سنة اثنتين وثلاثين هجرية في المدينة المنورة [٥].

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٦١).
(٢) انظر: البخاري مع الفتح رقم (٥٠٠٠).
(٣) انظر: البخاري مع الفتح، رقم (٥٠٥٥).
(٤) أعلام المسلمين عبد الله بن مسعود، لعبد الستار الشيخ، (٣٣٩).
(٥) أسد الغابة (٣/ ٣٩٠).

(٧) عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

هو عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي الإمام الحبر العابد، صاحب رسول الله ﷺ، وابن صاحبه، أبو محمد، وقيل: أبو عبد الرحمن، وقد أسلم قبل أبيه وكان اسمه العاص، فلما أسلم غيره النبي ﷺ بعبد الله، له مناقب وفضل ومقام راسخ في العلم والعمل، حمل عن النبي ﷺ علمًا جما [(١)]، مر ببلادنا في غزوة العبادلة ودخل إفريقية وكان يكتب ما يسمعه من النبي ﷺ، بناء على الإذن النبوي الشريف له، وكان غزير العلم، له (٧٠٠ حديث) أخرج له أصحاب الكتب الستة [(٢)]، وأحمد وغيرهم، من تلاميذه الذين نشروا العلم بالقيروان: عكرمة مولى ابن عباس.

شدة عبادته: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «زوجني أبي امرأة من قريش، فلما دخلت علي، جعلت لا أنحاش لها مما بقي بي من القوة على العبادة، فجاء أبي إلى امرأتي، فقال: كيف وجدت بعلك؟ قالت: خير رجل من رجل لم يفتش لنا كنفا، ولم يقرب لنا فراشا، قال: فأقبل علي، وعنفني بلسانه، ثم قال: أنكحتك امرأة ذات حسب فعضلتها وفعلت، ثم انطلق، فشكاني إلى النبي ﷺ فطلبني، فأتيته، فقال لي: «أتصوم النهار وتقوم الليل؟» قلت: نعم، قال: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأمس النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» [(٣)].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: جمعت القرآن، فقرأته كله في ليلة، فقال رسول الله ﷺ: «اقرأه في شهر»، قلت: يا رسول الله، دعني أستمتع من قوتي وشبابي، قال: «اقرأه في عشرين»، قلت: دعني أستمتع، قال: «اقرأه في سبع ليال»، قلت: دعني يا رسول الله أستمتع، قال: فأبى [(٤)]، وصح أن رسول الله ﷺ نازله إلى ثلاث ليال، ونهاه أن يقرأه في أقل من ثلاث [(٥)].

وفاته: مات عبد الله ليالي الحرة سنة ثلاث وستين، وقيل: توفي في مصر، وقيل: بالطائف، وقيل: بمكة، وقيل: بالشام [(٦)].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٨٠).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٩٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٩٠).
(٤) المرجع السابق (٣/ ٨٣).
(٥) المرجع السابق (٣/ ٨٤).
(٦) المرجع السابق نفسه (٣/ ٩٨٤).

(٨) المقداد بن عمرو رضي الله عنه:

هو المقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة القضاعي الكندي البهراني، ويقال له: المقداد بن الأسود، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري، فتبناه وقيل: بل كان عبدًا له أسود اللون، فتبناه، ويقال: بل أصاب دما في كندة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود، شهد بدرًا والمشاهد، وثبت أنه كان يوم بدر راكبًا على فرسه وهو أحد السابقين للإسلام [1]، وكان أحد السبعة الذين كانوا أول من أظهروا الإسلام، مر ببلادنا الحبيبة في غزوة العبادلة في جيش عبد الله بن أبي السرح، روى (٤٢ حديثًا)، وأخرج له أصحاب الكتاب الستة، والإمام أحمد في مسنده، ومالك في موطئه [2].

دروس من سيرته يوم بدر:

عندما استشار رسول الله ﷺ أصحابه أثناء خروجه لملاقاة المشركين في بدر تكلم المقداد بعد أبي بكر وعمر فقال: يا رسول الله، امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه. فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له، وفي رواية البخاري: «قال: ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك. قال ابن مسعود رضي الله عنه: فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره قوله».

خوفه من الإمارة:

عن المقداد بن عمرو قال: استعملني رسول الله ﷺ على عمل، فلما رجعت قال لي: «كيف وجدت الإمارة؟»، قلت: يا رسول الله ما ظننت إلا أن الناس كلهم خول لي، والله لا أولى على عمل ما دمت حيا.

حرصه على الجهاد:

ذكر الذهبي أن أبا راشد الحبراني وافى المقداد فارس رسول الله بحمص على تابوت

(١) سير أعلام النبلاء (١/ ٣٨٦- ٣٨٩).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٥٠٠).

من توابت الصيارفة، قد أفضل عليها من عظمه، يريد الغزو، فقلت له: قد أعذر الله إليك، فقال: أبت علينا سورة البحوث (التوبة): ﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة: ٤١].

وفاته: توفي رضي الله عنه سنة ثلاث وثلاثين، وصلى عليه عثمان بن عفان وقبره بالبقيع[١].

(٩) ابو ذر الغفاري رضي الله عنه:

هو جندب بن جنادة بن عبيد بن حرام بن غفارة بن مليل بن بكر بن عبد مناف ابن كنانة، أحد السابقين الأولين، من نجباء أصحاب محمد ﷺ، قيل: كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رد إلى بلاد قومه فأقام بها بأمر النبي ﷺ له بذلك، فلما هاجر النبي ﷺ، هاجر أبو ذر رضي الله عنه ولازمه وجاهد معه، وكان يفتي في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان [٢].

مر بليبيا ودخل الشمال الأفريقي في غزوة العبادلة، روى عن النبي ﷺ (٢٨١ حديثًا) أخرج له أصحاب الكتب الستة وغيرهم.

قال في حقه رسول الله ﷺ: «ما أقلت الغبراء، ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر» [٣].

قال عنه الذهبي: «كان رأسا في الزهد، والصدق، والعلم والعمل، قوالا بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، على حدة فيه» [٤].

وتجد في كتب الشيعة اتهاما لعثمان رضي الله عنه بأنه ظلم أبا ذر ونفاه إلى الربذة، وهذا اختلاق منهم، وإفك مبين، وإنما الذي حدث أن أبا ذر رضي الله عنه هو الذي اختار الربذة بنفسه، وأن عثمان دعاه من الشام ليكون معه في المدينة بعد أن اختلف أبو ذر مع معاوية رضي الله عنهما في الشام، وقال عثمان لأبي ذر: «أحببت أن أجعلك بين أصحابك وخفت عليك جهل الناس»، قالت أم ذر: (والله ما سير عثمان أبا ذر -تعني الربذة- ولكن رسول الله ﷺ قال: «إذا بلغ البناء سلعًا، فاخرج منها»).. وكان أبو ذر لا

---

(١) سير اعلام النبلاء (١/ ٣٨٨).
(٢) سير اعلام النبلاء (٢/ ٤٦- ٧٨).
(٣) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٨٥، ٤٨٦).
(٤) سير اعلام النبلاء (٢/ ٤٦- ٧٨).

يستجيز ادخار النقدين الذهب والفضة، وكان يحدث ويقول: لا يبيتن عند أحدكم دينار ولا درهم، ولا تبر ولا فضة، إلا شيء ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم، فقال: هذا دال على فضل إنفاقه وكراهية جمعه، لا يدل على تحريم [(١)].

وفاته: توفى رضي الله عنه في الربذة في (عام ٣٢ هـ)، وحضر دفنه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي مات بعده بقليل.

(١٠) عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهما:

حضر بدرًا مع المشركين، ثم أسلم وهاجر قبيل الفتح، وأما جده أبو قحافة فتأخر إسلامه إلى يوم الفتح، وكان عبد الرحمن أسن أولاد الصديق، وكان من الرماة المذكورين والشجعان، قتل يوم اليمامة سبعة من كبارهم، دخل إفريقية مارا بليبيا في جيش العبادلة، له أحاديث ثمانية أخرج له أصحاب الكتب السنة وأحمد وغيرهم، وهو الذي أمره النبي ﷺ في حجة الوداع أن يعتمر بأخته عائشة من التنعيم، توفي سنة (٥٣ هـ) [(٢)].

(١١) أبو اليسر كعب بن عمرو الأنصاري رضي الله عنه:

هو كعب بن عمرو الأنصاري السلمي المدني البدري العقبي الذي أسر العباس رضي الله عنه يوم بدر، وشهد العقبة وله عشرون سنة، وهو الذي انتزع راية المشركين يوم بدر، ومناقبه كثيرة وهذا الصحابي الذي شهد بدرًا وبايع في العقبة مر ببلادنا ودخل الشمال الأفريقي في جيش الفاتحين، له أحد عشر حديثًا، أخرج له مسلم، والأربعة والبخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد وغيرهم، توفي سنة (٥٥ هـ) بالمدينة [(٣)].

(١٢) فضالة بن عبيد رضي الله عنه:

هو فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس بن صهيب بن أصرم بن جحجبى الفقيه، أبو محمد الأنصاري الأوسي، صاحب رسول الله ﷺ من أهل بيعة الرضوان، ولي الغزو لمعاوية، ثم ولي قضاء دمشق، وكان ينوب عن معاوية في الإمارة إذا غاب، حدث في إفريقية بحديثين رواهما عنه حنش الصنعاني، الذي كان معه في فتح جربة (سنة ٤٧ هـ)

---

(١) سير أعلام النبلاء(٢/ ٦٧).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٧١).

(٣) مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٥٣٧).

وسمعهما أهل القيروان، أخرج له مسلم، والأربعة، وأحمد، وبقي بن مخلد، وابن منده[١].

قاضي دمشق:

كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقضي على دمشق، فلما حضرته الوفاة أتاه معاوية عائدًا، فقال: من ترى للأمر بعدك؟ قال: فضالة بن عبيد، فلما توفى قال معاوية لفضالة: إني قد وليتك القضاء فاستعفى منه، والله ما حبيتك بها، ولكني استترت بك من النار، فاستتر منها ما استطعت.

تأمله في آية ووصيته لابن محيريز:

ذكر الذهبي رحمه الله أن فضالة قال: لأن أعلم أن الله يتقبل مني مثقال حبة أحب إلي من الدنيا، وما فيها، لأنه تعالى يقول: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

وعن ابن محيريز قال: قلت لفضالة: أوصني. فقال: خصال ينفعك الله بهن، إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، فافعل، وإن استطعت أن تسمع ولا تتكلم فافعل، وإن استطعت أن تجلس ولا يجلس إليك، فافعل [٢].

وفاته: قال معاوية رضي الله عنه حين توفي فضالة، وهو يحمل نعشه، لابنه عبد الله بن معاوية: تعال اعقبني، فإنك لن تحمل مثله أبدًا. وكانت سنة وفاته (٥٣ هـ)، وقيل: (٥٩ هـ) [٣].

(١٣) سلمة بن الأكوع رضي الله عنه:

هو سلمة بن عمرو بن الأكوع، واسم الأكوع: سنان بن عبد الله، أبو عامر وأبو مسلم، ويقال: أبو إياس الأسلمي الحجازي المدني، قيل: شهد مؤتة، وهو من أهل بيعة الرضوان، قال مولاه يزيد: سمعته يقول: بايعت رسول الله ﷺ على الموت، وغزوت معه سبع غزوات [٤].

شجاعته: أغار عبد الرحمن بن عيينة على الإبل التي كانت في ضواحي المدينة فقتل

(١) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٤٧٨، ٤٩٦).
(٢) سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٦).
(٣) المصدر السابق نفسه (٣/ ١١٧).
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٢٦).

راعيها، وطرد الإبل هو وأناس معه في خيل، وكان مع سلمة رباح غلام النبي ﷺ فأقعده على فرس ليعلم رسول الله ﷺ، وقام على تل ونادى: يا صباحاه واتبع القوم فجعل يرميهم، وحده ويقول:

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرضع

حتى لحقت به خيل رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو قتادة وتغلبوا على العدو، وقال رسول الله ﷺ في ذلك: «خير فرساننا أبو قتادة وخير رجالتنا سلمة» [١].

ولقد دخل هذا الصحابي الجليل إفريقية مارا ببرقة وطرابلس في جيش العبادلة سنة (٢٧ هـ) روى (٧٧ حديثًا)، أخرج له الجماعة وأحمد والطبري وغيرهم [٢]. وكان رسول الله ﷺ يردفه خلفه في الغزو أحيانًا ومسح رسول الله ﷺ على وجهه مرارا، واستغفر له مرارا، حدث إياس بن سلمة عن أبيه قال: «أردفني رسول الله ﷺ مرارا، ومسح على وجهي مرارا، واستغفر لي مرارا عدد ما في يدي من الأصابع» [٣].

وفاته: استأذن رسول الله ﷺ في البدو، وخرج في آخر حياته إلى الربذة، وقيل وفاته بليال نزل إلى المدينة، وتوفي سنة أربع وسبعين هجرية، وكان من أبناء التسعين، وحديثه من عوالي صحيح البخاري [٤].

(١٤) المسور بن مخرمة رضي الله عنه:

هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن قصى بن كلاب، الإمام الجليل، أبو عبد الرحمن، وأبو عثمان القرشي الزهري، وأمه عاتكة أخت عبد الرحمن بن عوف زهرية أيضًا، له صحبة ورواية، عداده في صغار الصحابة كالنعمان بن بشر، وابن الزبير، وكان ممن يلزم عمر ويحفظ عنه، دخل إفريقية مارا ببرقة وطرابلس مع ابن أبي السراج، وهو الذي حرض عثمان على غزو إفريقية، بلغت أحاديثه اثنين وعشرين حديثًا، أخرج له أصحاب الكتب الستة وأحمد وغيرهم.

كان كثير الصيام، وكان إذا قدم مكة طاف لكل يوم غاب عنها سبعا، وصلى

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٢٧- ٣٣٠).
(٢) مدرسة الحديث في القيروان (١/ ٤٩٢).
(٣) سير أعلام النبلاء (٣/ ٣٣٠).
(٤) المصدر السابق نفسه (٣/ ٣٣١).

ركعتين، وشهد القادسية مع سعد بن أبي وقاص، وكان من خواص ابن الزبير، وكان ابن الزبير لا يقطع أمرًا دون المسور في مكة.

وفاته: قيل: في حصار الحجاج لابن الزبير في مكة (سنة ٧٣ هـ)، ورجح الذهبي أن وفاته (سنة ٦٥ هـ) ودفن في مكة [١].

(١٥) سفيان بن وهب الخولاني:

الصحابي المعمر، أبو أيمن الخولاني المصري، اختلفوا في صحبته والصحيح أن له صحبة ورواية، كما ذكر ابن حجر في تعجيل المنفعة وغيره، غزا المغرب زمن عثمان، ودخل غازيا مرة أخرى (سنة ٦٢ هـ)، وأميرا (سنة ٧٨ هـ)، حدث بالقيروان، ومن تلاميذه في الشمال الأفريقي مسلم بن يسار، وبكر بن سوادة، له ثلاثة أحاديث انفرد بها أهل مصر وإفريقية، أخرج له الطبراني في الكبير والحاكم وأبو يعلى، وأحمد وابن منده وأبو نعيم.

وفاته: قيل (٨٣ هـ) بإفريقية، وقيل: (٩١ هـ).

(١٦) بلال بن الحارث المزني أبو عبد الرحمن:

دخل إفريقية سنة ٢٧ هـ في غزوة العبادلة، وكان يحمل لواء قومه مزينة، وعدتهم أربعمائة، وقيل: ثمانمائة، له صحبة ورواية، أحاديثه ثمانية، روى له الأربعة (أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه) وأحمد، ومالك، توفي سنة ٦٠ هـ.

(١٧) جبلة بن عمرو الأنصاري:

دخل جبلة إفريقية مع معاوية بن حديج، في آخر غزواته سنة ٤٥ هـ وبقي بها مدة، لأن هذه الغزوة قد دامت قرابة أربع سنوات حتى إنه أخذ عنه من أهلها خالد بن أبي عمران وغيره، وكان له أثر في نشر السنة بالشمال الأفريقي.

(١٨) جرهد بن خويلد الأسلمي:

دخل إفريقية مع ابن أبي السرح، له ثمانية أحاديث، أخرج له البخاري في صحيحه، وأبو داود، والترمذي، والإمام أحمد، وبقي بن مخلد، توفي سنة ٦١ هـ.

---

(١) أسد الغابة (٤/ ٣٩٩).

(١٩) الحارث بن حبيب بن خزيمة القرشي العامري:

نزل مصر، ومنها غزا إفريقية واستشهد بها في بعض غزوات معاوية بن حديج، دخل الشمالي الأفريقي في غزوة العبادلة، وقد أمره عثمان رضي الله عنه على الجيش حتى يصلوا إلى عبد الله بن سعد في مصر، له حديث واحد في مسند بقي بن مخلد، وأخرج له الإمام أحمد في مسنده.

(٢٠) حمزة بن عمرو الأسلمي، ابو صالح:

شهد فتح إفريقية، له بها آثار محمودة، له عن النبي ﷺ تسعة أحاديث، أخرج له البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي وغيره. من تلاميذه سليمان بن يسار، وقد دخل القيروان بعد ذلك واستقر بها، توفي هذا الصحابي الجليل سنة ٦١ هـ.

(٢١) خالد بن ثابت الفهمي:

دخل إفريقية مرتين: الأولى مع ابن حديج (سنة ٤٥ هـ)، والثانية أميرا عليها من قبل مسلمة بن مخلد سنة ٥٤ هـ وكان خالد ولي الإمارة على عهد عمر وغيره، ولم أعثر على من نسب له رواية عن النبي ﷺ.

(٢٢) ربيعة بن عباد الدؤلي:

صحب النبي ﷺ وروى عنه، شهد غزوة إفريقية مع عبد الله بن سعد، وله بها آثار، له أحاديث، أخرج له الطبراني في الكبير، وأحمد في المسند، توفي سنة ٩٥ هـ.

(٢٣) أبو رمثة البلوي:

لم يُذكر تاريخ دخول أبي رمثة إلى إفريقية، وأجمعوا على صحبته ووفاته بها، كان له عن النبي ﷺ ثمانية أحاديث، أخرج له أبو داود، والترمذي والنسائي، وأحمد.

(٢٤) زياد بن الحارث الصدائي:

له صحبة ورواية، ويعد في المصريين وأهل المغرب، دخل إفريقية وشهد فتوحاتها، ولم يذكر التاريخ زمن دخوله، وله عن النبي ﷺ أربعة أحاديث.

(٢٥) ابو زمعة البلوي:

اشتهر بكنيته، وقد اختلفوا في اسمه اختلافًا كثيرًا، والأكثر على أنه عبيدة بن أرقم، دخل إفريقية مع ابن حديج سنة ٤٥ هـ وتوفي بها، وسميت مقبرة البلوية في القيروان باسمه، وقد ذكروا أن قلنسوته دفنت معه وفيها من شعر رسول الله ﷺ، له حديثان، أخرج له البغوي في معجمه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وابن عبد الحكم في فتوحه.

(٢٦) سلكان بن مالك:

ذكر فيمن غزا المغرب من الصحابة، ولم يحددوا تاريخ دخوله، ولم يسندوا إليه رواية.

(٢٧) أبو خبيس البلوي:

غزا إفريقية وعداده في المصريين من الصحابة، له حديث واحد.

(٢٨) عبد الله بن انس الجهني:

أبو يحيى المدني حليف الأنصار، شهد فتح إفريقية مع ابن أبي السرح، له ٢٤ حديثًا، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، وأحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وتوفي سنة (٥٤ هـ).

(٢٩) قيس بن يسار بن مسلم الكناني:

نقل المالكي في «رياض النفوس» عن ابن يونس أن قيسا هذا صحابي، وذكر أنه دخل إفريقية مع عقبة بن نافع (سنة ٥٠ أو ٦٢ هـ) وله عقب بإفريقية منهم: أبو محيريز القاضي.

(٣٠) أبو لبابة الأنصاري:

اختلفوا في اسمه كثيرًا، فقيل: بشر، وقيل: رفاعة بن المنذر، وقيل: غير ذلك، له خمسة عشر حديثًا، أخرج له البخاري، ومسلم وأبو داود، وابن ماجه، اختلفوا في تاريخ وفاته، والقبر الذي فوق مقبرة قابس بتونس قبره، وقيل: توفي سنة ٤٠ هـ أما الإمام ابن حبان فقال: إنه توفي في المدينة.

(٣١) مسعود بن الأسود البلوي:

غزا إفريقية، عداده في أهل مصر، وهو الذي استأذن عمر في غزو إفريقية، وحديثه عند أهل القيروان من طريق علي بن رباح الذي سكن القيروان.

(٣٢) المسيب بن حزن القرشي المخزومي أبو سعيد:

شهد فتح إفريقية مع ابن أبي السرح، له سبعة أحاديث، لم يرو عنه غير ابنه سعيد بن المسيب، وهو من سادة التابعين، أخرج له البخاري، ومسلم وأبو داود، والنسائي، وأحمد، وبقي بن مخلد.

(٣٣) المطلب بن ابي وداعة السهمي:

غزا إفريقية مع عبد الله بن أبي السرح في جمع من بني سهم كما ذكر ابن يونس وغيره، له تسعة أحاديث، أخرج له مسلم، والأربعة، ومالك، وأحمد، وغيرهم.

(٣٤) المنذر الأسلمي الأفريقي:

نسب إلى إفريقية لكونه سكنها وتوفي بها، واختص أهلها بحديث، من طريق أبي عبد الرحمن الحبلي، دفن في طرابلس وقبره مشهور [١].

ونكتفي بذكر هذا الكم من الأخيار الذين دخلوا وشاركوا في فتح الشمال الأفريقي، بل منهم من قد ساهم مساهمة مباشرة في بناء مدينة القيروان، وأقاموا صرح الإسلام الشامخ في ربوع البلاد، وفي قلوب العباد، ونشروا علوم القرآن وعلوم سنة النبي ﷺ القولية والفعلية، كما تلقوها عن الرسول ﷺ

وأخيرًا ننقل لك بعض الأبيات من نونية القحطاني أي محمد عبد الله بن محمد القحطاني الأندلسي في مدحه لصحابة رسول الله ﷺ:

قل: إن خير الأنبياء محمد ... وأجل من يمشي على الكثبان

وأجل صحب الرسل صحب محمد ... وكذاك أفضل صحبه العمران

رجلان قد خلقا لنصر محمد ... بدمي ونفسي ذانك الرجلان

فهما اللذان تظاهرا لنبينا ... في نصره وهما له صهران

---

(١) راجع مدرسة الحديث في القيروان (٢/ ٤٩٥- ٥٠١) وتجدر الإشارة إلى أن الشيخ الحسين بن محمد بن شواط في كتابه القيم مدرسة الحديث في القيروان ، قد ذكر خمسة وأربعين صحابياً بأسمائهم إلا أني اكتفيت بذكر هؤلاء ، ومن أراد المزيد فليراجع هذا المصدر القيم.

بنتاهما أسنى نساء نبينا ... وهما له بالوحي صاحبتان

أبواهما أسنى صحابة أحمد ... يا حبذا الأبوان والبنتان

وهما وزيراه اللذان هما هما ... لفضائل الأعمال مستبقان

وهما لأحمد ناظراه وسمعه ... وبقربه في القبر مضطجعان

كانا على الإسلام أشفق أهله ... وهما لدين محمد جبلان

أصفاهما أقواهما أخشاهما ... أتقاهما في السر والإعلان

أسناهما أزكاهما أعلاهما ... أوفاهما في الوزن والرجحان

صديق أحمد صاحب الغار الذي ... هو في المغارة والنبي اثنان

أعني أبا بكر الذي لم يختلف ... من شرعنا في فضله رجلان

هو شيخ أصحاب النبي وخيرهم ... وإمامهم حقًا بلا بطلان

وأبو المطهرة التي تنزيهها ... قد جاءنا في النور والفرقان

أكرم بعائشة الرضا من حرة ... بكر مطهرة الإزار حصان

هي زوج خير الأنبياء وبكره ... وعروسه من جملة النسوان

هي عرسه هي أنسه هي إلفه ... هي حبه صدقا بلا إدهان

أو ليس والدها يصافي بعلها ... وهما بروح الله مؤتلفان

لما قضى صديق أحمد نحبه ... دفع الخلافة للإمام الثاني

أعني به الفاروق فرق عنوة ... بالسيف بين الكفر والإيمان

هو أظهر الإسلام بعد خفائه ... ومحا الظلام وباح بالكتمان

ومضى وخلى الأمر شورى بينهم ... في الأمر فاجتمعوا على عثمان

من كان يسهر ليله في ركعة ... وترا فيكمل ختمة القرآن

ولي الخلافة صهر أحمد بعده ... أعني علي العالم الرباني

زوج البتول أخا الرسول وركنه ... ليث الحروب منازل الأقران

سبحان من جعل الخلافة رتبة وبنى الإمامة أيما بنيان

واستخلف الأصحاب كي لا يدعي من بعد أحمد في النبوة ثاني

أكرم بفاطمة البتول وبعلها ومن هما لمحمد سبطان

غصنان أصلهما بروضة أحمد لله در الأصل والغصنان

أكرم بطلحة والزبير وسعدهم وسعيدهم وعابد الرحمن

وأبي عبيدة ذي الديانة والتقى وامدح جماعة بيعة الرضوان

قل خير قول في صحابة أحمد لله در الأصل والغصنان

دع ما جرى بين الصحابة في الوغي بسيوفهم يوم التقى الجمعان

فقتيلهم منهم وقاتلهم لهم وكلاهما في الحشر مرحومان

والله يوم الحشر ينزع كل ما تحوى صدورهم من الأضغان

والويل للركب الذين سعوا إلى عثمان فاجتمعوا على العصيان

ويل لمن قتل الحسين، فإنه قد باء من مولاه بالخسران

لا تركنن إلى الروافض إنهم شتموا الصحابة دون ما برهان

لعنوا كما بغضوا صحابة أحمد وودادهم فرض على الإنسان

حب الصحابة والقرابة سنة ألقى بها ربي إذا أحياني [(١)]

* * *

(١) نونية القحطاني (٢١- ٢٥).

الخلاصـــــة

(١) لقد سكن الشمال الأفريقي أجناس عدة من البشر أهمها: البرابرة والرومان والأفارقة والإفرنج.

(٢) إن من أهم الديانات التي انتشرت في الشمال الأفريقي قبل الفتح الإسلامي: النصرانية، والمجوسية، والوثنية.

(٣) إن لفظة الشمال الأفريقي تطلق على الإقليم: الذي يبدأ من نهاية الحدود المصرية غربًا إلى المغرب الأقصى غربًا، وتدخل فيه كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا.

(٤) إن الحضارات القديمة عاشت ونمت وازدهرت في الشمال الأفريقي ومن أهمها: حضارة السكان الأصلية من البرابرة، ومن الحضارات الوافدة: الفينيقية والقرطاجنية والرومانية والوندالية والإغريقية والنوميدية، إلا أنها اندثرت وتركت لنا معالم وآثارا تعين على مبدأ الاعتبار والاتعاظ بالأقوام السابقة.

(٥) لقد استفحل أمر النصرانية في الشمال الأفريقي إلا أن التفرقة العقيدية والمذاهب الفكرية، والصراعات المذهبية الحادة مزقته، وخصوصا الصراع العنيف الذي نشب بين الأرثوذكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية، وكان هذا الصراع من أهم عوامل ضعف الدولة القائمة مما جعل أهالي الشمال الأفريقي يقومون بضربات مسددة ضد النصرانية المنحرفة ويتمردون على دولتها المتعسفة ويتطلعون إلى الدين الصحيح لترتوي من ينابيعه المنعشة.

(٦) إن موقع ليبيا الاستراتيجي جعلها حلقة وصل بين جنوب البحر المتوسط وداخل إفريقية، فأهل ليبيا احترفوا التجارة من أزمان موغلة في القدم.

(٧) إن تلك الأمم والدول والشعوب التي سكنت الشمال الأفريقي مضت فيها سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير، ويحتاج الدارس للتاريخ أن يقف وقفة متأمل معتبر، ومتعظ خائف، ومفكر دقيق.

(٨) إن دعاوى المستشرقين في حركة الفتح الإسلامي بعيدة عن الدليل وخاوية عن البرهان، وتتهاوى أمام الحقائق الساطعة والأدلة الناصعة والنقد الموضوعي،

والبحث التحليلي المبني على المنهجية العلمية والمعرفة التاريخية الصحيحة.

(٩) يشهد التاريخ أن أهالي برقة قبلوا دعوة الإسلام بدون مقاومة، وإنما برضا وتسليم لدين الفطرة، وكانت برقة القاعدة الأصلية في غزوات الفتح والدرع الحصين عند الملمات، ونقطة الانطلاق والتوغل في الشمال الأفريقي ومجاهيل الصحراء الكبرى.

(١٠) إن الصحابي الجليل والقائد الأعلى للفتوحات في الشمال الأفريقي عمرو بن العاص رضي الله عنه تعرض لحملات مشينة لتلطيخ سيرته العطرة، ولقد وجهت قذائف الحق وصواريخ الإيمان إلى تلك الحملات وبينت سلامته مما نسب إليه وأنها بهتان وظلم وزور.

(١١) إن عدالة الصحابيين الجليلين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص تقوم على أسس عملية، وحقائق تاريخية، وأدلة دامغة، وبراهين ساطعة.

(١٢) إن عمرو بن العاص رضي الله عنه توقف في فتوحاته عند طرابلس بأمر من الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(١٣) إن عثمان رضي الله عنه الخليفة الثالث أمر عبد الله بن أبي السرح رضي الله عنه بمواصلة الفتح بعد أن جمع الصحابة واستشارهم في المدينة وأشاروا عليه بفتحها إلا أن سعيد بن زيد خالف رأي الصحابة متمسكا برأي عمر رضي الله عنه في ألا يغزو إفريقية أحد من المسلمين.

(١٤) لقد تولى قيادة حملات الفتح الإسلامي للشمال الأفريقي قادة عظام، تميزوا بالقدرة القيادية، والكفاءة الحربية، وتحلوا بالروح العالية في نشر الإسلام ودعوته، والجهاد في سبيله مدة زمنية زادت على سبعين سنة.

(١٥) كان قادة الفتح على التوالي هم: عمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، ومعاوية بن حديج، وعقبة بن نافع، وأبو المهاجر دينار، وزهير بن قيس البلوي، وحسان بن النعمان الغساني، وموسى بن نصير اللخمي، وكانت سيرة كل قائد من هؤلاء مليئة بالدروس والعبر والحكم، والتخطيط البعيد.

(١٦) من أشهر معارك الشمال الأفريقي حتى زمن حسان سبيطلة بإفريقية وقعت بين عبد الله بن سعد، والقائد الرومي «جرجير»، وانهزم فيها الجيش

البيزنطي وقتل قائدهم جرجير.

(١٧) ومعركة قمونية: بالقرب من القيروان حاليًا، نشبت بين القائد معاوية بن حديج وجيش الروم بقيادة نقفور، وانهزم فيها جيش الروم وقتل قائدهم.

(١٨) معركة تهوذة: وقعت بين عقبة بن نافع وكسيلة، وانهزم فيها جيش المسلمين، واستشهد القائد الفاتح العظيم عقبة بن نافع، بتهوذة.

(١٩) معركة ممس: «تقع بين القيروان وبين ولاية تبسة» نشبت بين القائد الصحابي زهير بن قيس البلوي وكسيلة، انهزم فيها جيش قبيلة (أوربة).

(٢٠) معركة وادي مسكيانة: وقعت بشرق الجزائر بين القائد حسان بن النعمان والكاهنة، انتصرت الكاهنة على حسان.

(٢١) معركة بئر الكاهنة: وقعت بين حسان بن النعمان وجيش الكاهنة انتصر فيها حسان، وقتلت الكاهنة عام ٨٢ هـ.

(٢٢) ومن معارك الأندلس الخالدة في تلك المرحلة: معركة جزيرة طريف بين المسلمين بقيادة طريف بن مالك وبين القوط الأسبان عام ٩١ هـ.

(٢٣) معركة جبل طارق: وقعت بين جيش طارق بن زياد والحامية المسيحية القوطية، وانتصر فيها طارق وفتح الجبل الذي سمي باسمه حتى الآن، وكان ذلك عام ٩٢ هـ.

(٢٤) معركة «وادي لكة أو شذونة»: وقعت بين طارق بن زياد، والملك القوطي لذريق، انتصر فيها المسلمين، وكانت عام ٩٢ هـ وتعتبر هذه المعركة حاسمة، لأنها فتحت أبواب الأندلس للمسلمين.

(٢٥) لقد استقر الإسلام فعليًا في الشمال الأفريقي في عهد الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز، ولقد ساعدت بعثة الفقهاء العشرة التي أرسلها عمر بن عبد العزيز، في تثبيت العقيدة الإسلامية، وتطهير النفوس، وتعليم الناس كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

(٢٦) لقد كان بجانب كتائب الجهاد المسلح سرايا وجنود من كبار الصحابة الفقهاء العلماء، ساهموا في فتح الشمال الأفريقي، ومن أشهرهم الحسن والحسين ابنا

علي، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن مسعود، وغيرهم كثير، وكان لهم أثر في نشر السنة والعلوم الإسلامية بين أهالي الشمال الأفريقي.

(٢٧) إن أمة الإسلام التي حملت دينها لتشعه على أهالي الشمال الأفريقي حملت معها حضارة متميزة عن حضارات الشمال الأفريقي التي قبلها والتي كانت وثنية أو ذات ديانة منحرفة عن الصراط المستقيم، ولذلك ظهرت أخلاق وضيعة في سلوكهم، ومارسوا على أهالي الشمال الأفريقي ظلمًا عظيمًا وعسفا وخيما، وكان دافعهم هو الطمع في خيرات البلاد الكثيرة، وحملوا عنهم ديانة عبادة الأوثان والانغماس في الشهوات، فانطمست البصائر وزاغت الأبصار وضاع التوحيد، ونزلوا في درجة أحط من منزلة الحيوانية، وجرت فيهم سنة الله في أخذ من يقع في الذنوب والمعاصي والشرك، ويبتعد عن منهج الله ونداء الفطرة.

(٢٨) إن عظمة الفتوحات الإسلامية تظهر إذا قارنتها مع ما سبق في الشمال الأفريقي من الغزاة الطامعين.

(٢٩) إن كل الجيوش الإسلامية التي دخلت الشمال الأفريقي كان داعيها ومحركها في حركة الجهاد العقيدة والحرص على هداية الناس وإزالة العوائق التي تحول بينهم وبين دين الفطرة.

(٣٠) إن الدولة الإسلامية منذ عصورها الأولى حرصت على الامتداد الطبيعي وضم الشمال الأفريقي لحظيرتها الميمونة.

(٣١) إن أهالي البلاد انصهروا مع الفاتحين في محاضن الإسلام العظيمة وحملوا لواء الإسلام والدفاع عنه والتوسع من أجل الدعوة في سبيله.

(٣٢) لقد ظهر دور العلماء والمحدثين والفقهاء من الصحابة والتابعين في إدخال القبائل في الإسلام وتعليمها وتزكيتها.

(٣٣) إن حركة المد والجزر والتوسع والانكماش في الفتوحات الإسلامية مرتبطة ارتباطا وثيقا باستقرار الخلافة والتغلب على الفتن الداخلية.

إن البحر المتوسط أصبح ببركة الفتح الإسلامي بحرا إسلاميا تابعًا للخلافة.

وهذه بعض النتائج التي وصلت إليها وقد ملت إلى الاختصار الشديد خوفًا من الإطالة والإطناب.

وأسأل الله العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد المتواضع قبولا حسنًا، وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأختم الكتاب الأول بقول الله تعالى:﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات ... أنا المسكين في مجموع حالاتي

أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي ... والخير إن يأتنا من عنده يأتي

لا أستطيع لنفسي جلب منفعة ... لا عن النفس لي دفع المضرات

والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا ... كما الغنى أبدًا وصف له ذاتي

وهذه الحال حال الخلق أجمعهم ... وكلهم عنده عبد له آتي

«سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

* * *

المراجـع والمصــادر

١- أثر الحديث في نشأة التاريخ عند المسلمين، د. بشار عواد طبعت في بغداد، سنة ١٩٦٦م.

٢- اختصار علوم الحديث، الشيخ إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، ط: دار الشعب بمصر.

٣- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، أحمد بن خالد الناصري السلاوي، القاهرة.

٤- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق علي محمد البجاوي، مطبعة نهضة مصر.

٥- أسد الغابة لمعرفة الصحابة، لأبي الحسن على بن محمد الجزري، دار الفكر، ط١٩٨٩م.

٦- الإصابة في تميز الصحابة، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد علي الكناني العسقلاني المعروف بابن حجر العسقلاني، المطبعة الشرقية.

٧- إعادة كتابة تاريخ صدر الإسلام، د.أكرم ضياء العمري، محاضرة مطبوعة على الآلة الكاتبة.

٨- الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، طبعة ١٩٧٩ م.

٩- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، محمد عبد الرحمن السخاوي، دار الكتاب العربي، حققه حسام المقدسي.

١٠- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لمحمد بن أبي بكر الزرعي، المشهور بابن قيم الجوزية، تصحيح محمد حامد الفقهي، دار المعرفة، بيروت.

١١- البداية والنهايةفي التاريخ، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي - مطبعة السعادة- القاهرة.

١٢- البدر الطالع، محمد بن علي الشوكاني، نشر دار البار، بمكة.

١٣- البيان المغرب في أخبار المغرب، أبو عبد الله محمد بن عذارى المراكشي، بيروت.

١٤- تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨ هـ.

١٥- تاريخ بغداد، أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، المكتبة السلفية بالمدينة.

١٦- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق د.أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، دار القلم ط٢، سنة ١٣٩٧ هـ.

١٧- تاريخ الفتح العربي في ليبيا، للطاهر أحمد الزاوي، دار التراث العربي، ليبيا، ط٣ .

١٨- تاريخ ليبيا، جون رايت، كتاب مصور، دار الفرجاني، طرابلس، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.

١٩- تاريخ المغرب العربي، سعد زغلول عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٥ م.

٢٠- التاريخ والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، طبعة مكتبة وهبة.

٢١- تحقيق مواقف الصحابة في الفتن، د.محمد محزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ/ ١٩٩٤م.

٢٢- تدريب الراوي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تحقيق عبد الوهاب عبد الفتاح، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة.

٢٣- تذكرة الحفاظ شمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث العربي.

٢٤- تفسير التاريخ الإسلامي، د. عماد الدين خليل، الطبعة الأولى، ١٩٧٥م، دار العلم للملايين.

٢٥- تفسير القرآن الكريم، إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميله، طبعة دار الشعب بمصر.

٢٦- تهذيب الأسماء واللغات، الإمام النووي، المطبعة المنبرية، مصر.

٢٧- جامع بيان العلم وفضله، ليوسف بن عبد البر النمري القرطبي، دار الكتب الحديثة.

٢٨- جامع الرسائل، للشيخ أحمد عبد السلام بن تيمية الحراني، تحقيق محمد رشاد سالم، مطبعة المدني.

٢٩- جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق وتعليق عبد السلام هارون، مطبعة المعارف، القاهرة، ١٣٨٢ هـ.

٣٠- جوامع السير، لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق د. إحسان عباس، د.ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر، طبعة إدارة إحياء السنة.

٣١- حسن البيان عما بلغته أفريقية في الإسلام من السطوة والعمران، محمد النيفر، المطبعة التونسية، ١٣٥٣ هـ.

٣٢- دراسات إسلامية، سيد قطب، طبعة دار الشروق.

٣٣- دواعي الفتوحات الإسلامية ودعاوى المستشرقين، د. جميل عبد الله المصري.

٣٤- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم وعبادهم ونساكهم وسير أخبارهم وفضائلهم لأبي عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، نشره الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م.

٣٥- سلسلة الأحاديث الصحيحة، محمد ناصر الدين الألباني، طبع المكتب الإسلامي.

٣٦- سنن ابن ماجه، محمد بن إسماعيل القزويني، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة الحلبي، بمصر.

٣٧- سنن أبي داود، سليمان بن أشعث السجستاني، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، طبع دار الفكر، بيروت.

٣٨- سنن الترمذي، محمد بن عيسى، تحقيق أحمد شاكر، دار إحياء التراث.

٣٩- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، مطبعة المعارف، القاهرة.

٤٠- سيرة النبي ﷺ أبو محمد عبد الملك بن هشام، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦م.

٤١- شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، مطبعة القدس، القاهرة، ١٣٥٠ هـ.

٤٢- الصحاح، إسماعيل الجوهري، تحقيق أحمد عبد الغفور، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين -بيروت.

٤٣- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي.

٤٤- صفة الصفوة، للإمام أبي الفرج بن الجوزي، دار المعرفة، بيروت.

٤٥- طبقات ابن سعد، محمد بن سعد، دار صادر، بيروت، ١٣٧٦ هـ.

٤٦- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، دار صادر، بيروت - لبنان، ١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م.

٤٧- عبد الله بن مسعود، أعلام المسلمين، عبد الستار الشيخ، دار القلم، دمشق، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨ م.

٤٨- العبر، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق فؤاد سيد، مطبعة الكويت، ١٩٦١ م.

٤٩- عقيدة أهل السنة والجماعة في الصحابة الكرام، د. ناصر بن علي، مكتبة الرشيد،

الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣ م.

٥٠- علم التاريخ عند العرب، عبد الحميد العبادي، فصل ملحق بعلم التاريخ، لجنة التأليف والترجمة بالقاهرة.

٥١- علم التاريخ عند المسلمين، فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، طبعة مكتبة المثنى، بغداد.

٥٢- العواصم من القواصم، لأبي بكر بن العربي، مكتبة السنة، الطبعة الخامسة، ١٤٠٨ هـ عابدين - القاهرة.

٥٣- فاتح الأندلس، طارق بن زياد، شوقي أبو خليل، دار الفكر، الطبعة الرابعة، ١٩٨٠ م.

٥٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المكتبة السلفية، القاهرة.

٥٥- الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، دار الشهاب، القاهرة.

٥٦- فتح العرب للمغرب، د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٤٧ م.

٥٧- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للشيخ عبد الرحمن بن حسن الشيخ، الطبعة الخامسة، ١٢٩١ هـ.

٥٨- فتوح مصر والمغرب، أبو القاسم عبد لرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي، مطابع لجنة البيان العربي.

٥٩- في التاريخ فكرة ومنهاج، لسيد قطب، الدار السعودية للنشر، جدة، ط١، ١٣٨٧ هـ.

٦٠- في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت.

٦١- قادة فتح المغرب العربي، محمود شيث خطاب، دار الفكر، الطبعة السابعة، ١٤٠٤ هـ/ ١٩٨٤م.

٦٢- قصائد الزهد، محمد أحمد السيد، مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الثالثة، ١٤١١ هـ/ ١٩٩١ م.

٦٣- القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ د.عبد الله بن محمد الرشيد، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩ م.

٦٤- الكامل في التاريخ، لعلي بن محمد الشيباني، دار صادر، بيروت.

٦٥- لسان العرب لابن منظور، قدمه عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف يوسف خياط، طبعة

دار لسان العرب، بيروت.

٦٦- لسان الميزان، أحمد بن علي العسقلاني، ط ٢، دار الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

٦٧- لمحات في التربية، محمد أمين المصري، طبع دار الفكر، بيروت، ط ٤، سنة ١٣٩٨ هـ.

٦٨- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان محمد فؤاد عبد الباقي، نشر دار الباز، بمكة.

٦٩- ليبيا منذ الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر، د. صالح مصطفى مفتاح المزيني، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤ م.

٧٠- مجموع الفتاوى، لأحمدبن عبد الحليم الحراني، الطبعة الثانية، مكتبة ابن تيمية.

٧١- المختصر في علم التاريخ، لمحمد بن سليمان الكافيجي، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣ م.

٧٢- مدرسة الحديث في القيروان، الحسين بن محمد شواط، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ.

٧٣- المالك والممالك، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكوفي، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، مطابع دار القلم، القاهرة ١٣٨١ هـ

٧٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني، مطبعة دار صادر، بيروت.

٧٥- معجم البلدان الليبية، لطاهر الزاوي، الطبعة الأولى، طرابلس، ليبيا، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨م.

٧٦- معجم ما استعجم، للبكري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الأولى، ١٣٨٨ هـ/ ١٩٦٨ م.

٧٧- مفاتيح العلوم لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي، الطبعة الثالثة، سنة ١٤٠١ هـ مكتبة الكليات الأزهرية بمصر.

٧٨- مقدمة ابن خلدون لعبد الرحمن بن خلدون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٧٩- مناقب عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن علي بن الجوزي، تحقيق الدكتورة زينب القاروط، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت.

٨٠- منهج كتابة التاريخ الإسلامي، محمد صامل العلياني السلمي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦ م.

٨١- ميزان الاعتدال، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق على البجاوي، دار المعرفة، بيروت.

٨٢- نفح الطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٦٨ هـ الطبعة الأولى.

٨٣- نماذج من شعر إيليا أبو ماضي، عبد اللطيف شرارة، دار صادر، بيروت، ١٩٦٥ م.

٨٤- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبو العباس أحمد القلقشندي، القاهرة، ١٩٥٩م، الطبعة الأولى.

٨٥- نونية القحطاني لأبي محمد عبد الله بن محمد الأندلسي، الطبعة الثالثة، ١٤١٠ هـ/ ١٩٨٩م، مكتبة الوادي للتوزيع.

* * * * * *



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الباب الأول : الشمال الأفريقي قبل الفتح الأفريقي	
الفصل الأول: سكانه..	٩
المبحث الأول: أصل كلمة أفريقية ومدلولها	٩
المبحث الثاني: العنصر البشري..................................	١١
الفصل الثاني: ديانته..	١٦
المبحث الأول: الديانة المجوسية	١٦
المبحث الثاني: الديانة اليهودية	١٧
المبحث الثالث: الديانة المسيحية	١٨
الفصل الثالث: حدوده	٢٣
الباب الثاني : ليبيا قبل الفتح الإسلامي	
الفصل الأول: معالم ليبيا	٢٧
المبحث الأول: أصل التسمية....................................	٢٧
المبحث الثاني: ليبيا في علم الآثار	٢٨
المبحث الثالث: حدود ليبيا......................................	٣٠
الفصل الثاني: سكان ليبيا قبل الفتح الإسلامي.......................	٣١
المبحث الأول: العنصر البربري..................................	٣١
المبحث الثاني: العنصر القرمنتي	٣٢
المبحث الثالث: العنصر الفينيقي..................................	٣٤
المبحث الرابع: العنصر القرطاجني................................	٣٨
المبحث الخامس: العنصر الروماني................................	٤٠
المبحث السادس: عنصر الوندال..................................	٤٣
المبحث السابع: العنصر الإغريقي	٤٨
المبحث الثامن: النوميديون	٥٢

الموضوع	الصفحة
الباب الثالث: الفتح الإسلامي لشمال إفريقية	
الفصل الأول: دواعي الفتح الإسلامي	٦٠
المبحث الأول: الأمة المسلمة ودورها الريادي	٦٠
المبحث الثاني: مبشرات الفتح الإسلامي	٦٢
المبحث الثالث: دعاوي المستشرقين، شبهات وردود	٦٤
الفصل الثاني: بدايات الفتح المبارك	٧٠
المبحث الأول: حملة عمرو بن العاص على برقة	٧١
المبحث الثاني: حملة عمرو بن العاص على طرابلس	٧٦
المبحث الثالث: حملة عمرو بن العاص على صبراتة	٧٨
المبحث الرابع: حملة عمرو بن العاص على مدينة شروس وعودته إلى مصر	٨٠
المبحث الخامس: فاتح ليبيا في سطور	٨٢
المبحث السادس: أهم صفاته القيادية	٨٤
المبحث السابع: قواعد ومبادئ في الاستراتيجية العسكرية	٨٨
المبحث الثامن: أعمال عمرو بن العاص في عهد الرسول ﷺ	٩١
الفصل الثالث: تثبيت دعائم الإسلام في المنطقة	٩٨
المبحث الأول: حملة عبد الله بن سعد على أفريقية	٩٩
المبحث الثاني: فاتح إفريقية «تونس» في سطور	١٠٤
المبحث الثالث: مناقب عبد الله بن سعد ﷺ	١٠٦
المبحث الرابع: مبادئ في الاستراتيجية العسكرية	١١٠
المبحث الخامس: أهم صفاته القيادية	١١١
المبحث السادس: أعماله في عهد الخليفتين عمر وعثمان رضى الله عنهما ..	١١٢
الفصل الرابع: معاوية بن حديج وأبرز معالم عهده	١١٣
المبحث الأول: حملة معاوية بن حديج على ليبيا وإفريقية	١١٤
المبحث الثاني: معاوية بن حديج في سطور	١١٧
الفصل الخامس: عقبة بن نافع قائد فتح الشمال الأفريقي	١٢٢
المبحث الأول: بداية الفتح المبارك	١٢٣

الموضوع	الصفحة
المبحث الثاني: تأسيس أول مدينة إسلامية في الشمال الأفريقي.........	١٢٥
المبحث الثالث: فاتح المغرب في سطور	١٢٦
المبحث الرابع: مناقبه ﷺ	١٢٩
المبحث الخامس: أهم صفاته القيادية	١٣٨
الفصل السادس: قادة فتح المغرب الأوسط والأقصى	١٤٠
المبحث الأول: أبو المهاجر دينار	١٤٠
المبحث الثاني: أهم صفاته القيادية ومبادئه الحربية	١٤٤
المبحث الثالث: زهير بن قيس البلوى ﷺ	١٤٧
المبحث الرابع: حسان بن النعمان الأزدي الغساني	١٥٢
المبحث الخامس: موسى بن نصير اللخمي	١٦٨
المبحث السادس: عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي	١٩٠
المبحث السابع: عبد الملك بن مروان الأموي	٢٠٢
المبحث الثامن: رويفع بن ثابت الأنصاري	٢٠٨
الباب الرابع: عهد الولاة	
الفصل الأول: كتاب يهدي وسيف يحمي	٢١٣
كتائب الدعاة والمجاهدين نحو الشمال الأفريقي	٢١٤
الفصل الثاني: الصحابة الذين دخلوا ليبيا واستقروا في مدينة القيروان .	٢٢٥
المبحث الأول: عددهم وتحقيق القول في ذلك	٢٢٥
المبحث الثاني: أثر الصحابة الرواة في نشر السنة بالقيروان وإفريقية.....	٢٢٧
المبحث الثالث: كبار الصحابة أو الصحابة الرواة	٢٣٠
الخلاصة	٢٤٩
المراجع والمصادر	٢٥٥
فهرس الموضوعات	٢٦١

* * *





- أبي بكر الصديق
- صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي
- الدولة الأموية
- عمر بن الخطاب
- فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم
- الدولة الفاطمية
- عثمان بن عفان
- الوسطية في القرآن الكريم
- دولة المرابطين
- علي بن أبي طالب
- عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين
- دولة الموحدين
- الحسن بن علي
- فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة
- دولة السلاجقة
- عبد الله بن الزبير
- حقيقة الخلاف بين الصحابة
- الدولة الزنكية
- عمر بن عبد العزيز
- فتنة مقتل عثمان بن عفان
- الدولة العثمانية
- محمد الفاتح
- الإمام الغزالي
- عماد الدين زنكي
- نور الدين محمود زنكي
- الشيخ عبد القادر الجيلاني

